

ح أدب رحلات

أسفار المشتاق

جمال الغيطانى

دار سعاد الصباح


أسفار المشتاق

الطبعـــة الأولــــى ١٩٩٢

دار سعـــاد الصبـــاح
ص.ب : ٢٧٢٨٠
الصفاة ١٣١٣٣ ـ الكويت
ص. ب: ١٣ المقطم ـ القاهرة

أسفار المشتاق

متتاليات فى المكان والزمان

جمال الغيطانى

.. قصدت المغرب ثلاث مرات ، عبر أحد عشر عاماً ، وقبل زيارتى لهذا البلد العربى الأصيل ارتبطت بـه عبر تاريخه وثقـافته ، وبعد تـرددى عليه ، أصبح جـزءاً هامـاً من تكوينى الـروحى . وتلك المتتـاليات كتبت عقب كل رحلـة من رحلاتى الثلاث .

متتاليات مغربية

١٩٧٩

١٩٨٩

١٩٩١

أسفار المشتاق

« .. يرتبط المغـرب بما هو غير عادى ، قد يكـون الغموض ، ربما مبعث ذلك فى نفسى ، هذا الرجل الذى كـان يطوف حوارى الجمالية ، أو قرى الصعيد الجنـوبية ، مـرتديا الجلبـاب المغربى ذو غطـاء الرأس المثلث ، ويمسك بحقيبة تتضـمن السـحر والأسرار ، كان ينادى : «افتح الكتاب» ، وإذ يستدعيـه أحد ، يجلس متمتماً ، ثم يحاول النفـاذ عبر المجهول إلى المستقبل ، وأحيـاناً كان يعـد الأحجبة المثلثـة أو المستديـرة ، تلك التى تعالج الأوجـاع أو تقى من الآلام . ربما لأن المغرب كـان يمثل فى الزمن السحيق حدود العالم القديم ، حيث تلامس شواطئه مياه البحر المحيط الذى لم تكن تبدو له ضفة ولا يـدري أحد المجهول الذى يخفيه الأفق ، وكثيراً ما كان الخيال يجنح إلى المغرب العـربى ، ومع حلول نهاية عام ١٩٧٩ ، كانت الطائرة المغربية تتـوقف فى مطار «الدار البيضاء» ، بعد طيران استمر أكثر من خمس ساعات لعبور المسافة التى تفصل القاهرة عن المغرب .

كانت المناسبة هي إنعقاد مؤتمر الرواية العربية الحديثة فى المغرب ، الذى نظمه إتحاد كتاب المغرب ، على نفس الطائرة معى الأديب ادوارد الخراط وكان صنع الله ابراهيم قد طار قبلنا بأربعة وعشرين ساعة ، اجتزنا صالات مطار الدار البيضاء الصغيرة التى تخللتها الاجراءات المعتادة من التدقيق في جوازات السفر ، والاستفسار عن النقود ، ومراجعة قوائم الممنوعين داخل الاكشاك الزجاجية ، كان فى انتظارنا أديبين مغربيين تطوعا لنقل أعضاء الوفد المصرى من الدار البيضاء إلى مدينة فاس التى تبعد حوالى أربعمائة كيلو متر عن الدار البيضاء ، كان محمد حميشى في حدود الثلاثين ، عربى الملامح ، بدا ودوداً ، كنت مرهقاً نتيجة للسفر الطويل ، وإنعدام النوم لساعات تتجاوز العشرين ، تلك الحالة من القلق التى تصحب الإنتقال من مكان إلى مكان ، والتى تدفع إلى روحى بدهشة بالغة عندما أرى بعض الركاب يسندون رءوسهم إلى المقاعد ، ويغطون في نوم عميق قبل أن تحلق الطائرة ، أو يسير القطار ، رحت أمنى النفس بإغفاءة محدودة فى السيارة ، وكنت أثق من ذلك كنتيجة طبيعية للإرهاق الشديد ، ولكن مع بدء دوران العجلات ، وتوالى الأشجار بسرعة إلى الخلف ، ورؤية مقهى صغير أقيم لخدمة المسافرين ، ولافتة بيضاء تشير إلى طريق مدينة الرباط ، وعلمى بأن محمد حميشى قائد السيارة قطع نفس الطريق في اليوم السابق ليصحب صنع الله ابراهيم ، وانه لم ينم ، مع هذا كله ، تبدد التعب ، وبدا الشعور بالإنهاك مؤجلاً ، يتخلل اليقظة نهم لرؤية كل التفاصيل واستيعاب الأشياء الجديدة التى تقع عيناى عليها لأول مرة ، كان هذا المكان كله أسماء مجردة أقرأ عنها في الكتب ، أو فوق الخرائط الصماء ، وها هو واقع أعيشه ، كنت حريصاً على أن أتحدث إلى محمد حميشى الذى بدت عيناه مجهدتين ، فيما بعد عرفت انه بلا عمل ، وإنه مفصول من وظيفته

كمدرس لأنه اشترك فى اضراب كبير جرى فى ابريل الماضى ، وانه يعيش فى المحمدية المنطقة الصناعية التى تبعد عن الدار البيضاء عشرون كيلومترا تقريباً إلى الشمال . كنا نتحدث بالفصحى لأن العامية المغربية بدت لنا صعبة ، ومع الطريق غمرتنا هذه الحميمية التى تنشأ بسرعة بين أشخاص لا يعرفون بعضهم معرفة شخصية ، ولكنهم يعيشون هموماً متشابهة ومواقف متقاربة، توالى الطريق بسرعة ، وعبرنا مدينة الرباط (سأعود إليها فيما بعد) ، كانت الخضرة كثيفة ، وبدا لى كأن الوجود فى المغرب يعرض نفسه من خلال لونين ، الأبيض ، والأخضر ، الأبيض الشاهق ، الناصع يحتوى البيوت ، الحديث منها والقديم ، البيوت متعددة الطوابق ، وذات الطابق الواحد ، والخضرة كأطار ، ولكن هذه الخضرة تكتسب بعداً أعمق عندما بدأت السيارة تتجه لعبور جبال الأطلس الوسطى ، تصبح الأرض متعددة المستويات ، تعلو وتنخفض ، ولا يبدو من الوديان إلا مقدماتها ، أما داخلها ، عمقها فتحجبه أشجار كثيفة تتجاوز متلاصقة لكنها تسمح لجداول مائية صافية بالترقرق البطىء ، تلك الجسور الصغيرة القديمة ، ثم غابات من أشجار الفلين ، غابات من صنع الإنسان لأن الأشجار مصفوفة ، مع حركة السيارة تتعاق وتتقاطع ، كنا نبتعد عن شاطئ المحيط ، نتجه إلى الوسط ، وعلى الرغم من تشابه الطبيعة هنا بأماكن أخرى رأيتها فى أوروبا ، خاصة في الوسط ، أو شمال العراق ، لكن يظل للطبيعة هنا تكوينها الخاص ، وروح فريدة ، هل مبعث ذلك إلى ما ارتبط في ذهنى من غموض ، أو بسبب ما أقامه الإنسان هنا والذى يؤكد لك بإستمرار مغربيته ، فى الطريق توقفنا دقائق احتسينا أكواب الشاى الأخضر المحلي بالنعناع ، يقدم في أكواب زجاجية متسعة قرب الفوهة . وفي السائل الأخضر الحلو ترقد أوراق النعناع الخضراء ، هكذا يشربون الشاى فى المغرب ،

ويطلقون عليه «أتاى» ، وذكـرنى العبق النعناعى بمقهى الفيشاوى القديم قبل هدمـه ، والشاى الأخضر الذى كان يقـدمه إلى الزبائن في أكـواب صغيرة ، لقد انتهى ذلك الآن ..

نعـود إلى الطريق ، ونمـر بمدينـة «مكنـاس» تبدو لنـا أسوارهـا القديمـة والضباب الشتوى يضفى عليها لون الحلم ، نستمـر ، وندخل إلى مدينة فاس ، فى الفندق وعند المدخل ، التقيت بالصديـق الروائى العربى عبد الرحمن منيف ، كان قد وصل لتوه ، وكان قد مضى ثلاث سنوات كاملة منذ أن رأيته آخر مرة، وكان ذلك فى بغـداد ، وسوف يتحدث منيـف عن تجربته الروائيـة فى الندوة ، وسيكون من أصدق المتحدثين ، تبدو ملامح منيف حادة ، وكأنه على وشك أن يتحدث بصوت مـرتفع ، ولكنه يظل صامتاً ، وعندما يتحـدث يكون واضحا ، قليل الكلمات ، وتبدو من انفعـالاته ذلك اللهب الذى يضطرم فى أعماقـه ، كانت الندوة بلا مبالغة من أهم الندوات الأدبية التى عقدت فى العالم العربى ، إذ لأول مرة يجلـس عدد من الـروائيين المبدعين مع مجمـوعة من النقـاد والدارسين ، ويتناقشون فى الموضوعـات المتعلقة بالرواية الحديثة في العـالم العربى ، كانت النـدوة رفيعـة المستـوى ، ومن خـلالها أمكـن لي مـلاحظـة بعض العنـاصر الأساسيـة المكونة للمثقفين المغـاربة، ان قربهم من أوروبـا ، خاصة فـرنسا ، جعلهم متتبعين لأهم التيـارات الأدبية وأحـدثهـا ، ولكن هذا لم يكن سببـا في انفصالهم عن تراثهم العربى ، بالعكس ، فهم شديد و الصلة به ، ولا ينظرون إليه بتقديس أعمى ، أو تعالى مترفع ، واعتقد ان مسار الثقافة في المغرب العربى سيشهد تطورات هـامة فى المستقبل ، خاصة فى مجال تلاقى الثقـافتين العربية والأوروبيـة ، وولادة مـزيج منهما ، فى النـدوة التقيت بعـدد من الـزمـلاء والأصدقـاء الذين مضت فترات زمنية متباعـدة على رؤيتى لهم ، وكنت معنيا

بتتبع آثار الـزمن عليهم، وما جـرى لهم ، خاصـة الـذين غادروا القـاهرة ، إلى أوروبا ، أو بعض البلاد العربية ، ربما يأتـي يوم أتحدث فيه عن هذا الموضـوع بشكل أكثر تفصيلاً .

فاس القديمة

ديسمبر ١٩٧٩

.. فى كل مدن المغرب قسمين رئيسيين ، الأول يضم المدينة القديمة ، تقبع داخل الأسوار ، أو فى الحدود التى لم تتجاوزها مع الزمن ، وعلى مسافة قد تطول أو تقصر حتى التلاشى تقوم المدينة الحديثة ، وهكذا تغلبت المغرب على المشكلة التى تبرز فى كثير من البلاد العربية وهى غلبة الطابع الحديث على المناطق القديمة والأثرية ، هكذا الأمر فى فاس ، هناك فاس الحديثة ، حيث الفنادق المكيفة ، والمبانى الشاهقة ، والمقاهى ذات الطابع الباريسى ، ثم ننتقل إلى حى «الملاح» ، وفى كل مدينة مغربية يوجد أيضاً «ملاح» وهو المنطقة السكنية الخاصة باليهود ، أى «الجيتو» اليهودى ، صحيح أن هذه الأماكن لم تعد قاصرة على سكناهم ، ولكنهم يشكلون أغلبية فيها ، و«الملاح» يقوم دائماً فى مواجهة القصر الملكى ، كرمز لحماية السلطان المغربى لهذه الأقلية ، وهذا بعكس المدن الأوروبية التى يصبح فيها «الجيتو» منبوذاً ، منطوياً ، نتجاوز الملاح باتجاه «فاس» القديمة ، نصل إلى بوابة «أبو الجلود» وتشبه معظم بوابات المغرب ، والبوابات الأندلسية ، حيث الأعمدة تسند مقطعاً دائرياً يشبه الخطوط الخارجية لثمرة البصل ، الباب كبير ، مرصع بنقوش دقيقة ، انه مدخلنا إلى قلب مدينة «فاس» ، للمدينة سبعة أبواب ، رقم سبعة السحرى ذو الدلالة والمعنى ، هناك باب الحديد ، وباب المحروق ، وباب الفتوح ، وباب الحمرا ، وعلى عكس معظم المدن التى رأيتها ، فان فاس عند اختيار موقعها لم تبن فوق مرتفع ، أو فوق جبل ، وذلك تفادياً للحصار، أو الفيضان ، بل شيدت فى وادى منخفض تحيط به مرتفعات جبلية صخرية ، وقفت فوق نقطة مرتفعة

تشرف على فاس القديمة ، أو (فاس البالية) كما يطلقون عليها فى المغرب ، كانت معالم المدينة تبدو بوضوح ، والبيوت الصغيرة البيضاء ذات النوافذ الخضراء ، بينما يحيط المدينة اطار جميل من الخضرة التى تكسو الجبال ذاتها ، لقد كان من الصعب على القوات المهاجمة فى العصور القديمة أن تتسلق هذه المرتفعات الوعرة ، وبالتالى فان المدينة تقبع فى السهل آمنة يحيطها السور الحجري ، بينما روعى في تصميمها الداخلي اعتبارات حربية أيضا ، فالشوارع ضيقة إلى حد أنها فى بعض المواضع لا تتسع لأكثر من مرور شخص واحد ، وأحياناً كانت المسافة لا تكفى لفتح مظلة متوسطة الحجم للوقاية من المطر ، وكثيراً ما يكون مدخل الحارة محدوداً بارتفاع معين حتى يجبر الداخل على الإنحناء ، وهذا نجده متبعاً لغرض آخر حول مقام سيدى ادريس الثانى ، حيث تمتد عوارض خشبية لتصنع حداً من الإرتفاع لا يسمح لرجل متوسط القامة بالمرور إلى منطقة الضريح ، بدون أن ينحنى رأسه ، ورءوس كل الداخلين احتراماً ، لا ترى منشآت فاس القديمة من مسافة بعيدة أو متوسطة ، فجأة تجد نفسك فى داخل ضريح ادريس الثانى ، أو فى جامع القرويين ، المسافات ضيقة ، والجدران متقاربة ، والحركة داخل المدينة منذ اجتياز بوابة أبو الجلود تشبه الحركة داخل بيت كبير ، تتحقق هنا الوحدة المكانية نتيجة التكدس والتجاور ، ولكنه ليس تكدساً خانقاً ، يمكن أن أقول إنه حميمى ، جزء من طبيعة المكان ، إن المدينة تستدرجك إليها على مهل ، وفى بطء من خلال طريقين رئيسيين، الطلعة الكبرى ، والطلعة الصغرى ، سلكنا الطلعة الكبرى ، وبالطبع عند الدخول تصبح منحدراً متجهاً إلى القلب ، وعلى الجانبين تتوالى الأسواق ، نفس التكوين الخاص بالأسواق العربية فى جميع المدن التى زرتها ، لكل سلعة قسم خاص ، ولكل حرفة مساحة معينة تحتلها ، وتتفرع الحارات الضيقة ، تبدو أبواب البيوت متواضعة المظهر ، احلاها شبه دائرى ، ويبدو واضحاً ان الباب الرئيسي لا يؤدى إلى المدخل مبارة إنما لا بد من إجتياز باب آخر يشكل

مع الباب الرئيسي زاوية قائمة ، وذلك لحجب الفناء الداخلي عن المارة لحظة فتح الباب الرئيسي وإذ تدخل البيت المغربى سواء فى فاس أو فى المدن الأخرى فكأنك انتقلت من العسر إلى اليسر ، أو ولى الضيق الذى حل مكانه فرج، تجد الدور فسيحة ، المضمون المريح ، المدندش بالزخارف الجصية والمنمنمات الرخامية ، حتى تبدو وكأنها نقشت بأبرة رفيعة المقدمة ، وعادة تتوسط الدار نافورة مياه أو حديقة ، اننى أصف دور الطبقة المتوسطة ، أما القصور الصغيرة أو الكبيرة فلها شأن آخر ، ان الدار المغربية تعزل المقيم فيها عن ضجيج العالم وصخبه ، حيث الهدوء لازال كما هو ، بالضبط كما كان الأمر في العصور الخوالى ، وفى الطابق الأرضى غرفة الاستقبال ، وحول الجدران تصطف أرائك بدون مساند خشبية (كنب) إنما توضع حشايا لإراحة الظهر ، وعند تناول الطعام توضع مناضد منخفضة دائرية تشبه «الطبلية» التى تستخدمها الأسر المصرية الشعبية لتناول الطعام ، وهذه «الطبلية» يوضع فوقها مفارش بعدد أصناف الطعام التى ستقدم إلى الضيوف ، وعادة تقدم «البصطيلة» فى البداية ، وهى فطيرة مغربية لها طعم خاص ، وتجمع بين النقيضين ، السكر والملح ، باطن الفطيرة محشى عادة باللحوم أو الدجاج ، وسطحها يغطى بالسكر ، ثم يزال المفرش الأول ببقايا الطعام ، ثم يجىء الدجاج المطهو بزيت الزيتون ، ويليه اللحم الذى تتوسطه القراصيا حلوة الطعم ، أما الكسكسى فهو الطبق المغربى المميز ، ويوضع فوقه الخضروات المطهوة واللحوم ، وذلك بعكس الكسكسى المصرى الذى يؤكل بالسكر واللبن ، وهناك صنف آخر من الطعام اسمه «الحريرة» أو الشوربة المغربية ، ونفس هذا الاسم يطلق على صنف من الشوربة فى صعيد مصر يصنع من الدقيق ، واللبن ، وتشهد البيوت المغربية حفلات فنية خاصة في المناسبات ، وتحيى هذه الحفلات فرق فنية تؤدى الموشحات الأندلسية ، أو «الملحون» وهو شكل من انشاد القصائد الشعبية على الحان بسيطة تؤديها فرقة موسيقية مكونة من أربعة أو خمسة أفراد ، وعندما

تأخذ النشوة بأفئدة الرجال يقومون للرقص على أنغام الدف ، والرقص المغربى مزيج من الرقص العربى والأفريقى ، خلو تماما من التخنث ، فيه رجولة ، وأصداء داخلية وحشية .

تبدو الدار المغربية عالم قائم بذاته ، لا يسمح لعوامل الضجيج والكدر الخارجي بالتسرب إلى الداخل ، صاحب بيت مغربى أشار إلى جدران بيته المرصعة بالنقوش الجصية والرخامية .

«فى فاس ، نقول إن دار كهذه تفرح وتقرح ، أى انها تفرح العائلة كلها فى العرس ، وتحزن أهلها عندما يخرج أحدهم بلا رجعة» .

* * *

نعود إلى طرقات فاس المتشابكة ، ولنمر بالدكاكين الصغيرة ، التى لا تتسع أحياناً إلا لصاحبها الذى يطل على المارة والزبائن من طاقة ضيقة ، ان الأسواق لا تتجاور هنا فقط ، وإنما تتضمن الورش التى تصنع فيها الحرف ، معظم المتاجر هي أيضاً عبارة عن ورش ، تعتبر فاس عاصمة الصناعة التقليدية منذ العصور الأولى ، وقد وصف الحسن الوزان فى القرن العاشر مصانعها ، ولاحظ أن الضفة اليمنى لوادى فاس كانت تضم مصانع التغذية والملابس والبناء ، بينما كانت صناعة الجلود والمعادن تعالج خارج عدوة الأندلس ، لقد أعطى مختلف الرحالة وصفا شاملاً عن صناعات فاس فى عصور مختلفة ، كانت الصناعة الفاسية الكبرى تتمركز حول قنوات ساقية مصمودة ووادى فأس غربى المدينة وجنوبي غربها ، وكان بها ٥٢٠ معملاً للنسيج . و٣٦٠ طاحونة ، فى عام ١٩٠٤ كان قد تبقى منها ١٦٠ ، وجاء فى «زهر الآس ص ٣٣» ان فى زمن المنصور محمد الناصر كان عدد الأطرزة بفاس ٣٠٩٤ ، ودور الصابن ٤٧ ، ودور الدباغة ٧٦ ، والصباغة ١٦١ وتسكيك الحديد والنحاس ١٢ والزجاج ١١ ، وأفران الخبز ١١٧٠ .

قال المراكشى فى «المعجب» ... «ما أظن فى الدنيا كمدينة فاس أكثر مرافق

وأوسع معايش وأخصب جهات وذلك انها مدينة يحفها الماء» .. لقد كان هذا الأزدهار نتيجة لتفاعل عناصر عديدة في فاس ، خاصة ازدواج الحضارتين الأندلسية والمغربية ، فقد هاجرت ثمانية آلاف عائلة من قرطبة إلى فاس ، فى الوقت الذى وجدت فيه قبل ذلك جالية قيروانية سبقتها إلى المدينة ، كان العرب يعملون ويتاجرون ، وكان الأندلسيون يشتغلون بالفلاحة ، التقى فى فاس علم قرطبة ، وعلم القيروان ، وصبا فى رافد الثقافة المغربية ، ولا تزال فاس تنقسم إلى قسمين ، عدوة الأندلسيين ، وعدوة القرويين ، والمدينة التى نتجول فيها الآن أسست فى زمن ادريس الأكبر سنة ١٧٢ هـ (٧٨٨ م) . فوق أحد المواضع هنا ، صعد المنبر ، بعد أن تم بناء المدينة والمسجد ، ودعا قائلا «اللهم إنك تعلم أنى ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة ، ولا مفاخرة ، ولا رياء ، ولا سمعة ، ولا مكابرة» اتسعت فاس فى أيام بنى مرين ، اتخذها أمير المسلمين أبو يوسف على مقراً لملكه فى ٦٧٤ هـ (١٣٢٣ م)، وبنى امتداداً لها يعد مدينة قائمة بذاتها ، كانت فاس مباركة ، لا يموت فيها خليفة ، ولا يخرج منها جيش قط إلا وعاد مظفراً ، ولم يعقد بها لواء قط إلا نصر ، هكذا يقول المؤرخون ..

وننتقل من درب إلى آخر حتى نجد أنفسنا فى قلب جامع القرويين .. أهم معالم المدينة ، وأحد مراكز الإشعاع الحضارى فى العالم خلال القرون الوسطى .

* * *

لأن المدينة ضيقة ، لا توجد فيها مساحات فسيحة ، أو ميادين متسعة ، لهذا لا يمكن رؤية جامع القرويين بشكل مكتمل إلا من خلال صحنه الداخلى ، أو من فوق الجبل المحيط بفاس ، فجأة نجد أنفسنا أمام أسواره ، ونعبر رخامة بيضاء تصل بين ضفتى الطريق ، لم يكن يعبر فوقها إلا الطلبة، عند خروجهم من الميضئة ، وعند تجاوز الباب نجد قناة يتدفق فيها الماء بسرعة ، والماء لا يتدفق هنا فقط ، إنما يسرى فى عروق فاس كلها ، تجده فى الطرقات الضيقة ،

وخلال الجدران ، يسيل من ثقوب ضيقة ، ويقال إنه لا يوجد مثل هذا النظام إلا فى غرناطة ، وفى مدينة فاس ، حيث يتم تدفق الماء فى جميع أوصال المدينة ، طبقاً لنظام دقيق ، إن هذا التدفق المستمر ، يكسب المدينة حيوية خفية خاصة ، إلى جانب حيوية الحركة ، والزحام ، واستمرار الحياة ، تحف بالصحن المكشوف للجامع زخارف اندلسية ، ومنمنمات دقيقة ، وخطوط مختلفة تعتبر متحفا حياً للخط العربى الجميل على فترات تاريخية متفاوتة ، أقدم لوحة نجدها فى القبة الرابعة ، يرجع تاريخها لأواسط القرن الثالث الهجرى ، اكتشفت مدفونة تحت الجبس ، مكتوبة بالخط الكوفى العتيق ، طولها أربعة مترات وأربعة وسبعين سنتيمتراً ، نعرف منها أن فاطمة الفهرية التى تطوعت ببناء القرويين ، وان الأساس حفر فى أول رمضان ٢٤٥ هـ ، وانها لم تزل صائمة طوال مدة أعمال البناء ، وان العمل كان يباشر بواسطة العاهل الأدريسى يحيى الأول ، لقد استغرقت أعمال البناء ثلاث عشرة سنة ، إذ انتهت فى ٢٦٣ هـ ، فى القرن السادس الهجري قام المرابطون باصلاحات هامة فى القرويين ، فى الصحن المكشوف ساعتين شمسيتين ، وساعة مائية ، تعد الوحيدة من نوعها التى لا تزال متبقية فى العالم ، هناك قباب سبعة ذات أبعاد واسعة ، فى الصحن المغطى نجد ثلاثمائة وخمسة وستين عموداً رخامياً ، أى بعدد أيام السنة ، ونلحظ شبها قوياً بين هذا الصحن الداخلى لمسجد الأزهر بالقاهرة ، ربما يرجع ذلك إلى أن الأزهر بنى فى أول عهد الدولة الفاطمية بمصر التى جاءت جيوشها من المغرب ، فى الداخل نجد منبراً خشبياً نفيساً ، وصل إلينا من عصر المرابطين ، طرز بآيات من القرآن الكريم بالصدف الثمين والعاج، ونلاحظ أن الخط المستخدم به كوفى وأندلسى ، لقد خصص للمنبر فى الزمان القديم غشائين أحدهما من الجلد ، والثانى من الكتان ، يزاحان عنه كل يوم جمعة ، وذلك حفاظاً عليه . ويضم جامع القرويين آثارا هامة من عصر الموحدين ، إذ توجد أبواب داخل المسجد تنفذ من قاعة الصلاة ، إلى قاعة

الجنائز ، تعرف تحت اسم «أبواب الروح» ، مصنوعة من الخشب ، تحمل نقوشاً منحوته من الزهور والسلاسل ، تحمل آيات قرآنية ، وبيتين من الرجز..

يا واقفاً لدى ان أبصرت منى ما ترى

جد بالدعا لصانعى بجاه سيد الورى .

لقد صنعت هذه الأبواب فى سنة ٥٧٨ هـ . من عصر الموحدين أيضاً ، نجد الثريا الكبرى التى صنعت بفاس سنة ٦٠٠ هـ ، وإذا عدنا إلى صحن المسجد فسنجد شباكاً من الرخام أبيض يحتوى على مائة وأربعة وعشرين خاتماً ، ويحتوى هذا الشباك تكوين بديع عرف باسم «خصة العين» أو «الخصة الحسناء» ، ويوجد تحتها خطوط نسخية تؤرخ تاريخ الصنع ، وتاريخ دخول الماء إلى المسجد ، سنة ٥٩٩ هـ ، فى الجامع نجد ستة نواقيس كبيرة غنمهم المسلمون أثناء حروبهم فى أسبانيا ، أحد هذه النواقيس يحمل عبارة بالأسبانية:

«على الروح الطيبة أن تشكر الله على أن أنقذها من الضلال»

ويتصل بالجامع خزانة ضخمة للكتب ، تضم تراثاً هائلاً من المخطوطات النادرة ، لقد درس هنا ابن طفيل ، وابن رشد وابن باجه وعدد آخر من المفكرين والعلماء المسلمين ، بل ان كثيراً من الأوروبيين جاءوا إلى القرويين للدراسة ، أحدهم أصبح بابا روما فى القرن السابع عشر ، كانت القرويين أحد ثلاثة مراكز فى العالم الاسلامى ، إلى جانب الزيتونة فى تونس ، والأزهر فى القاهرة ، يقف جامع القرويين ، بتراثه الموغل فى القدم ، وما يحتويه من آثار عربية تمثل العديد من المدارس الفنية ، يقف وسط صخب الحياة ، مزروعاً فى قلب مدينة فاس فكأنه جزء مما يحيطه من بيوت ، عبر رحلة مقدارها أكثر من ألف سنة حتى وصل إلى عصرنا ، ومع ذلك فلازال غضا ، يفيض بالحيوية ، والثراء .

نخـرج من جامـع القرويين ، نعـود إلى الأزقـة المثقلة بعبق تـاريخى ، نتوقف أمام متجر مغلق محلى بزخارف غامضة ، يقولون إن النبى عليه الصلاة والسلام جاء إلى فاس وقضى ليلـة واحدة (مع ان فاس شيدت بعد الهجـرة بمائتى سنة تقريباً) ثـم عاد إلى مكة ، يسمون هـذا المتجر متجر النبى ، هكذا تقول الأسطورة ، ولا يفتح فى كل عام إلا مرة واحدة ليلـة المولد النبـوى حيث ينطلق من أمـامـه موكب المولـد ، ونمضى فى الطرقات ، قـاصدين خارج المدينة ، صـاعدين الطريق الـذى انحدر بنا عند النزول ، ولنـوع مدينة عرفت كيف تقـاوم البلى مع أن اسمها فاس البالية ، وتحتفظ بحيويتها عبر مئات السنين ، وهذا ما أكسبها خاصية مميزة ، قـد لا يستطيع العقل إدراكها بسهولـة ، ولكنها تترك فى النفس هذا الحنين البطىء الغامض إلى زمن مضى ، ولن يعود .

* * *

١٩٧٩

من الرباط إلى مراكش البعيدة
عن الزمان والمكان

ديسمبر ١٩٧٩

... تقع مدينة الرباط على شاطئ المحيط الأطلسى ، أى أن البحر يحدها بلا نهاية ، فى الماضى كان يسمى بحر الظلمات قبل اكتشاف الجانب الآخر منه ويحد المدينة نهر ابو الرقراق حيث مدينة «سلا» على الضفة الأخرى إلا أن الإنسان لا يشعر بالمحيط ، ولا بالنهر ، طوال بقائه وتجواله فى المدينة !

والرباط تستدير مبتعدة عن المحيط الذى تطل عليه ، البيوت لا تفتح عليه والطرقات تتوارى بعيدة عنه ، الشىء الوحيد الذى يجاور المحيط مقابر المدينة التى تقع اسفل قصبة «الوداية» لم أجد تفسيراً فى تاريخ الرباط الطويل لهذا البعد عن المحيط إلا نظرة السكان القدامى للمجهول الذى كان يأتى من خلف الأفق الأزرق ، لم يكن البحر يأتى إلا بالشر ، القراصنة ، وأعداء الإسلام من الصليبيين ، والأساس الذى بنيت عليه الرباط يمت بصلة قوية إلى هذا السبب ، فكلمة الرباط تعنى المكان الذى يقيم فيه المجاهدون ليلاً ونهاراً لدفع الخطر الأجنبى !

رباط الفتح

يرجع الفضل فى انشاء المدينة إلى الموحدين ، كان الموقع الذى يطل على نهر ابى الرقراق مواجها لمدينة سلا ، اقدم مدن المغرب والتى شيدت فى العهد البونى ، وكانت سلا تقوم بصد هجمات الصليبيين ، ثم انشأ رباط على الضفة

المواجهة للنهر الصغير ، وفى هذا الرباط استقر مجموعة من المؤمنين الصادقين الذين نذروا على أنفسهم الجهاد ، وفى سنة ٥٤٥ هـ (١١٥٠م) اختار عبدالمؤمن رأس بيت عبد المؤمن الموحدى هذا الرباط (الحصن) ليكون منطلقاً للجهاد فى الأندلس ، أقيم معسكر دائم زوده عبد المؤمن بالمياه العذبة عن طريق قناة تستمد مياهها من نبع مجاور ، واستمر المعكسر فى النمو أيام أبى يعقوب يوسف ، خليفة عبدالمؤمن ، غير أن أبا يوسف يعقوب المنصور الذى خلف أبا يعقوب في رياسة هذا البيت هو الذى أمر فى بداية حكمه باتمام هذا المعسكر ، وأطلق عليه اسم «رباط الفتح» تخليداً للنصر الذى حققه الموحدون على الفونس الثامن ملك قشتالة عام ١١٩٥ م ، وكان يحيط بالمعسكر سور من اللبن تتخلله أبراج مربعة الشكل ، ولا يزال الجزء الأكبر من هذا السور باقياً ، ويبلغ طوله حوالى أربعة أميال .

وهناك بابان أثريان يرجع تاريخهما إلى ذلك العهد أحدهما يعرف بباب الرواح ، أما الآخر فيوصل إلى القصبة ، قصبة «الوداية» ، وقد أمر يعقوب المنصور أيضاً بتشييد مسجد عظيم داخل رباط الفتح لم يقدر له أن يتم ، ويبلغ طوله ٦١٠ أقدام ، وعرضه ٤٧٠ قدماً ، ولا يفوقه من مساجد العالم الإسلامي إلا مسجد سامراء بالعراق ، كان لهذا المسجد ستة عشر باباً ، وكان به صحن للصلاة يدعمه أكثر من مائتى عمود ، علاوة على ما فى المسجد من ثلاثة أروقة أخرى ، ولا تزال مئذنة هذا المسجد قائمة مكانها كما هي لم تتم ، وتعرف باسم صومعة حسان ، وقد بنيت كلها من حجر متناسق ، وترتفع لمسافة ١٦٠ قدما ، ويوصل إلى شرفتها العليا ممر منحدر هيناً يبلغ عرضه ياردتين ، وتوجد في المغرب مئذنة الكتبية بمراكش، وتوجد مئذنة أخرى بالأندلس هى مئذنة الجيرالدة ، والمآذن الثلاث تنتمى إلى عصر الموحدين ، وتبقى صومعة حسان الناقصة كلغز غامض وصل الينا من أعماق التاريخ ، تجمد على مشارف المحيط .

الاستمتاع بالوحدة

ثم انتقلت الرباط إلى حكم المرينيين وخلال هذه الفترة وقعت حادثة أكسبت الرباط قدراً كبيراً من الأهمية ، إذ أن فيليب الثالث طرد من الأندلس آخر العرب الذين بقوا بها ، عام ١٦١٠ م ، رحل هؤلاء إلى الرباط ، وتكونت جالية من اللاجئين الأندلسيين ، وسرعان ما سيطر هؤلاء الأندلسيون المهاجرون على الرباط وسلا واحترفوا القرصنة ، وتكونت نواة جمهورية بحرية صغيرة ، ولم تعترف بسلطان الشريف الذى يحكم سائر المغرب إلا بصعوبة ، واحتفظ الاندلسيون بعاداتهم ولهجاتهم ، وتقول دائرة المعارف الاسلامية أن سلالتهم لا تزال تكون الجزء الأكبر من اهالي الرباط ، واستمرت هذه الجمهورية الصغيرة تتمتع باستقلال يكتمل أحياناً وينتقص أحياناً اخرى ، إلى أن تولى العرش السلطان سيدى محمد بن عبد الله العلوى عام ١١٧١ هـ (١٧٥٧م)، فقد حاول أن يسيطر على النشاط البحرى لهذه الجمهورية الصغيرة ، ولكن قام أسطول فرنسى بضرب المدينة عام ١٧٦٥م ، وعندئذ بادر خلفاؤه إلى الامتناع عن رفع راية الجهاد فى البحر ، وسرعان ما خيمت مرحلة طويلة من الإضمحلال شملت الرباط ، وسلا أيضاً ، حتى احتلهما الفرنسيون عام ١٩١١ ، وبعد قيام الحماية أصبحت مقرا للسلطان ، والادارات المختلفة.

وتوصف الرباط الآن بأنها مدينة ادارية ، وانعكس ذلك على ايقاع الحياة بها ، انها مدينة هادئة ، يبدو النهار فيها خالياً من المفاجأة ، تسير الحركة فيها وفقاً لايقاع رتيب ، تبعاً لحركة الموظفين الذين يذهبون إلى أعمالهم فى الثامنة والنصف ، ثم يخرجون فى الثانية عشر ليعودوا في الثالثة إلى دواوينهم ، ويعودون إلى بيوتهم في السادسة ، ومع الغروب تتزايد الحركة خاصة في شارع محمد الخامس ، وفى أزقة المدينة القديمة ، ثم لا تحل الثامنة إلا وتخف فجأة ، وكثيراً ما مرت بى لحظات موحشة مع بداية الليل عندما تقفر الطرقات،

وتغلق المتـاجـر ، كأن المدينـة تـوقـع فى دفتر انصراف خفى ثم تمضـى تمامـاً كالموظفين ، كنت ألوذ بـوحدة معقمة داخل حجرة الفنـدق ، أطل من حين لآخر على مسـجد السنية بسقوفه الخضراء وجدرانه البيضـاء ، يقف هنا منذ منتصف القـرن الثـامن عشر ، كنت أغـوص داخـل نفسى . وأصل إلى حـد الاستمتـاع بالوحدة ، هـذا الإحساس الغريب الذى عرفته فى أيـام بعيدة ، لم يكن ينتزعنى من هذه الوحدة إلا رنين التليفون ، الصـديق الدكتور محمد براده رئيس اتحاد الكتاب ، أو أحـد الأصدقـاء الكتاب ، أو الصـديقين المصريين مصطفى نجيب ، المستشار الثقافى بالمغرب ، وسمير شحاته مراسل وكالة أنباء الشرق الأوسط ، وكان السهـر يمتد داخل احد المنازل ، لا مقـاهى هنا تسهر بعد الثـامنة ، حتى المقهى القديـم الذى احببته ، والـذى يطل على المحيط فى النقطة التى يبتلـع فيها نهر أبي الرقراق يغلق ابوابـه مع بداية الليل ، يبدو ليل الربـاط بارداً ، طويلاً ، خلوا من الحيوية ، لكن النقيض تماماً ما وجدته فى مراكش .

قلب مراكش

كل المرئيات تبدو وكأن لها بعداً آخر خفيـاً يتجاوز وجودها المادى ، هذا ما تشعـر به منـذ اللحظـات الأولى لدخـول مـدينة مـراكش القـائمـة على حافـة الصحراء، اللـون الأحمر أول ما يلفت النظر ، لون أحمر طـوبى يكسب المبانى كلها بعداً متقارباً ، موحـداً ، سواء المبانى الحديثة المرتفعة . أو الفنادق الكبيرة التى لا تتناقض عمارتها مع الأسلوب السائد فى المنطقة ، تتناثر أشجار النخيل التى تنمـو غزارة في هـذا المناخ الصحراوى ، ويحد افـق المدينة سلسلـة جبال اطلس ، وتستدير الشمس في السماء لتتوهـج أشقبها المنعكسة على ثلوج القمم البعيدة ، بينما يبـدو الفضـاء منبسطـاً ، رحباً ، ممتـدا ، ومثل كل مـدن المغرب تنقسم مراكش الى مدينتين المدينة الحديثة ، وقد شيدت بعد اعلان الحماية على المغرب عام ١٩١٢ ، والمدينة القديمة ، الأصلية ، ويحيطها سور قديم يصل إلى تسعـة عشر كيلومترا وارتفـاعـه حوالى ثمانيـة امتـار، وهو متهـدم فى معظم

أجزائه، يفصل بين المدينتين ساحة الفناء أو ساحة جامع الفناء ، لا يوجد مسجد يحمل هذا الاسم الغريب ، ويقول بعض اهالي مراكش إن عمليات الاعدام بالسيف كانت تتم فى هذا المكان ومن هنا جاءت التسمية ، وفي هذه الساحة قضيت اوقاتاً طويلة أتأمل ما يجرى فيها ، والأحداث التى تشهدها ، وما يجرى فى ساحة الفناء يتم كل يوم ، مع مطلع النهار ودبيب النشاط اليومى تعلو دقات طبل ، أو لحن موسيقى بدائى ، أو صيحات مرتفعة ، وسرعان ما تتشكل حلقات الناس .

هذا رجل اسمر اللون . له ملامح زنجية ، يرتدى حلة أنيقة ، ونظارة طبية ، يتحرك فى وسط حلقة من المشاهدين ، وضع فى منتصفها كرسياً فوقه حقيبة بنية اللون ، مفتوحة ، بها علب صغيرة ، وأعشاب ، إنه يتحدث فى انفعال حاد مستمر ، وذلك حتى يحتفظ باهتمام سامعيه ، ويضم متفرجين جددا ، وليس ارتفاع الصوت وسيلته الوحيدة ، إنما حركات ذراعه وإشاراته المفاجئة ، ثم استدارته تجاه بعض الواقفين ، وتوجيه الحديث إلى شخص معين بذاته لثوان ، لا يلبث أن يفارقه إلى غيره فقد توصل إلى تركيبة ، عجيبة ، غريبة ، تزيل الآلام فى دقائق ، ثم يشير إلى العلب الصغيرة التى تحويها الحقيبة ، ويتناول واحدة ، ويفتحها ، ويطلب من الواقفين الصلاة على النبى ، قبل أن يشرح طريقة العلاج.

فى حلقة مجاورة كان هناك رجل ضخم الحجم يرتدى عباءة زرقاء ، انه صحراوى ، فوق سجادة يضع مجموعة من الأوانى ، يتخللها جلد ثعبان ضخم بنى اللون ، كان يتحدث عن عادات أهل الصحراء ، كيف يأكلون اللحم ؟ وكيف يتسامرون ، وكيف يتذكرون أيام الكفاح بقيادة محمد الخامس .. رحمه الله .

في حلقة مجاورة ، أب وأم وطفلة نحيلة ، الأب يمسك طبلة ، والأم تمسك دفاً ، والطفلة ترقص ، ترقص دقائق ثم تعود لتستريح ، وتكف الموسيقى الفقيرة حتى تستريح .

فى حلقة أخرى امرأة عجوز ، كانت تقول كلاماً غير مفهوم ، وتلوح بذراعيها ، ويديها ، وفهمت اخيراً أنها تعد احجبة تقى من الحسد .

رجل آخر كان يتوسط اعمدة خشبية غريبة ، مثبت إليها أجراس ، وحمام مشدود بسلاسل نحيلة ، لاعب حمام ..

وتجمع آخر يلتف حول رجل يعرض الثعابين ، ثلاثة ثعابين ضخمة من نوع الكوبرا ، غير أن أغرب ما رأيته ، حمار مدرب على الرقص ، وتدخين السيجارة .. مجهود هائل يبذله كل من يعرض فنه فى ساحة الفناء من أجل الرزق .. أليس هذا ما نفعله يومياً فى حياتنا ، أليست ساحة الفناء نموذج مصغر للعالم وما يحفل به .

تقع ساحة الفناء فى قلب مدينة مراكش ، وفى جانب منها توجد محطة سيارات النقل العمومى ، تحمل الوافدين والراحلين من والى كل مناطق المغرب، خاصة الريف ، والصحراء ، وعندما يصلون إلى الساحة يجدون كل ما يرغبون فى شرائه ، وفى هذه التجمعات مهرجاناً يمتعهم ويسليهم ، وكثيرون لا يمضون إلى الفنادق ، إنما يمضون الليل فى الساحة فوق كرسى، أو فوق قارعة الطريق .

نتجاوز ساحة الفناء الى دروب وأسواق المدينة القديمة ذات اللون الأحمر الطوبى ، والهواء الجاف الذى يذكرنا بدروب قرى الصعيد الأعلى في مصر .

الصعود والهبوط

فى قبر بسيط ، متواضع ، بدون سقف يقولون أن هذه كانت رغبة صاحبه ، حتى لا يفصله شيء عن السماء ، يرقد يوسف بن تاشفين ، اعظم ملوك المغرب فى التاريخ القديم ، ومؤسس مراكش ، لقد اشترى موضع المدينة ، وكان ملكاً لرجل عجوز من المصامدة ، وجاء إلى الموضع بخيام الشعر . وبنى مسجداً لصلاه وقبة صغيرة لاختزان ماله وسلاحه ، ولم يكن يوجد ماء ، حفرت آبار فظهر الماء قريباً ، عندئذ توافد الناس ، استوطنوا وبنوا بها . هكذا انشأ

المرابطون مراكش ، واتخذوها عاصمة لهم ، وعندما جاء الموحدون بالجامعة احتفظوا بها كعاصمة لهم ، وأنشأ على ابن يوسف مدرسة كبيرة ، تعرف الآن بالجامعة اليوسفية ، وهى جامعة مغربية خالصة ، لها طابعها الخاص ، المستقل عن القيروان والأندلس ، أسست عام ٥١٤ هـ (١١١٦ م)، وازدهرت مراكش فى عصر المنصور يعقوب بن يوسف ، وفى أيامه جاء الى مراكش ابن طفيل وابن رشد ، وبنى عبد المؤمن جامع الكتبية الذى لازالت مئذنته الضخمة، الفريدة ، تنتصب شاهقة ، ويبلغ ارتفاعها مئة وعشرة أذرع ، وكان فى هذا المسجد مقصورة عجيبة ركبت بحيل هندسية بحيث تنتصب اذا استقر المنصور ووزراءه ، وتختفى اذا انفصلوا عنها ، وقد عمل الموحدون على تأكيد الشخصية العلمية لمراكش ، فأنشأوا فيها بيت الطلبة ، وكان يضم ثلاثة آلاف طالب ، وبنوا مستشفى ضخماً كان الطب يدرس فيه ، وعندما اتخذ بنو مرين فاس عاصمة لهم ، غربت الشمس قليلاً عن مراكش ، يقول ابن الخطيب متأملاً فى ذلك ..

بلد قد غزاه صرف الليالى
وأباح المصون منه مبيح
فالذى خر من بناه قتيل
والذى خر منه بعض جريح
وكأن الذى يزور طبيب
قد تأتى له بها التشريح
اعجمت منه أربع ورسوم
كان قدما بها اللسان الفصيح
كم معان غابت بتلك المعانى
وجمال أخفاه ذاك الضريح
وملوك تعبدوا الدهر لما

أصبح الـــدهـــر وهـــو عبـــد صريح

دوخـــوا نـــازح البسيطـــة حتى

قـــال مـــا شـــاء ذابـل وصفيح

حيـث شبـت لهم مـن البـأس نـــــار

ثـــم هبـــت لهم مـــن النصر ريـــح

اثـــر ينـــدب المؤثـــر لما طـــال

بعـــد الـــدنـــو منـــه النـــزوح

ســـاكـن الـــدار روحهـــا كيـف يبقى

جســـد بعـــد مـــا تـــولى روح

لكن الاهتمام بمـراكش عاد مـرة اخرى مع دولـة السعيديين ، والآن تعتبر مراكش من أهم مـدن المغرب ، وأكثرها تفرداً ، فيهـا يلتقى العنصر الافريقي ، بالعنصر العربى ، والعنصر البربري . همزة الوصل بين الشمال والجنوب ، بين الريـف والصحراء ، يحرسها سبعـة أولياء لهم تـرتيب ، وزيارتهم تتـم وفقاً لمراتبهم ، أولهم يـوسف بن علي وقبره خارج بـاب اغمات بالسور القـديم ، ثم القاضي أبـو عباس السبتـى ، ثم الإمام عبـد العزيز الـدباغ، والإمـام أحمد بن سليمان الجازولى ، صاحب دلائل الخيرات ، والإمام السهيلي فيلسوف النحاة ، والشـــيخ محـمد الغـزوانى ، وكلهم مـدفـونون بســور المدينـة ، عدا الإمـام السهيلي .

فلسفة الأناشيد

فى مراكش حيويـة دافقة تشعر بها طوال اقـامتك . وتنوع خصب ، تلمح فى الطريق ، الاهالى بزيهم المغربى التقليدي ، ولا تخطئ العين خريجى جامعة ابن يـوسف وزيهم المغربي التقليـدي وغطاء الـرأس المبطن بقماش ابيض خفيف، يقـول مولاى الطيب المرينى أحـد أدبـاء مراكش ، الـذى درس وتخرج وعمل

بجامعة ابن يوسف ، أن أهالى مراكش يتميزون بروح ساخرة ، والنكتة المراكشية ، يقول الشاعر المراكشى محمود ابراهيم :

نكاتا يرسل النكتة اللطيفة سهما
والمصابون فى الحضور قليل

ويخرج أهالى مراكش فى حلقات إلى الصحراء القريبة ، يلعبون «الدقة» ، وهي لعبة تستمر طوال الليل ، وتتخللها اناشيد موسيقية ، تعزف خلالها الآلات المغربية التقليدية «التعريجة» وهي عبارة عن دف مستطيل ، و«القراقش» وهي النواقيس الصغيرة ، والصاجات و«النبير» أى الطبلة ، و«النفار» أى البوق ، وتدور الأناشيد حول موضوعات دينية ، وغرامية ، وتأملات لها طابع فلسفي ...

* * *

يحل الليل ، ولا تهدأ الحركة ، لا تخفت الحيوية فى تلك المدينة التى لا يشعر فيها الانسان بالوحدة ، المليئة بالزحام ، فى ركن من ساحة الفناء ، كانت هناك فتاة أوروبية ، حافية القدمين ، تبكى وتصرخ ، لقد فقدت أوراقها وحاجياتها وزملاءها ، وتجمع حولها بعض المواسين ، وأغلبية من المتفرجين ، فى ساحة الفناء تغنى الجهود من أجل الرزق، ومن الممكن أن يضيع الإنسان ، ليس فى المكان ، إنما فى الزمان الخاص أيضاً ، والذى يكسب مراكش طابعاً غامضاً ، بحيث تظل عالماً قائماً بذاته ، قريب جدا ، لكنه أيضاً .. شديد النأى ..

١٩٧٩

الحرف التقليدية الإسلامية
فى العمـــارة المغـــربية

١٩٨٣

«.. تنقضى أربعة أعوام على رحلتى إلى المغـرب ، ولا يزال الحنين يتصاعد إلى هذا البلد العـربى ، والذى صـان الأصالة العـربية ، والجمال العربى ، والفن المعمارى العربى ، لا يزال انبهارى طازجاً ، وكأنه وليد الأمس ، كأن السنين لم تنقض ، والأيام لم تمر ، أحـد عناصر انبهارى هذا بعـد الشعب والطبيعة ، فن العمارة المغربى ، المدن المغـربية القديمة ، المنمنمات ، والـزخارف ، التى تتسم بعظـمة الإنســان ، وصبره ، وسموه ، فالفـن الإســلامى يســتند إلى إلهـــام دينى بالـدرجة الأولى ، وقد لخص الأستــاذ الفرنسى جاك بيرك رؤيتــه فى هذا الصدد .

«يمكن تعريف الفن الإسلامى بأنه فن غير تصويـرى طبقاً للأمر الإلــهى، ونظراً لأن الله هـو المصور الأعظم ، فإن كل تصوير تشبيهـى وخصوصا كل نحت يعتبر كفر لأنه غير جائز ، إذ فيه منافسة غير مشروعة للخالق ، كل شىء فى الزخـرفة العـربية هـو تركيب وتـلاق : إذ يجتمع قصد الفنــان مع الإدراك الحسى والمادة فى تكامل وثيق» .

الفن الإسلامى يتضمن إحساســاً راقياً بالوحدة الجماليـة ، إنه فن يرتقى بالإنسان إلى عالم الشفافية ، نجد فى العمارة الدينية ، أو المدنية ، وحتى زخرفة أبسط الأدوات ، شهادة إنسانية على وحـدانية الله ودوامة ، ان فكرة الجمال ـ كما يقول المفكر الإسلامى المغربى على اللواتى ـ ترتبط عند المسلمين بالتسبيح

وهو الثناء على الله ، أو ببساطة ذكره تعالى . فأغاريد الطيور تسبيح ، والزهرة اليانعة تسبيح ، أما الجمال الإنسانى فهو قمة التناسق وما الفن الإسلامى الزخرفى ألا تسبيح عميق تتعدد مظاهره وتملأ الكون ، وتأتى المرحلة الأندلسية المغربية لتشهد معها ولادة قمة فن التسبيح التى لا قمة فوقها ، قصر الحمراء الذى تجلت فيه غاية النضرة والروعة حيث تتجزأ المادة إلى أقصى ما يكون التجزؤ ، وتبدو فى شكل تخاريم وشبائك دقيقة حتى لكأنها تفقد قوامها ووزنها فتبدو كهاجس فى الخاطر .

واذا كانت منمنمات وزخارف الحمراء تمت إلى الماضى ، فإن هذا الفن الرائع لا يزال حياً فى المغرب العربى ، لا يزال جزءاً من حياة الشعب اليومية ، وخلال السنوات الأخيرة شهد هذا الفن دفقاً جديداً من الاستمرارية كان المغرب هو البلد العربى الوحيد الذى لم يسيطر عليه العثمانيون الذين هيمنوا على البلدان الاسلامية الأخرى ، وتلك نقطة هامة في تأكيد الذاتية الصادقة للفن المغربى ، هذا الفن هو محور هذا الكتاب الضخم الذى صدر أخيراً فى فرنسا بثلاث لغات ، الفرنسية ، والانجليزية ، والعربية ، المؤلف مهندس فرنسى ، أندريه باكار ، مهندس زخرفة منذ عام ١٩٥٤ ، ومنذ عام ١٩٧٠ ، كرس كل جهوده للعمل فى المغرب فى مجال العمارة ، سواء ترميم القصور والمبانى القديمة ، أو انشاء العمارات الحديثة ، الدينية والمدنية، والتى تستند إلى التراث المعماري المغرى ، وتنهل منه ، استهدف المؤلف غرضين أساسيين :

* تقديم وثائق مصورة لم يسبق نشرها لكشف بعض الجوانب التى لم تعرف بعد عن الفن المغربى التقليدى ، وقد أتيحت له فرصة نادرة ، عندما أمر جلالة الملك الحسن الثانى بفتح أبواب القصور الملكية لعدسة المصور لأول مرة فى التاريخ .

* الهدف الثانى ، نقل شهادة المعلمين المغاربة ، أساتذة الحرف التقليدية فى العمارة .

باختصار يكشف هذا الكتاب الذى يقع فى مجلدين ضخمين أسرار فن العمارة المغربى ، ويقدم ما يشبه قاموساً فنيا مصوراً لمفرداته ، ومن قبل ذلك البشر الذين يبدعون هذا الفن العظيم .

المسجد هو القلب

فى العمارة المغربية أربعة مفاهيم أساسية ، أماكن الصلاة ، والمساكن ، والتخطيطات الناظمة ، والخط العربى ، يقول المثل المغربى ، «الدار أول ما يجب أن نملك ، وهى آخر ما يجب أن نبيع ، إذ هى قبرنا فى الحياة الدنيا» ، وفى عام ١٩١٤ ، قال محمد ابن الرامى البناء الفاسى ، ان قواعد حسن الجوار تنطلق من عاملين أساسيين ، أولا : لا تمنع جارك من تثبيت خشبة سقفه فى جدار دارك الخارجى ، ثانيا : لا تبين دارك بحيث تكشف فناء جارك» .

وكل من زار المغرب بلا شك يذكر الدور المغربية ، حيث تطل على الشارع بجدران وأسوار أشبه بالحصون ، وينفذ الإنسان من المدخل فاذا به يفاجأ بالحديقة الفسيحة ، والفناء الواسع ، فكأنه اليسر بعد العسر ، اليسر فى مأوى الإنسان ، بيته ، تتركب الدار المغربية من وسط الدار ، فناء مربع الشكل ، مبلط بقطع الزليج (السيراميك) ، يتوسطه عادة حوض ماء من الرخام وتحلية شجرة برتقال أو ليمون ، وتقام الحجرات على ثلاثة أو أربعة أوجه من الفناء فى طابقين أو ثلاثة أحياناً ، وتحمل الأعمدة سقف هذه البيوت ، وسواء كان البيت المغربى عظيماً أو متواضعاً فإنه يقام حول فناء فسيح يسمى وسط الدار، ولا بد أن تبدو عليه المسحة الجمالية ، وعند مدخل الدار يقع مدرج يؤدى إلى قاعة فسيحة تقام فيها المآدب والاستقبالات ويوضح لنا هذا التنظيم حرص المغربى على أن يفصل بحياء بين حياته العائلية والحياة الاجتماعية ، وقد تحددت معالم المسكن المغربى على هذا النحو فى القرن الرابع عشر الميلادى أثناء حكم المرينيين .

والمسكن المغربى هـو الوحدة الأسـاسية التى تتشكل منها المدن المغـربية ، غير أن المسـجد هــو القلب والمركز ، سواء المسجـد الجامع الرئيسي أو مسـاجد الأحياء المختلفة ، وإلى جانب ذلك الحمامات العامة ، ويقضى تقليد أندلسى بأن يكـون السوق قـريباً من المسجـد الجامع ، والسوق تتكـون من مجموعـة من الأزقـة المظلة ، يحف بكل زقـاق من الجانبين حـوانيت أو مشاغل الطـوائف . الطظـارين والحدادين والنساجين والنجـارين والنحاسـين ، وتغلق الأسـواق أثناء الليل ، وتفرض الحراسة على بعض الأقسام خاصة سوق الذهب ، وتقام الفنادق عادة عند مداخل المدن ، وفى الـريف تنتشر الرياض ، وهى حدائق على الطراز الأندلسى تحيط بأحواض زهورها وأشجـارها مسالك مبلطة بالرخام أو الزليج الملون ، وتوجـد الروضة أحياناً فى قلب قلعة حـربية لتخفف من حدة تركيبها الهندسى الجاف ، وجدران الحديقة هي بمثابة سور قلعة العائلة التى تطل على الـداخل ولا تشرف على الخارج إلا من خـلال باب صغير ونـدرة من الشبابيك الضيقة تفتح فى الجدران العالية ، كما أن الرياض تمثل بصفة رمزية سمة مشتركة فى جوانب متعددة للحياة الاسـلامية ، وقد انعكس هذا على الفنون الـزخرفيـة ، فنجد أن الأبسطـة تستلهم أشكالها من غـزارة الخضرة ، وتمثل مجموعة الزخارف المستلهمة أصـلاً من المصدر ذاته وهو الطبيعة التى تشكل فى الجص ، ولوحات الزوراق ، خاصـة التشجير والتوريق ، مصدر الهام أيضاً لفن زخرفة الأوانى الفخارية ، وبلاطات الخزف ، والأنسجة والمخطوطات .

يقول الاخوان تارو :

«إن كل من تفتح أمامه أبواب هذه المساكن يشعر انه يترك وراءه سعادته أو شقاءه ليدخل فى هـذه الدائرة التى تفقد فيها هـذه الأحاسيس دلالتها على ذلك الواقع المؤثر والغامض فى الوقت نفسه» .

ويخصص أنـدريـه باكـار قسما للقصـور الملكيـة المغربيـة ، وكما تحوط المسكن عادة روضة تتوسطه ، تتجه أبنية القصر إلى الداخل ، وتحيط الأجنحة

الملكية بالقصر ، ولكل قصر مسجده الخاص الذى يكون عادة أقدم ما فى القصر، وكقاعدة يشتمل القصر على أبنية أخرى تضم الخدمات اللازمة لتسيير أمور الدولة ، وكما هو الحال فى المساكن فان القصر ينغلق على نفسه ، غير أنه لابد باعتباره صورة للدولة أن يكون ذا مظهر خارجى يعكس احترام الأمة واستمراريتها ، فاذا كانت التقاليد تقضى بأن تحتفظ الأسوار بتقشفها ، فان بوابات القصور الملكية البديعة الصنع والمزوقة باتقان تشهد على ما يجب أن يكون عليه الترحيب بزائر كبير ، وتغطى سقوف القصر عادة بقراميد خضراء ، وهو كساء لايقتصر على القصور الملكية ، انما تختص به مختلف الأبنية الملكية مثل المساجد والمدارس ، ومن أقدم القصور الملكية فى المغرب ، قصر الباهية ، الذى يعود إلى القرن التاسع عشر ، شيده أبو أحمد وزير مولاى الحسن الأول ، فى «الباهية» وضع البناءون أنشودة تتغنى بأهم الفنون ، ألا وهو فن الحياة ، فشيدوا قصرا بالغ الدقة ، ولم يتركوا شكلا من أشكال البلاغة المعمارية إلا استخدموه فى تأليف تلك الأغنية التى تشدو بالسعادة الأرضية الكاملة ، و«الباهية» تيه من المعابر التى تقود إلى بيوت (قاعات) ذات سقوف أبدع نقشها وكسيت جدرانها بلوحات الزليج الساطعة ، وزينت الأبواب بباقات التشجير والتوريق المتعددة الألوان ، أما أحدث قصر فى المغرب فهو قصر أغادير، وفيه تم الحفاظ على تقاليد العمارة المغربية ، وتقرر العودة إلى تقليد قديم كاد يتلاشى وهو يقضى باستشارة المعلمين من مختلف المجالات حتى يلتزم الجميع بالعمل فينتج شكلاً من أشكال الابداع الجماعى .

الزخرفة المغربية

الدار المغربية منغلقة ، فهى من الخارج ليست دافئة المظهر وذات سطوح عارية ، وجدران صماء لا يتخللها إلا باب واحد ، غير انك إذ تجتاز هذا الباب تدهشك فتنة خلابة ، فتكتشف عالماً ساكناً متعدد الألوان ، ان ارتفاع المبانى وعدم الاهتمام كثيراً بالأثاث ينسى أى فكرة للمسافة ، فيتيه الفكر فى استرخاء

بين ترددات الأشكال والألـوان ، تحيط الزخارف سكان الـدار فكانها صندوق الأحلام ، ولا يوجد فى التقاليد المعماريـة المغربية ذلك المفهوم السائد فى الغرب فى الوقت الحاضر عن العمـارة باعتـبارها فنـاً مستقلاً لتركيب وربط الأحجام في الفضــاء ، فالمعلمـون المغاربـة يزدرون الأسمنت المسلح ويعتبرونـه مجرد دعامة لمسطحات يكسونها من الـداخل بالزليج أو الجص المنقوش ، أو الخشب المقرنص ، فـالمعمار المغربى هـو الزخرفـة ، ومهما كانت المادة المستخـدمة فى تشكيل الزخـرفة فإنها تلتصق بـالجدران والأعمدة والسقـوف كبشرة تكسو المسطحـات الداخليـة ، يقول أنـدريه بـاكار ان احترام التصميم هـو القاعـدة الذهبيـة، وكل شىء ينفذ على أساس بعدين اثنين ، عـلاقات المساحات الملـونة والاتصال فيما بين الألوان ، ويعالج الجص المنقـوش حتى اذا كان النقش بالغ العمق بحيث يؤخذ كل مستوى على حدة ، فـالأشكال الجصية لا تمثل احجاماً وإنما على العكس ينظـر إليهـا على أنها علامـة بين الأبيض والأسـود تنشأ من الظـلال المـدودة التى تـدور مع الضـــوء . ان فن المعلمين المغـاربـة فن حى وحساس تصنعـه الأيدى الماهرة ، وسمـو فن هؤلاء المعلمين تصنعـه الجهود والأبحاث اليدوية ، أن الـرسام يملأ الفراغات بانتظـام فيستخدم عند الحاجة عناصر متكررة كخلايا النحل ، ويحدد المؤلف أشكال الزخارف المغربية بأربعة أشكال رئيسية :

* زخرفة متعددة الأضلاع تقوم على خطوط مستقيمة .
* زخرفة زهرية تقوم على خطوط منحنية ، التوريق ، والتشجير .
* عناصر الملأ .
* الخط العربى .

ويـورد المؤلف الأشكـال المستخـدمـة في تفصيل بـديع ، المربع ، والمثلث ، والـدائرة ، واللولب ، والشكل المخمس ، والشكل المثمن النجمى ، والشبكـات ، والعقـد ، والضفائر ، ولا يكتفى بإيـراد الشكل إنما يبين أصله التـاريخي ، ثم

موضعه فى الزخرفة الكلية عندما يصبح متحدا مع بقية العناصر ، ويتتبع نشأة الشكل فى تطوراته التاريخية المختلفة ، وهنا يعد الكتاب بحق قاموساً فنياً فريداً من نوعه لعناصر الزخرفة المغربية ، ويتتبع طرق التنفيذ المختلفة بدءاً من تخطيط الزخرفة تخطيطاً أولياً على الورق ، وحتى إكتمالها فى العمل المعمارى نفسه .

الخط العربي

هناك أربعة أنواع للخطوط بصفة عامة فى كتابة المغرب العربى ، القيروانى ، والأندلسى ، والقسنطينى ، والمغربى أو الفاسى ، فى المغرب تسود الكتابة الأندلسية المغربية بتلافيفها الرشيقة وخطوطها الممتلئة والمشوقة المتنوعة بلا نهاية أما الكتابة الفاسية فإنها تتميز بالسمك الواضح لخطوطها الرأسية ، وبعدم وجود النقط على الحروف ، وقد جرت العادة على أن يتضمن الزخرف أية قرآنية ، أو حديث شريف ، أو مجرد أبيات شعرية ، ومن أكثر الكتابات شيوعاً البسملة وهى فاتحة الكتاب المنزل ، وقد كتبت هذه العبارة بمجموعة فائقة من الخطوط ، وينبغى للافريز الذى ينفذه الفنان المغربى المسلم أن ينقل القارئ للتطلع إلى طريق الوحى ، ولابد أن يمر كل شىء بالآيات الكريمة ويرجع إليها ، كما هو الحال فى الكتابات الجارية ، التى يمثل فيها كل انحناء عودة ، وتغطى هذه الكتابات فى المغرب ، أكثر من أى مكان آخر سواء أكانت شعراً أو نثراً الحوافى الضيقة وتلف القاعات بالكامل ، وهى أما تكون من ملاط الجص أو الخشب أو المرمر . والحروف فى الخط الكوفى القديم زاوية وترسم بتأن على شبكة من الخطوط الأفقية والعمودية وتقع صوارى الحروف على المستوى الرأسى وتزداد عرضاً فى إتجاه القمة وتنتهى بحد مشدوف مقعر ، وتبدو الكتابة دائما كعنصر تكوينى فى الإطار الزخرفى العام وتكون إما فى لوحات متجمعة أو فى شرائط متصلة أفقية أو رأسية ، وقد أوحى الخط للفنانين بأشكال رائعة تندمج تماماً فى الزخارف المحيطة بها اما بالتشابه أو بالتباين ،

وقد كان تزيين الكتـابة بزخارف زهرية مثالاً لـلابتكار والتوازن على الدوام ، كما يشيع استخدام الرسـم الكـوفى وهو رسـم مشتق من الكتابة الكـوفية لكنه فقد وظيفته الكتابية ليتحول إلى عنـاصر زخرفية محضة ، والرسم الكوفى غنى بـذخيرة لا مثيل لها من الـزخارف التـى يجمع المعلمون بينهـا وبين زخـارف التوريق والتشجير .

وإذ ينتهى المؤلف من الأجـزاء الخاصة بـدراسة عناصر المعمار المغـربى ، يعود إلى الأصول ، إلى المواد الطبيعية التى يتم تشكيل المعمار منها ، ويخصص فصولاً مستقلة لهذه المواد ، الطين ، والحجـر ، والجص ، والخشب ، والمعدن ، والماء ، ويشرح بـاسهـاب تقنيـات الأعمال التى تحول كل مـادة إلى عنصر من عناصر المعمار المغربى الجميل ، كذلك يخصص فصولاً مستقلة لشرح صناعة وأنـواع أجـزاء العمارة نفسهـا ، بـدءا من المداخل والأبـواب حتى السقـوف والمقرنصات ، وعبر المجلدين الضخمين تتناثر فصول يقدم فيها هؤلاء الفنانين المغاربة العظام الذين يقفون خلف هذا الإبداع الرائع ..

أكبر المعلمين سناً

المعلم عبد الكـريم ، يقول عنه المؤلـف انه من أكبر المعلمين المغاربـة سناً فى الوقت الحاضر ، لقـد سلك الدرب الذى سـار عليه والده . ولد فى نهايـة القرن الماضى ، ثم عمل لمدة أربعة وثلاثين سنـة بشكل متواصل كان ذروتها عمله فى ضريح الملك محمـد الخامس الـذى يعد تحفـة فنيـة عالميـة بحق ، يقـول المعلم عبدالكريم إنه يختار عماله بعناية ومن يقع عليه الاختيار يرافقه مرافقة تامة ، ويساعده فى جميع أعماله ، حتى يتعلم الصنعـة بالممارسة ، ولا يصبح العامل معلماً بدوره إلا بعد وفاة أستاذه . يتحـدث عن الجيل الذى سبقه ، خاصة عن معلمه القندوسى الـذى عاش فى عهد مولاى عبدالعزيـز ومولاى محمد حسن الود غيرى ، لقد كان معلمو الماضى يعيشون حياة أفضل ، انه يكاد يحسدهم على مساكنهم الجميلة ، يتحدث عنهم بإحترام وإجلال ، خاصة الأموات منهم ،

يقول إن المغرب هو مصـدر جميع المواد الخام التى تستخدم فى العمل ، الرخام الأحمر والأسود يستخرج من ضواحى بنى أحمد ، أهم أعماله هى :

ـ فى سنة ١٩١٩ ، بنى دار المرينى وقصر التازى بالرباط .

ـ فى سنة ٩٢١ ، مسجد مولاى يوسف بدرب السلطان بالدار البيضاء.

ـ في سنة ١٩٢٢ ، بنى مسجد أهل فاس بالرباط .

ـ في سنة ١٩٢٣ بنى حى الحبوس بالدار البيضاء .

ـ في سنة ١٩٢٤ ، قصر أعبابو بفاس .

ـ فى سنة ١٩٧٠ ، بنى أهم أعماله ، وهو ضريح محمد الخامس .

ـ فى سنة ١٩٧٥ ، أشرف على تجديد قصر الرباط .

والمعلم عبد الكريـم يؤمن تماماً بأهمية العمل الفنى الـروحية ويدرك دور المعلم باعتبـاره دوراً حيوياً من أجـل إضفاء الروح على كل مسكن يبنيـه، لكنه يقـول إن السر يكمن ـ فى النهـايـة ـ فى السـاكن لا المسكن ويقـول أكبر معلمى المغرب ، والذى يرجع إليه الجميع ..

«انه يجب أن يغلب الاعتبار الجمالى على الاعتبار النفعى ..».

ويتضمن الكتـاب نماذج عديـدة للمعلمين المغاربة العبـاقرة ، البشر الـذين يقفون وراء هـذا الجمال كله ، وهذا التراث الفنى الأصيل ، الـذى جعل المغرب من أغنى دول العالم العربى والإسلامى بتراث الفن البـديع النابع من تقاليدنا الخاصـة ، وروحنـا ، ومن عناصر هـذا الفن صـاغ أنـدريـه باكـار المهنـدس الفرنسـى هذا العمل الضخم الـذى يعد المرجع الأول من نـوعه لفن هـذا البلد العريق .

* * *

ساحة الفنا ..

فبراير ١٩٨٩

.. عنصران .. لأحالى فى مدينة مراكش يكسبانها بعضاً من الخصوصية التى تدفع بها إلى تلك الحافة الرهيفة الفاصلة بين الحلم والواقع ، بين الظاهر والخفى ، بين المرئى وغير المنظور . أولهما ذلك الجبل الذى يؤطر الأفق المحيط، المترامى ، جبال الأطلس الصغير المطلة بصحاف فضية كونتها الثلوج التى لا تغيب معظم شهور السنة فى لحظة تلاقيها بالبصر تلغى الحضور الصحراوى للمدينة التى يثبت أركانها شجر النخيل ويمنحها ديمومة الأزل .

ثانيهما ، ساحة جامع الفنا ..

ساحة فسيحة ، تتوسط القلب منها ، تطل عليها مئذنة جامع الكتبية العتيقة، الشاهقة ، المغروسة فى تاريخ عميق ، تمتد أمام مداخل السوق القديم المغطى ، المضموم ، المنبسط ، المتشعبة طرقاته ودروبه كالأوردة فى الجسد .

نزلتها أول مرة عام ألف وتسعمائة وتسعة وسبعين ، جلت بها وتعلقت بمظاهرها ، إلا أن محدودية الوقت المتاح كانت حائلا ، وبعد عشر سنوات ، فى مارس الماضى ، جئت إلى المغرب لحضور حفل توزيع الجوائز الأدبية للكتاب ، ستة أيام مراكشية الحضور والإقامة ، خلالها سعيت إلى الساحة الغريبة ، الغامضة ، مرة فى جمع ، ومرات بمفردى ، فى أوقات مختلفة ، فى الصباح الباكر، فى الظهيرة الحادة ، فى العصر وما يحتويه من خُسرْ ، فى عمق الليل ، وفى كل مرة كنت أمعن فى الرحيل ، فى التأمل . فى المعايشة لما أرى، صرت مشدوداً

إليها، وعندما أقلعت عائداً إلى ديـارى كنت عامر النفس بصور شتى ، ومعانى عديـدة ، بعضها يمكننى الإفصاح عنـه ، وكثير منها يظل فى هـذه المنطقة التى يحُس ما فيها ولا يمكن للكلمات احتواء مضمونه.

* * *

لماذا ساحة جامع الفنا ؟

لا يوجد مسجد يطل عليها ، أو قريب منها اسمه «الفنا» ، فمن أين جاء لفظ جـامع الفنا ؟ لم يكن هنـاك فى زمنها القـديم جامع يحمل الاسم ، إذن فـاللفظ يعنى الجانب الآخر من المعنى ، الفنا بمعنى العدم ، التبدد ، التلاشى ، فى لسان العـرب لابن منظـور يرد لفـظ الفنا بمعنى نقيـض البقاء ، يقـال أفنى القـوم بعضهم قتلا ، تفانوا أى أفنى بعضهـم بعضاً فى الحرب ، ويقال يفنى فناءً ، أى هرم وأشرف على الموت هرمًا ، أما ابن الاعرابى فيقول ، دجل من افناء القبائل، أى لا يدرى من أى قبيلة هو ، يقال هو من افناء الناس إذا لم يعلم من هو ، إفناء الناس تعنى أيضاً تشعبهم وانتشارهم .

أجول ببصرى فى ســاحة الفنا ، كل من يقفـون بها غرباء ، عـابرون ، ومن يجىء اليوم ربما لا يظهر غدا ، وهذا الـواقف ينفخ مزماراً يحرك بنغماته اشد أنواع الثعابين فتكاً لن تلقاه غداً ، وإذا لقيته غـداً فلن يكون هناك بعد غد ، وهذا الرجل الذى يعلن قدرته على تفسير الأحلام ، وكشف غوامضـها لم أره إلا مرة واحدة ، وفى اليوم التـالى كان هناك غيره فى نفس الموضع ، ولكنه يفـرش أمامه مـلاءة من قماش عليها علب صغيرة بها دواء واحـد لكنـه قادر على شفـاء كل الأوجاع ، ذكـرنى بالرجل الـذى كان يقف فى ساحـات القاهرة القـديمة يعلن بحماس مبـالغ فيه ، وتأكيـد عظيم ، ان شربـة الحاج محمود تفنى كل أنـواع الدود، وتحمى القوى ، وتجرى الدم فى العروق .

من أين جاء هـؤلاء الرجال الستة ؟ لا أحد يـدرى ، ولم يسألهم انسان عن الجهـة التى اقلعوا منهـا ، أو مقصـدهم ، يمسكون آلات مـوسيقيـة غريبـة لا

اعرفها، يعزف خمســة منهم ، وينشد السادس مواويل حزينــة بلهجة غامضة واسأل ، يقولون لى أنهم من قبائل الجبال ، أى قبائل واى جبال ؟ وكم يربحون مقابل هــذا الجهد المضنى المبـذول فى ساحة الفنـا ؟ ، ألمح دريهمات معدودات فوق منديل مبسوط فوق الأرض ، وكأنه حضٌ خفى للآخرين كى يدفعوا.

يتجمع العابرون من أهل المدينة ، واهل المدن البعيـدة، والقادمون من ديار جد نائية مثلى ، حول غرباء مثلهم نزلوا الساحة ، ولكن يختلف الغرض ، الأُول جاءوا للفرجة ، لافناء الوقت ، والآخرون يقدمون ما اتقنوه ، من رقصات تبدو غريبة ، أو أغانى . أو مقـاطع تمثيلية قصيرة يشتبك خلالها اثنان حتى ليخيل اليك ان أحدهما سيفنى الآخـر ، ولكن الأمر تمثيل فى تمثيل لافنـاء المجهود من أجل كسب القوت الذى يجدده مرة أخرى ليفنى وليفنى .

أطيل النظر إلى رجل وحيد ، يتكلم بإنفعال شديد ، يشير إلى أعشاب مختلفة صفها أمامه ، بينها بيض نعام . وحرباء حية كلما أوشكت على الافلات أعادها ، يغمض عينيـه ثم يفتحهما ، يلـوح بأصبعه ، يضرب الأرض بـراحتـه ، وأحل ملامحه ، مـلامح أخرى لسياسيين يخطبون ، وشعـراء المديح ، وكلمات الثناء الزائفة يلقيها كتبة من عصور شتى . والوعود المبذولة .

أتجاوزه إلى موضـع آخـر ، يستوقفنى رجل يمسك قرداً مدربـة على ألعاب معينة ، ومثل هذا أعرفه ، أما الذى لم أره في مكان آخر فذلك الحمار الذى يدخن سيجارة ، احتطت لمجيئى فتزودت بدراهم معـدودة ، أحياناً يخرج أحد رجال الساحة من حلقة الـرقص أو الغناء ويلح ، ويدركنى خجل ، حتى اولئك الذين يعرضــون ما عنـدهم من كتب قديمــة فى صمت يليق بالسحـر والتنجيم وتلك الأشكال الغامضة من مثلثات وزوايا ، وأرقام بسطوها أمامهم .

هــا هو رجل يجلس وحيـداً والى جواره شـــاب يرتـدى الجلباب المغـربى ، الرجل أمامه كتب عتيقة ، وأوراق مخطوطة ، يهمس إلى الشاب ، يفك له كربة ، أو يساعده على الخروج من ضيقته .

انتقل من حلقة إلى أخـرى ، اعبر الساحة مرات ، لا اجتـاز موضعاً محدوداً بمكان ، إنما اسيح عبر ملخص مـركز ، واف لكل مـا تحمله وتضج بـه الحياة . بينما افكر وامعن فى تلك التسمية العبقرية ، ساحـة جامع الفنا ، قال لى صديق مراكشى قح انهم أطلقـوا عليها فى الزمن القديم ، ساحـة الربح ، لأن من يجيئ إليها يعمل ليربح ، لكن مع إمعـان الفكر والبصيرة ، اتضح أن هنـاك من يربح ومن يخسر ، وان من يربح اليوم يخسر غداً ، ومن يحل غداً قد لا يظهر بعد غد ، وأن الكل عابـر بها ، غير مقيم ، العارض والمتفـرج ، لهذا جاءت هـذه التسمية ساحة جامع الفنا .

حتى لو أجهد البعض عقولهم ، وقالـوا إن الفنا تعنى الساحة ، فالغوص فى معانى لغتنا الـرائعة يؤكد المعنى الأول ، يقول ابن منظور : الفنـاء ، سعة أمام الدار والجمع أفنية ويقول عن ابن جنى : هما أصلان ، وليس أحدهما بدلاً من صاحبـه ، لأن الفناء من فنى يفنى ، وذلك ان الدار هنـا تفنى ، لأنك إذا تناهيت إلى أقصى حدودها فنيت ، هكذا يقترن الفناء بالعدم ، بالتغير ، التبدل ، الزوال ، التجدد ، تماماً كما تشهد ساحة الفنا ذلك فى كل لحظة .

* * *

فى الليل تتكاثف الحركة ، الموسيقى هنـا ، الخطب هناك ، الأفاعى ، القرود ، السحـر ، تفسير الأحلام ، الـرقصات ، فى الجانب القـريب من مدخل السـوق القديم تنتصب عشرات الموائد ، مطاعم ليلية تستمر حتى الفجر فى الهواء الطلق، يقدم بعضها الحريرة المراكشية ، ويقدم الآخر السمك المقلى . أو اللحم ، رجال، نساء ، مراكشيـون ، أغراب منهم أجانب . يلتهمون الطعـام فى نهم ، على مقربة بـاعة عصير البرتقـال ، وبين هذا وذاك امـرأة شـابة تغطى وجهها بالنقـاب المغربى، تستوقف المارة لتبيع بعض الأساور أو السلاسل الفضية ،

فى الليل يبلغ بـذل المجهود أقصاه من أجـل الرزق ، تتأجج الحيـاة ، وبقدر تصاعد ديمومتها . بقدر ما يتسارع الفنا ..

* * *

من ساحة الفنا جئت بكتاب عن تاريخ المدينة ، مؤلفه ابن الشرقى حصرى أحمد ، أورد فيه وصف بعض الأجانب لساحة الفنا فى أزمنة مختلفة ، لم أجد فيه ما يفسر لى قانون الساحة ، ولا اسمها أيضاً ، ولكن الأوصاف التى حفل بها تؤكد لنا ان المعنى والمظهر لم يتغير كثيراً . يقول اوربيان زارا الساحة فى بداية القرن :

«ومن جملة وسائل الاسترزاق تحت نسيج القصب الذى من خلال فجواته ينبعث النور والظلال المحبوبة لدى عشاق التصوير ، تمر أفواج من البشر تنبض بالحيوية . مع انه يظهر على ملامحها الحرمان وبدائية مرنة وخشنة فى آن واحد فى ألفة مرحة .

الأسنان بيضاء ، والأجساد تحرك بدون عناء من لباس صوفى ملتف يغطى نصف الجسد . اناس أتوا من جميع الجهات القروية ، من الجبال ، من السهول، مع حميرهم ، وبغالهم ، وجمالهم ، برابر ، عرب ، سود ، شبه سود ، جميع أنواع الألوان البشرية ، من لون الخبز الناضج ـ إلى ما تطبعه الشمس المحرقة على البشرة . كل هذه الجموع المتحركة تتجه نحو مقاصدها ـ وكل يحمل خنجراً بجانبه ـ أفكار وأمانى . حاجيات اجتازها بدون فهم لمضامينها ، وتقودنى دائماً تلك الموجة إلى ساحة غريبة حيث الجموع تتقاطر عليها كل يوم فى بسيط أمام من يرفه عنها ..

وأنا بدورى خلب لبى طيلة ساعات بانتباه مثل جاهل امام كتاب عظيم مفتوح ، نعم ، انها حقيقة ، ساحة غريبة يهرع إليها من كل فج اناس يطلون ليروا ما يجرى وسط الحلقة . فى هذه الحلقات تجتمع وتتفرق من الصباح إلى المساء جموع من المتفرجين حول بعض المشعوذين المتحركين بخفة ذكية .

هناك حلقة راقى الثعابين والحيات . يتحرك مزبداً ، منفوش الشعر أمام كيس من الجلد ، تنطلق منه ثعابين سوداء لامعة ، والراقى يقفز حولها ذاكرا

تراتيله بعنف وخفة المشيدة بفضائل الأرض التى تدركها الثعابين أكثر من أى كائن حى ، ويطوح بشدة رقبته ورأسه ذى الشعر الطويل الأشعث .

وكثيراً من الأحيان يترك الساحر زواحفه ليهتم بـرجل أو امرأة تخرج من صفوف المتفرجين للتقـرب منـه ، وتسر إليـه بما يختلج فى صـدرها فى أذنـه وينتهى آخـر فصل من الدراما ، بعض الراقى الثعبـان ثم يعض الزبـون ، أو يأخذ الثعبان ويضعه فى يدى السائل أو فى عنقـه كما يوضـع الوشاح الحريري البراق ، ثم على الصـدر من تحت الملابس فى غمرتـه من حمى قـرع الدفـوف ، ودعاء الجمهور يبتعد عن المريض مزمجراً يملأ زبونه بلعابه السحرى الراغى بغزارة من شفتيه .

والقصـاصون المرتـدون لألبسة أنيقـة ، يبدأون حـديثهم بتلاوة أشعـار مشفوعـة بنقر منسجم يتخلل الحديث نقـرتين أو ثلاثـة حادة على دف صغير لاتزان الإيقاع ، وإيقاظ العقول والإيماءات الطويلة بالأصابع واليد ... الخ».

* * *

انأى عن ساحة الفنا ، ولكن تفاصيلهـا تبقى عندى ، الحلقات ، المتفرجون ، العابرون ، الموسيقى ، الأغانى ، الأشعـار ، حلقات المصارعة ، التمثيل ، تفسير الأحلام ، الوعظ ، الأعشاب الطبية ، الاشـارات الواضحة ، الغامضة ، الكلمات المتتـابعـة ، تقلص الملامح ، ابـداء الجديـة ، الإنفعـال الـزائد عن الحد ، ضرب الأرض أحياناً بقبضة اليد ، التلويح فى الفراغ ، الترغيب ، الترهيب ، الاقناع ، فى كل مشهد صورة لما يجرى فى هذا العالم الفسيح ، وفى كل لحظة تلخيص لما يتم فى لحظات معينة من عمـر الدنيا التى نحيا ، والتى تفنى بمن فيهـا باستمرار ، باستمرار ..

فى ساحة الفنا أدركت أصول اللعبة !!

١٩٨٩

البيعـــــة

فبراير ١٩٨٩

مراكش ..

نزلتها أول مرة منذ عشر سنوات ، مدينة تقف عند حافة رهيفة تفصل بين الحلم والواقع ، صحراوية الحضور والمناخ ، ولكن يؤطرها عبر الأفق جبال الأطلس المكللة بالثلوج ، بريق فضى يتحد بزرقة السماء ، أينما وليت الوجه يطالعك ، فيتضفر مع النخيل الراسخ ، وأشجار السرو فيحدث أمراً عجباً ..

مدينة يمشى التاريخ عبر دوربها ، وتنز الأيام القديمة من جدرانها التى طليت كلها بلون وردى طوبى ، لون واحد للمدينة كلها ، يوحدها ، ويفرقها أيضاً .

فى المدينة مناخ احتفالى ، فرق الموسيقى تعزف فى الطرقات ، وأمام البنايات الرسمية ، نصبت الخيام المغربية البيضاء ، المزينة بزخرف واحد يشبه زهرة اللوتس ، تصطف داخلها الحشايا الوثيرة ، وتتناثر أباريق الشاى الفضية ، وفى الساحة الفسيحة القريبة من القصر الملكى تجاورت الخيام التى تأوى رجال ونساء وأطفال المغرب الذين جاءوا مع ركب القبائل كلها ، كافة قبائل المغرب بدون استثناء ، لتقديم البيعة إلى ملك المغرب ، اللافتات فى كل مكان تعلن التهنئة والبيعة (لأمير المؤمنين فى يوم اعتلائه عرش أسلافه المنعمين) .

جئت لحضور حفل توزيع جوائز المغرب الأدبية ، هذا الحفل ما هو إلا أحد

مظاهر الاحتفال بعيد الجلوس الذى تقدم فيه البيعة ، اليوم الأربعاء يقيم الملك حفلا لاستقبال ضيوفه ، أمضى متشوقاً لدخول القصر الملكى ، منذ سنوات اشتريت كتاباً من جزءين بعدة مئات من الجنيهات ، الفه مهندس فرنسى اسمه أندريه باكار عمل فترة طويلة فى صيانة وترميم القصور الملكية المغربية ، ثم سجل الزخارف الجصية والخشبية والأشكال الزخرفية الرائعة التى تحفل بها الأبواب والجدران والأسقف والنافورات ، أضع هذا الكتاب على مقربة حتى إذا ما أنهك بصرى نتيجة القراءة الطويلة أفتح صفحاته لأريح عينى أثناء تأمل الزخارف والأشكال الملونة ، وها أنذا أتأهب لأراها على الطبيعة ، وشتان ما بين الأصل والصورة .

* * *

أسوار متتالية ، وردية الطلاء ، تتعامد فيما بينها لتشكل ساحات صغيرة ، أو فسيحة ، لا بد من اجتيازها قبل دخول القصر نفسه ، المدعوين المغاربة يرتدون الزى القومى ، منذ سنوات أصدر الملك الحسن قراراً باعتبار الجلباب المغربى زيا رسمياً، فى احدى الخطوات الواعية التى تستهدف تعميق الصلة بالتراث ، المشهد اسطورى ، مئات فى جلابيب بيضاء ، يعلو كل منها السلهام ، أو البرنس المغربى الذى يغطى الرأس ، الكل يرتدون البلغة البيضاء أيضاً ، من الصعب التعرف على الوزراء والنواب وأساتذة الجامعة الكل متساوين ، إلا إذا طالعت الوجوه ، الضيوف الأجانب مسموح لهم ارتداء الزى الأوروبى القاتم .

دخلنا إلى فناء مستطيل ، يحفه رواق قائم على أعمدة من الرخام ، تتوسطة نافورات جميلة التكوين ، الجدران مساحات من اللون الوردى كالصفو ، تتناثر عليها مربعات ومستطيلات مليئة بالزخارف ، زخارف ألفتها ، وحفظت عناصرها لطول مطالعتى وتأملى لها ، لنقاط التقائها ، وتفرقها ، ولكن رؤية الألوان على الطبيعة أمر جلل ، لن أنسى أبداً هذه الدرجة من اللون البنفسجى

الفاتح ، وتلك النقوش الجصية ، وهذا التجزئيى الذى يفتت المادة المحسوسة ، حتى أن كينونة الحجر تنتفى عند لحظة معينة فكأنه لا حجر ، ولا جص ، إنما خيالات ورؤى .

عشرات الآلاف من العمال ينشطون فى مجال الحرف التقليدية المتصلة بالعمارة القديمة ، بحيث حافظ المغرب على تقاليد المعمار الأصيل وهويته ، إنه البلد العربى الوحيد الذى أحدث هذا التوازن المدهش بين القديم والجديد ، بين عناصر الأصالة ومقومات التطور الحديث فى مجال العمارة ، فى الطريق من الدار البيضاء لمحت مبنى جميلاً ، وكأنك ترى عمارة اندلسية أصيلة بلمسات المستقبل ، قرأت عليه ما يفيد انه المركز الثقافى بناحية أسطات ، وعندما أبديت اعجابى به للوزير المثقف حقاً ، النشط ، الواعى محمد بن عيسى ، قال لى إنه افتتح منذ أربعة أيام لاغير .

ينبهر العرب بقصر الحمراء فى الأندلس الغاربة ، وفى المغرب العربى أكثر من ألف بناء يحاكى ويفوق الحمراء القديمة ، وهذا الحفاظ الواعى نتيجة الثقافة الرفيعة ، والوعى بالتراث الذى هو جزء من الحضور المغربى فى مواجهة تحديات الغرب .

طالت وقفتنا فى الفناء الفسيح ، ثم سرت حركت خفيفة ، يتجه الجميع صوب باب ضيق مقوس من أعلى .

حان أوان الدخول ..

* * *

يلى الباب الضيق ممرات متعامدة ، كنت حائراً ، هل أتطلع إلى السقوف الخشبية البالغة الجمال ، أم أصغى إلى الأديب والباحث المغربى مصطفى القباج يشرح لى ما أراه .

من الممرات الضيقة انتهينا إلى ساحة فسيحة ، تطل عليها شرفة خشبية، حول الساحة موائد رصت عليها الحلوى والمشروبات التقليدية فى منتصف الشرفة علم المغرب الأحمر بنجمته الخماسية الخضراء، فى

المواجهة يقف حرس الشرف ، يرتدون زياً أحمر وأغطية رءوس حمراء ، بينما يتناثر هنا وهناك حرس القصر بجلابيبهم البيضاء ، وعمائم حمراء مثلثة ، بعضهم يحمل سيوفاً والآخرون أسلحة نارية ، إلى جانب اصطفت فرقة الموسيقى السيمفونية الملكية ، بينما وقف الحضور فى الفناء ، والى الجانب الآخر المدعوين وكبار رجال الدولة الذين سوف يصافحون الملك .

سرت حركة ، ولمحت رجال الحرس الخاص يسرعون ، ثم دوت صيحة ، وطبل كالرعد .

لمحت الملك يصعد السلم الخشبى المؤدى إلى الشرفة ، يتبعه ثلاثة شبان.

* * *

فى الشرفة وقف الملك الحسن الثانى مرتدياً الجلباب المغربى ، إلى يمينه ولى عهده الأمير محمد ، وإلى يساره ابنه الأصغر الأمير رشيد ، وإلى جوارهما ابن شقيقه الراحل .

عزف السلام الملكى ، وأدى الملك التحية للعلم الذى كان يحمله رجل عملاق من أطول الذين رأيتهم فى حياتى قامة ، فاتنى القول إنه عند ظهور الملك ، كان هناك مجموعتين من الرجال الذين ارتدوا العباءات البيضاء ، بادروا بالركوع ثلاثا ، مطلقين صيحات غامضة ، لم أميز كلماتها ، عرفت فيما بعد أنه دعاء .

«الله يطيل عمر سيدنا ..»

بعد المراسيم ، نزل الملك والأمراء ، وقفوا تحت العلم فى الساحة ، ثم تقدم كبار الضيوف للمصافحة ، وكان بينهم أحمد فؤاد ابن الملك السابق فاروق ، ثم السفراء ، ثم رجال الدولة المغربية ، وكان كل منهم يقبل يد الملك ، وبعضهم يقبل يديه الاثنتين ، الوزراء ، أعضاء البرلمان ، ضباط الجيش ، الشرطة .. الكافة، ينحنون مقبلين ، كان الملك يتحدث إلى بعضهم ، بعد انتهاء المصافحة تقدم الملك عبر الساحة محييا ضيوفه داعياً إياهم إلى مائدة المشروبات ، عندما حاذانا رأيت وجهه مزدحماً بالتجاعيد ، وكان لونه أسمراً أكثر مما يلوح فى

الصــور ، اختلط المدعـوين ، التقيت بالسفير المصرى فى المغـرب منير زهـران ، رجل دمث ، نشيط ، له سمعة طيبة هنا ، والوزير عاصم عبد الحق وزير القوى العاملة الـذى جاء لحضور اجتماعات منظمة العمل العربيـة التى قررت عودة مصر إلى عضـويتها ، التقيت بـالصـديق سمير النجم سفير العراق فى المغـرب والذى قضى أكثـر مـن عشر سـنوات فى مصر ، مـازال مســكوناً بكل لحظـة مرت به فى وادى النيل حتى النخـاع .

كنت مرهقـاً ، فقد طال وقوفنـا أكثر من ثلاث ساعـات ، والمناخ المراكشى حار، لكننى كنت مازلت أتطلع بينهم إلى نقوش الجدران ، متسائلا عما يمكن أن يكون بـالداخل ؟ ، وفى وسط الساحة ارتفعـت تورته ملونـة من الخشب عليها أعلام دول اتحاد المغرب العربى الكبير ، وعندما مررت بجوارها ، تعجبت كيف توضع مثل هذه التورتـة التى صنعت على عجل وسط هذا الثراء الفنى ، لكنها على أية حال رمزاً !

* * *

الجمعـة :

إنه يوم البيعة ..

على جـانبى الطريق الممتـد حتى القصر ، وقفت الفـرق القـادمة من قبـائل المغرب تقدم فنونها الموسيقية ورقصـاتها وأغنياتها ، وفى السـاحة الكبرى راح الفرسـان يتسابقون بجيادهم مطلقين أعيرة نارية من بنادق قديمة الطراز تمت إلى القرن الماضـى .

مشينا حتى السـاحة الخارجية للقصر ، اجراءات أمنية صـارمة ، يصطف رجال القبائل صفوفاً متراصة يواجهون باب القصر ، كافة قبائل المغرب تجىء لتجديد البيعـة فى كل سنة ، بما يعنى انتخاب جديـد ، أخبرنى أحد المتعمقين فى الشئون المغربية إنـه فى حالة امتناع قبيلة واحدة عن تقـديم البيعة عندئذ يجب على الملك التنحى فوراً ، ولهذا سابقة فى التاريخ .

فى المساء أطلعنـا على الجزء الذى لم نـره من الحفل ، كبار المسئـولين وهم

يقدمون البيعة داخل القصر ، أولهم وزير الداخلية وكبار معاونيه، ثم الوزراء، والنواب ، وكبار المسئولين .

يخرج الملك ، يلوح موكبه ، يتقدمه صف من الحرس الخاص يرتدى رجاله الجلابيب والعباءات البيضاء وأغطية الرءوس الحمراء ، يتوسطهم رجل يمسك عصاً مفضضة ، يليهم الفرسان ، ثم عربة الملك ، بيضاء ، مكشوفة ، أعد المقعد الخلفى منها بحيث يصبح مرتفعاً ، مغطى بكسوة خضراء ، يجلس فوقه الملك ، وراءه عربة حمراء تجرها أربعة خيول ، وعلى الجانبين صفين من الخيول العربية الأصيلة بدون فرسان ، على جانبى السيارة يمشى الأميرين محمد ورشيد وابن عمهما ، وبعض من كبار المسئولين .

يتجه الركب إلى الصفوف المتراصة ، الملك يتطلع اليهم ، وعندما تقترب العربة من الصف الأول ، تنحنى الصفوف الثلاثة الأولى ، ويعلو الدعاء ..

«الله يطيل عمر سيدنا ..»

ثلاث انحناءات عميقة ، فيصرفون بعضها ، ثم تتقدم السيارة إلى الصفوف التالية ، ويتكرر الإنحناء ثلاثاً ، ثلاثاً ، حتى يصل الركب إلى آخر صف ، تتم البيعة هكذا ، وتستدير السيارة عائدة على مهل ، هنا يلوح الملك للضيوف ، ولرجال القبائل ، يدخل إلى القصر ، ويبدأ انصراف الجمع ، ولكن الاحتفالات فى الشوارع ، الرقص ، الغناء ، لا تتوقف طوال الليل .

تلك طقوس منحدرة من زمننا القديم ، ما تزال هنا حية ، لها بريقها ، وفى مناطق أخرى اتخذت البيعة أشكالاً أخرى لكنها تؤدى إلى نفس الغرض ، فمنها برقيات التأييد ، أو ارسال الوفود ، أو كتابة المقالات ، وأحياناً تصفيق وهتاف النواب ، أو خروج الجموع فى مظاهرات حاشدة ، محشودة .

تتنوع المظاهر ، ولكن ما رأيته عصر هذا اليوم المراكشى فى ساحة القصر سيظل ماثلاً فى ذاكرتى إلى الأبد .

١٩٨٩

* * *

متتاليات مغربية

الوقوف عند حد المحيط

أغسطس ١٩٩١

فجر السبت :

تقلع الطائرة المغربية فجراً . لم يتغير الموعد منذ رحلتى الأولى إلى المغرب الأقصى منذ اثنى عشر عاماً عندماً قصدت فاس للمشاركة فى ندوة الرواية العربية كان ذلك عام تسعة وسبعين وتسعمائة وألف ، اما رحلتى الثانية فكانت فى عام تسعة وثمانين وتسعمائة وألف ، لحضور حفل جائزة المغرب الكبرى ، وعيد الجلوس الملكى ..

للمرة الثالثة أتأهب لأسلك نفس المسار ، فهل ثمة أثر خلفته فى الفراغات العلا من الرحلتين السابقتين ؟ هل ستقع عينى على نقطة من الفضاء سبق لى أن سددت إليها البصر وأنا حسير ؟

لا أدرى ، ولكن تتعاقب الخواطر ، منها التطلع إلى ما سألقاه ، والخشية إلا أنثنى راجعاً إلى ما عهدته وهذا متصاعد ، متزايد عندى خلال الأعوام الأخيرة ، وأسبابه شتى ، اقصر عن ذكرها الآن حتى لا أحيد عن القصد .

الآن .. الثانية والربع فجر الثالث من أغسطس .

بينما أروح وأجىء فى الصالة الرئيسية للمطار ، يعلن المذياع الداخلى عن وصول الطائرة القادمة من لندن .

إذن .. فقد حطت أخيراً .

مثل هذه النداءات لم تعد تلفت نظرى أو تشد سمعى .: ولكن

الأمـــر يخـــلف بالنســـبة لهـــذا الوصـــول .

فى هــذه اللحظـات ربما يخرج صنـــدوق مستطيل يحوى جثمان يـوسف ادريس .

كنت مستسلماً لصور شتى ، ومشـاعر حــزن وأسى ، استيعد المرات التى ســـافر فيهـا عبـــر هذه الصـــالة ، آخـر مرة صحبنـاه فيها فى مـارس العام الماضى ، عنـــدما شـــاركنا فى ندوة القصة والحرب التى عقدت فى بغداد . كان يفيض حيوية، وتوقداً ، واختيالاً . والحق انه كان صعباً علىّ اجراء المقارنة بين يوسف ادريس المتفجر بـالحيوية ، ومحتوى هذا الصنـدوق الذى يستقر الآن فوق أرض الوطن .

سألت ضابط شرطة برتبة عميـد عما إذا كان ممكناً السماح لى بالذهاب إلى مهبط الطائرة لأكون بين الصحفيين الذين ينتظرون ، ولكنه أخبرنى أن هذا أمر صعب ، وأن الأمر كله لن يستغرق إلا لحظات ، بعدها يخرج الجثمان من بوابة رقمها خمسة وثـلاثين ، وقال إن كل شىء اعد لانهاء الإجـراءات بسرعة ، قال إنه لا يوجد أى شخص على مستوى هام ، ولا مندوب من أى جهة ، فقط بعض الصحفيين العاملين فى المطار .

هكذا مضيت إلى الطائرة المغربية التى استقرت فى مكان ناء من المطار .

وكعادتى عند السفر ، أتوقف قبل دخول الطـائرة استدير للحظة ، مواجهاً الفراغ ، والأرض .

والمبانى ، والعمق الذى لا يُرى ، سواء فى المكان أو الزمان ، مودعاً بكينونتى هذا المعنى اللا محدود الذى من اسمائه .. الوطن .

مطاردة الشروق

ثلاث ساعات ، فرق التوقيت بين أرض المغرب الأقصى وديارى المصرية .

تشرق الشمس على القاهرة فى الســادسة صباحاً ، وتكـون الساعة فى نفس اللحظة الثالثة فجراً .

يتدرج الزمن أثنـاء الطيران غربا ، فنرى الشروق مرات ، كلما تقدمنـا فاننا نمضى عكس الزمن أو معه .

تقلع الطائرة فى الرابعة ، تصل فى السادسة صباحاً طبقاً للتوقيت المغربى ، مع أن مدة الطيران الحقيقيـة خمس ساعـات كاملة ، وإذا كـان الانتقال غـربـاً يضيف إلى العمر بضـع ساعات فـان الزمن سرعـان ما يستردهـا عند الاتجاه شرقاً، مع العودة ، لم أغفو ، إنما كنت أتابع أطول شروق أمر به .

تنوع الألـوان عند الأفق الشرقى ، وعبر النـوافذ الأخرى من الطـائرة كان الليل مازال ســارياً فى الكون ، حتى إذا بلغنـا مطار الدار البيضـاء كان الصبح مكتملاً ، والنهار وضاحاً ، ساطعاً بالضوء .

ســاعة انتظـار بعدهـا كنا نحلق مـرة أخرى فى الطـريق إلى طنجة ، تتجـه الطائرة صوب المحيط ، المحيط مقصدى الحقيقـى فى هذه الرحلة ، ليس المحيط فى امتداده ، إنما فى جـوهره ، فى إمتداده ، وذلك لصلته الـوثيقة بالـرواية التى أعمل فيها الآن «هاتف المغيب» .

من النافـذة المستديرة لمحت مسجـداً هائل التكوين ، يقف مطـلاً على البحر الأعظم ، المئذنة شاهقة ، لم يكن عسيراً علىّ استنتاج انه مسجد الحسن الثانى الذى قرأت عنه منذ سنوات حيث يجرى فيـه العمل بكثافة وتؤدة ، كانت زرقة الماء عميقة ، والغمامات البيضاء المنخفضة تختلط بها حينا .

لم يطل تحليقنا ، بعد أربعين دقيق نزلنا مطـار طنجة ، فى المغرب العديد من المطارات ، وكل منهـا يمكن أن تطير منه إلى أى مكـان فى العالم . كـانت الطائرة التى أقلتنا ستكمل رحلتها إلى بروكسل .

فى المطار كـان بانتظـارنا الأديب بهاء الطـود ، الأصيل مولـداً ، الطنجاوى اقامة، كنا التقينا فى القاهرة خلال الستينيات ، فى مقهى ريش الذى كان مقصد المثقفين المصريين والعرب. قبل أن يفقد مكانته فى الثمانينات، ويتحول إلى مكان سياحى، كان بهاء الطود يستعيد التفاصيل ، وكنت استنفر ذاكرتى المجهدة.

مضينا عبر شوارع طنجة ، كنت أستيعد مجيئى إليها عامثمانين وتسعمائة وألف ، عندما استقبلت فيها ذلك العام ، مازلت اذكر وحدتى فى الفندق ، واغفاءتى التى استيقظت منها على صياح الناس فى الشارع عند انتصاف الليل ، كذا صحبتى للأديب محمد شكرى صاحب الخبز الحافى . وأحد مفاتيح المدينة البشرية ، ذهابنا إلى زيارة قبر ابن بطوطة ، الراقد فى زنقة ضيقة بالمدينة القديمة. بعد أيام قابلت محمد شكرى فى أحد مقاهى أصيلة ، كما هو ، لم تتغير ملامحه، ربما ازداد نحافة ، عندما رآنى ذكرنى بجملة قلتها عند قبر ابن بطولة:

«اتسعت له الدنيا وضاقت به زنقة ..»

أتذكر زيارتى للعالم الأديب عبد الله كنون ، ترى .. أين موقع بيته الأندلسى الجميل الذى رأيت جدرانه مدججة بالكتب والمخطوطات .

منذ عامين توفى العلامة عبدالله كنون .

حقا . لا يمكن للإنسان عند عودته إلى مدينة زارها أو بلد عبره من قبل أن يجد الظروف كما عهدها ، يحدث هذا إذا تقاربت المدة ، فكيف إذا أصبح الفارق أكثر من عشرة أعوام .

أدقق النظر فى بيوت المدينة التى تقوم على سفوح المرتفعات ، ثمة حركة بناء نشيطة ، بيوت جديدة تقوم ، وشوارع تخط ، اين الطرق التى عبرتها من قبل : لو أن الإنسان يخلف أثراً فى الفراغ ، لكن ما اكثر البشر الذين يقيمون ويرحلون بدون ان يتركوا ما يدل عليهم ، وما أنا إلا فرد منهم ، لا امكث بطنجة طويلا .

تخرج منها إلى الطريق المحاذى للمحيط متجهين إلى مكان اقامتنا فى أصيلة .

مرة أخرى المحيط . أتطلع إلى أمواجه . أرقب ضباباً كثيفاً مرئياً يمكن لمسه . يتقدم صوب البحر بسرعة ، يلف المكان والطريق ، تصبح الحركة حذرة ، لم أر هذه الظاهرة فى البحار التى وقفت أو لزمت شواطئها ، هل هى مرتبطة بالمحيط، هذا البحر الذى كان يعرف ببحر الظلمات حتى خمسة قرون خلت ،

والذى كان محركاً للمخيلة العربية منذ أن بلغ شاطئه عقبة بن نافع ورفع يديه مشهداً ربه أنه لو كان ثمة أرض أخرى لما قصر أو توانى عن التقدم للفتح ونشر الإسلام .

اتطلع إلى المياه اللا نهائية ، اراها بعين القدامى الذين كانوا لا يعلمون شيئا عن وجود الأمريكيتين .

بماذا كانوا يشعرون عند تطلعهم إليه . مع وعيهم بالمجهول المغمور هناك ، كانت الأسطورة تقول إنه بعد الابحار عدة أيام هناك تمثال من نحاس فى وسط الخضم يرفع يده محذراً ، كتب عليه .

«لا خطوة بعدى »

بأى لغة ؟

لم توضح الاسطورة ، من اقامه ؟ لا أحد يدرى ، ولكن ثمة حكاية تتردد فى مصادر التاريخ القديم عن الأخوة الثمانية من أهالى الأندلس ، الذين عمروا مركباً وأبحروا فى المحيط ، غابوا عدة شهور وعادوا ليحدثوا الناس عن قوم يعيشون وراء هذا الماء . هيئتهم غريبة وعاداتهم أغرب .

هل وصلوا إلى الشواطئ الأمريكية ؟

ربما .. فالمؤكد ان كولومبس لم يبدأ رحلته من فراغ ، وعندما زرت المكسيك منذ عامين ، أذهلنى الشبه القوى بين ملامح وجوه عديدة والملامح العربية ، بحيث يمكن اعتبار وجهى أنا العربى الصميم ، سليل قبيلة جهينة، مألوفاً فى امريكا اللاتينية .

مجرد خواطر تتداعى أثناء تأملى المحيط الذى جئت للوقوف على شاطئه، تماماً كما يقف بطل روايتى (هاتف المغيب) فى نهاية شوطه .

جموح البغل

تحيط الفندق الحديث منطقة فسيحة شبه ريفية ، استدعت إلى ذهنى دلتا النيل ، مع خصوصية ما . عند نزولى من السيارة لمحت بغلا بنى اللون مربوطاً

إلى عربة مزينة ، معدة لنقل السياح والزائرين ، بدأ يعدو فجأة بسرعة فى اتجاه قنطرة تقع إلى الجهة الأخرى . فى البداية ظننت أن قائد العربة يلهبه ليجرى . ولكن عندما اصطدمت بقائم معدنى يتوسط مدخل الجسر وانقلبت اكتشفت انها فارغة ، وأن البغل نفر فجأة «جمح» توقف مربوطاً ، مشدوداً إلى العربة المنقلبة ، كان يحاول الفكاك ، لكن عبثاً .

لماذا جمح الآن ؟

أى سبب كامن ؟

لماذا انطلق يعدو فجأة ؟

البغال من أكثر حيوانات العالم تحملاً وصبراً على المشاق ، وأذكر أننى تأملته طويلاً فى شمال العراق عام خمسة وسبعين وتسعمائة وألف، كان هو الحيوان الأكفأ والأمهر في تسلق الجبال ، ونقل الأثقال . صبور ، لكنه إذا ضاق بالحال ، فإنه يلقى ما يحمله ، ويقفز إلى الهوة منتحراً ، الإنتحار قرار داخلى . نتيجة معاناة هائلة ، لا يقدم عليه إلا الإنسان الذى ينهى حياته طوعاً ، ويقال إن بعض أنواع الحيتان تفعل ذلك .

لماذا ينتحر البغل ؟

لا بد أن صمته يخفى الكثير ، لابد أنه يعانى معاناة صامتة ، فهو لاينهق كالحمار ، ولا يصهل كالفرس ، مع أنه نتاجهما معاً ، لا صوت له .

لماذا جمح بغل العربة ؟ هل شعر أنه يمثل دوراً سخيفاً أمام السائحين الأغراب ؟ هل انهكه الحنين إلى الوصال وهو العقيم الذى لا ينجب .

استعدت ما قرأته عنه فى كتاب الجاحظ «القول فى البغال» ، لكن لم تسعفنى معلوماتى . لم تفسر لى الموقف . لمحت صاحب العربة يتقدم نحوه بهدوء ، يقف إلى جواره . لم يعاقبه كما تصورت ، انما راح يربت عنقه بحنان . ومال يقبله .

وهدأ البغل ، استكان تماماً .

عرس مغربى :

بعـد إفتتاح مهـرجـان أصيلة الثقـافى ، الـدورة الرابعـة عشرة ، اقترح علىّ الصديق بهاء الطود أن أصـحبـه إلى فرح مغربى فى طنجه ، كنت مـرهقاً ، فمنذ ست وثـلاثين سـاعـة لم يغمض لى جفن ، مع كثرة أسفـارى خلال السنـوات الأخيرة كان المفـروض ان أعتاد التنقل والتغير ، لكن لـلأسف ، تمضى أحوالى عكس ذلك ، فالقلق داخلى ، أظن ان المرجع تلك الحالة الشرسة من الاكتئاب التى تملكتنى منذ السبعينيات ، ومحورها الموت .

أخشى الموت المفـاجئ خارج الـديار ، كثيراً مـا أسند رأسى إلى الـوسادة ؛ أصغى إلى دقات قلبى عبر شراييني متسـائلا . أى خفقة سيتوقف عنـدها ذلك القلب المجهد الذى يستقر داخلى ولا أدركـه . لا أحاوره ، أى دقة هـى الأخيرة ؟ هل هى تلك ، أم تلك ؟

منذ سنـوات انشغلت بتفاصيـل غريبة ، مثل .. هـل تصلح بطاقـة العودة لشحن الجثمان إلى أرض الوطن ؟ سألت واستقصيت ، وبالطبع كانت الاجابة من صديق مسئول بشركة الطيران بالنفى ، هذا حال وذاك حال .

فى الفنادق التى أنزلها أحرص على الاحتفـاظ بغرف أصدقائى وزملائى إذا كنت فى جمع ، ومكتب الاستقبال إذا كنت وحيـداً ، حتى أتمكن من طلب الغوث إذا وقعت أزمة ، وكأن المرء يمكنـه مقاومة المنيـة إذا وافته بغتة ، تمامـاً كحال الإنسان فى جبهـة القتال ، يظن أنه الـوحيد الـذى سينجو عند بـدء القتال ، أو القصف ، وأن بامكانه أن يتفادى القذيفة .

كثيراً مـا أرقب بدهشـة زملاء صحفيين ينتقلـون مـا بين لحظتى الاقامـة والسفر بسهـول بالغة ، بـدون عناء ، بل إن منهم من يجىء إلى مقـر الجريدة ويفاجأ بسفـر ما فيمضى على الفور وكأنـه ينتقل من غرفة إلى أخـرى . وعند السفر أرى بعض الركاب يغطون فى نوم عميق قبل اقلاع الطائرة ، أما بالنسبة لى فلا يغمض لى جفن إلا فيما ندر .

ان الخوض فى قلقى أمر يطول قد يحيد بنا عن القصد ، ولكن ما تزال الرغبة فى اكتشاف المجهول تغلب هذه المصاعب كلها . فالحمد لله اننى مازلت حياً أسعى !

كنت بحاجة إلى الراحة ، ولكن الاغراء كان قوياً ، فالمغرب بالنسبة لى بلد عريق حفظ الكثير من التقاليد العربية القديمة ، وصان الفنون العربية ، فى العمارة ، فى الفنون المتصلة بها ، وهنا لا بد أن أشير إلى توجه جلالة الملك الحسن الثانى فى هذا الصدد ، وتشجيعه للحرف والصناعات التى كان يمكن أن تنقرض الآن وتذوى ، ولى مع تلك الجهود وقفة أطول ، ولكننى لا أخفى انبهارى بهذه الجهود التى جعلت من المغرب أثرى البلاد العربية فى هذا المجال ، الحفاظ على الفنون القديمة ، وأحداث هذا التوازن المدهش بين القديم والجديد ، تم هذا كله بجهد واعى يعكس ثقافة أصيلة ، وتاريخاً عريقاً ، وبدون الاعتماد على ثراء نفطى طارئ . بل أن هذا الثراء لو وقع ربما أدى إلى طفرة فى غير الاتجاه الصحيح ، ولكن فى المغرب تقاليد عريقة ، ودولة قديمة واعية بالثقافات المتنوعة المنصهرة فى تجانس أخاذ .

فرح فى طنجة ، يعنى أننى سأرى تقاليد لم أعهدها ، فالعرس ليلة استثنائية، ومثلها لا يسنح كثيراً للغريب .

إذن .. فلأذهب .

المسافة حوالى أربعين كيلو ذهابا ومثلهاً ايابـاً ، فى سيارة الصديق بهاء ، كنت أفكر فى هذا العُرس الذى قدر لى أن أحضره ، لا أعرف أهله . لم ألتق بهم من قبل . ومن المؤكد أننى لن أقابل ايا منهم فيما بعد ، ولن أسمع عن أحوال العروسين الذين سأشهد فرحهما .

إنها ليست المرة الأولى التى أمضى فيها إلى عُرس أجهل صحبه ، حدث فى عام تسعة وثمانين وتسعمائة وألف أن كنت مسافراً إلى موسكو على الطائرة اليمنية ، وبعد الاقلاع من استامبول محطتنا الأولى ، وقع خلل فى الطائرة عاد بعده الطيار بالطائرة إلى مطار استامبول ، اضطررنا إلى قضاء الليلة فى المدينة ،

مضينا إلى فندق مطل على شاطئ البوسفور ، وعندما حانت ساعة العشاء دخلت المطعم الذى خصصوا لركاب الطائرة جانباً منه، لاحظت أن هناك حفلاً فى قاعة أخرى مجاورة أكبر وأفسح ، بعد لحظات أصغيت إلى موسيقى تركية كلاسيكية أعرفها جيدا ، إذ أننى دائم الاستماع إليها أثناء القراءة أو الكتابة ، وقد جمعت خلال أسفارى ما يزيد عن مائتى ساعة من الأغانى والموسيقى التركية التى تحرك أشجاناً قديمة وأخرى مستحدثة عندى ، وفى الليالى الصافية أدير المؤشر لأستمع إلى راديو أنقرة ، أو استامبول ، أو ديار بكر مباشرة خاصة خلال شهر رمضان الكريم الذى يمتد فيه الإرسال إلى ما بعد صلاة الفجر .

قمت واقفاً ، اقتربت من مدخل القاعة ، رأيت الفرقة فى الصدارة ، فى مواجهة العروسين تماماً ، أما المدعوين فقد اصطفوا حول المناضد المستطيلة ، كانوا يصغون فى وقار ، واذ تنتهى المقطوعة يصفقون ، بدا لى معظمهم منتمياً إلى الطبقة الوسطى ، بعد الفرقة الموسيقية ، دخل إلى القاعة مغن رائع الصوت ، الألحان أعرفها جيدا ، كنت أهز رأسى متفاعلاً معها عندما اقترب منى رجل باسم . أشار بيده يدعونى إلى الدخول ، لم يكن يتكلم الانجليزية ، ولم أكن أعرف كلمة من لغته ، أومأت شاكراً لكنه أصر.

هكذا وجدت نفسى وحيداً بين غرباء لا أعرفهم ، أبادلهم الابتسام ويبادلوننى ، وسرعان ما تطلع الجميع إلى المطرب التركى رائع الصوت بينما كنت أختلس النظر إلى العروسين ، متسائلا : من هما ؟ ما هى الظروف التى جمعتهما ؟ ، الام المصير ؟ أين سيكونان وأين سأكون ؟.

نفس التساؤلات كنت أرددها صامتاً فى ذلك الفرح المغربى ، قبل وصولنا إلى مكانة عرج الصديق بهاء الطود إلى بيته ليصحب زوجته ، كانت هناك استعدادات عنده أيضاً لفرح شقيقة زوجته يوم الخميس القادم ، وقد قُدر لى أن أشهده أيضاً .

كانت زوجة الصديق بهاء ترتدى قفطاناً مغربياً أخضر اللون ، مؤطر بالقصب ، ومحلى بزخارف عربية ، القفطان المغربى زى جميل ، يرتديه الأثرياء والفقراء على السواء ، يختلف القماش طبعاً ونوعية الزخارف ، ولكن الطابع العام واحد ، وخلال الفرحين الذين قدر لى أن أشهدهما لم أر سيدة مغربية واحدة ترتدى غيره ، بل كان ممكناً التعرف على الأجنبيات فوراً من الزى ، القفطان يشبه الزى القومى للمرأة ، وتمسكها به يدعو إلى الإعجاب .

قطعت السيارة بنا شوارع ترتفع وتنخفض ، تقوم طنجة على مرتفعات عديدة ، وعندما اقتربنا من العرس لم يكن عسيراً علىّ استنتاج اقترابى من المكان ، فصفوف السيارات طويلة ، حديثة كلها ، وكان بعض الحافلات السياحية .

إلى اليمين أضواء كثيفة تتخلل الأشجار .

ليلة مغربية

طريق مرتفع مؤد إلى مدخل البيت ، والحق أن كلمة بيت مجازية ، فما رأيته قصر صغير . الطريق محفوف بالأشجار . على جانبيه وقف رجال ينتمون إلى فرقه موسيقية ، يرتدون ملابس فولكولورية قديمة ، وبأيدى كل منهم آلة موسيقية تمسك بكلتا اليدين ، بمجرد ظهور قادم جديد ، تعلو أنغام الموسيقى الراقصة المنبعثة من تلك الآلة التراثية ، بينما يقومون بأداء رقصة يحركون خلالها أقدامهم وجذوعهم .

اجتزنا مدخل الحديقة الفسيح المحيطة بالبيت ، تتوسطها بحيرة صناعية صفت حولها الموائد ، وفى المواجهة نصبت (الكوشة) تحت خيمة زرقاء مذهبة ، تحتها أربع مقاعد وثيرة زرقاء أيضاً ، فالليلة عرس اختين ، هما شقيقتا صاحب البيت ، أحد أثرياء طنجة المحدثين ، أى يمت إلى طبقة الأثرياء الجدد ، فى الحديقة أقيمت أعمدة صناعية لتستدعى أجواء القصور العريقة ، خاصة القرميد الأخضر الذى يغطى السقوف ، كان القرميد كله صناعياً ، كذا

الأعمدة التى أحـاطت حضور الـرخام ، البيت فـوق مرتفع صخـرى ، وكانت المنـاضد مصفـوفة بأعلى أيضـاً ، إلى جوار الكـوشة من نـاحية اليمين مكـان وضعت به مقـاعد وثيرة خصصت لكبار الضيوف ، إلى اليسار وفـوق مرتفع من الأرض اصطفت فرقـة موسيقية حـديثة تعـزف الحاناً شرقية لمحمـد عبد الوهـاب ، ومحمد القصبجى . مكبرات الصـوت ضخمة جـدا ، الأنغام تجاوز فضاء المكان المحدود إلى المدينة ، قدرت عدد المدعوين بحوالى ألف ، وربما أكثر. فى المواجهة كان هناك شلال صناعى يدفق المياه من أعلى إلى أسفل ، إلى البحيرة التى أطلت عليها الكـوشة وخيل إلىّ أننى ألمح آثـار طقس قديم يتصل بعـلاقة الإنسـان بالماء ، بـالخصوبـة ، وتذكـرت الآية الكـريمة «وجعلنـا من الماء كل شيىءحى» ..

بعد مكثنا قليلاً ، إنطلق طابور متدفق من الـرجال الذين يقومون بالخدمة ، يحملون صوانى عليها أكواب المشروبات ، عصائر فاكهة وعصير اللوز . كانوا يمضون بسرعـة ليقدموا إلى المدعـوين الأكواب فى لحظة واحـدة ، ثم انسحبوا ليخرجوا من الحديقة عبر سلالم مؤدية إلى ما يشبه أنه طابق أسفل . بعد قليل يظهر الطابور من جديد ولكن فى هذه المرة ليقدموا أقراص الحلوى الافرنجية .

دخول الطـابور بهذا الشكل يبـدو أنه مظهر منحـدر من الأفراح المغـربية التقليدية ، حيث يدخل حملة الطعام تزفهـم موسيقى قديمة ، مرحة ، مبتهجة ، ولكن هـؤلاء كانـوا يتقـدمـون صامتين ، أمـا الموسيقى فمصـدرهـا الفرقـة الموسيقية التى احتلت الموقع المرتفع .

بعد الفـرقة الموسيقيـة ، تقدم شاب جميل الصـوت ، قوى الحنجـرة ، بدأ ينشد الملحون ، وهى قصائد من الشعر الشعبي ، باللهجة المغربية ، ملحنة.

تعرفت على الملحون أول مرة فى زيارتى الأولى للمغرب ، عام تسعة وسبعين وتسعمائة وألف . عندمـا دعا أحـد أعضاء البرلمان الأدباء المشـاركين فى ندوة الروايـة بفاس إلى داره ، ومازلت أذكر المنشـد المغربى وفرقته ، كـان صعباً فى

البداية أن أفهم اللغة الدارجة ، ولكننى أحببت ايقاعات الانشاد الفريدة جداً .

كان الشعر هو أساس الملحون ، اذ اقترن بالموسيقى ، ولاقى رواجاً كبيراً فى مختلف الأوساط الشعبية . وتتألف قصيدة الملحون من افتتاحية وأجزاء ، يستهل العازف على العود أو الكمان القصيدة بتقسيم حر ، ثم تدخل الفرقة الموسيقية لتعزف واحداً من ثلاثة أشكال معتمدة ، هى طبقاً للمصطلحات المغربية : السرابة ، الموال ، أو التمويلة . معظم مؤلفى السرابة مجهولون ، لذا سميت السرابة الحرامية ، والسرابة هى أغنية قصيرة تؤدى على المقام الموسيقى عينه الخاص بالقصيدة ، وتتألف من أربعة أجزاء ، الدخول ، الناعورة ، الأبيات، والدومة .

أما الأجزاء فهى الأقسام وتلك مقاطع تغنى فردياً وتقاطعها الحربة .

أما الحربة فيعود أصلها إلى القرن السادس عشر وهى لازمة تتكرر بين المقاطع ، وتنتهى القصيدة بإيقاع سريع اسمه الدريدكة .

تتكون فرقة الملحون إلى آلات وترية ، تشمل العود وفيه ستة أوتار ، خمسة منها مزدوجة ، والوتر الأغلظ مفرد ، الكمان ويعزف عليه أثناء وضعه عمودياً على المركبة ، وهذا وضع تتميز به فرق الموسيقى الأندلسية المعروفة فى المغرب بالآلة .

أما السويدى أو السويسن فهو عود شعبى صغير . صوته حاد وجاف . إلى جانب ذلك الآلات الإيقاعية وأهمها (الدربوكة) أي الطبلة و(الهندفة) أي الصنوج النحاسية الصغيرة .

للملحون ايقاع فريد ، جميل ، لا مثيل له فى الموسيقى العالمية ، سواء كانت كلاسيكية أو فولكلورية ، والايقاع الخاص للهجة المغربية موقع هام فى تشكيل جمالياته ، هكذا كان يدوى فى الليل صوت منشد الملحون عبر مكبرات الصوت الضخمة ، كان صوته قوياً . ولكن لم يعجبنى انه كان يرتدى حلة افرنجية ، مع ان الجلباب المغربى والطربوش والسلهام ، زي رسمى فى المغرب ، وخلال

الحفلات الرسمية التى تقام ، خاصة فى القصور الملكية يرتدى الجميع الملابس التقليديـة ، وأولهم الملك نفسه ، وهـذا من الاجراءات والعـادات التى يبرز فيها الحفاظ على التراث ، وملامح الشخصية المغربيـة الخاصة ، ولكن في سلوكيات بعض أبناء الطبقة الجديدة ما يتنافى مع تلك التقاليد ، ويبدو التطلع إلى الشاطئ الآخر هو الغالب .

* * *

الموسيقى الأندلسية

عندما رأيت فرقة الآلة ، أى الموسيقـى الأندلسية تحتل أماكنها سرى عندى ابتهاج ، فتلك الموسيقى العـربية الأصيلة تصـاحبنى دائماً ، حتى أثناء عملى فى رواية أو قصــة أو عند كتـابة تأملات أو يـوميات أو أثنـاء القراءة ، الموسيقى الأندلسية أحد أنواع الموسيقى التـى ارتبطت بها وأحرص على تردد انغامها فى خلفية وقتى ، والحديث عنها يطول . تتعـدد فيه المؤلفات والكتب ، لكننى أقول إننى أعشقها فى كـافة تطـوراتها ، فى الجزائر تعرف بـالغرناطـى ، وفى تونس وليبيا بالمألوف . وفى مصر وفى سائر بـلاد المشرق بالموشحات ، وقد انتقلت إلى تركيا ، وإلى شعوب آسيا الوسطى .

أذكر اننى عندما نزلت طقشند منذ حوالى خمس سنوات ، ان فتحت المذياع كعـادتى عند الحلـول ببلـد غـريب لأعرف محطـات الاذاعـة التى يمكننى ان التقطها، فوجئت بغناء اوزبكى ، ولكن مصدر المفاجأة ان الايقاعات والمقامات كانت تردد أصداء الموسيقى الاندلسية .

طبعاً هناك فارق كبير بين أن تسمح من العازفين والمنشدين مباشرة . وبين سماع التسجيـلات ، إنـه الفـارق بين هـواء المروج الطلق ، والهواء الصنـاعى المحلب !

ولما كان الاستماع إلى فرق الآلة الأندلسية المغـربية نادراً فى القاهرة ، لذلك

كان من مصادر سرورى وانتشائى بدء عزف هذه الفرقة . الموسيقى الأندلسية فى المغرب هى نفس موسيقى الأندلس ، انها الأصل ، حفظها المغرب ، وتوارثها العازفون والمنشدون أبا عن جد ، ومن أشهر شيوخها وفنانيها فى المغرب الآن عبد الكريم الريس ويعيش مع فرقته فى فاس ، وقد استمعت إليها عدة مرات ، فى المغرب ، وفى القاهرة خلال الأسبوع الثقافى المغربى ، وفى باريس عام واحد وثمانين وتسعمائة وألف فى المركز الثقافى العراقى ، واحتفظ بعدة ساعات من تسجيلات الفرقة ، وهناك أصوات جميلة منفردة فى الفرقة ، منها صوت المنشد عبد المجيد بوزوادة . وصوت المنشد عبد الفتاح بنيس ، والأخير صوته جميل ، شجى يبدو كأنه قادم من الزمن الأندلسى نفسه .

مع بدء العزف تدفق طابور الرجال القائمين على الخدمة ، كل منهم يحمل صينية مغطاة بما يشبه القمح الكبير ، الاناء اسمه (المكب) معدنى ، مطلى بالفضة ، فى نفس اللحظة تستقر الأوانى فوق المناضد ، وفى لحظة واحدة يزال غطاء (المكب) ، انظر إلى فطيرة (البصطيلة) . فطيرة فريدة ، ذات مذاق تجمع بين الحلو والمالح ، سطحها مرشوش بالسكر الناعم ، وداخلها رقائق محشوة باللحوم المختلفة من دجاج وحمام وكبد ، وإلى جوارها زبيب وعين جمل وبندق مفروم ، الفطيرة دسمة جدا ، وأذكر أننى ذقتها لأول مرة فى فاس ، فى منزل الدباغ المحامى ، الذى دعانا خلال مشاركتنا فى ندوة الرواية ، أذكر أننى أقبلت على الفطيرة بحماس لطيب مذاقها وفرادة طعمها ، وأنا أحب الطعام المتقن الجيد .. إذا وُجد وأتيح استمتع به تماماً ، وإذا لم يكن فى المتناول أكتفى بأيسر المتاح .

لاحظ أحد الزملاء حماسى فى أكل البصطيلة ، فمال علىّ قائلا :

ـ عد الشراشف ..

تطلعت إليه متسائلا ، أشار إلى المنضدة .

ـ بعدد الأغطية ستأتى الأصناف ..

احصيتها فوجدتها خمساً ، وبالفعل ، جاء الرجال فحملوا الآنية التى تحوى البصطيلة ، ومعها الشرشف الأبيض ، ثم توالت الأطباق الأخرى ، أذكر منها ، لحم الضأن المسقى بزيت الزيتون والمخفوق بالمشمش والقراصيا ، ثم الحمام المخلى ، وبعده الدجاج المرصع بالزيتون ، وأخيراً طبق الكسكسى وعليه قطع اللحم أو السمك ، كان ذلك فى بيت صديقنا الدباغ ابن فاس العريقة ، طبعاً فى الأفراح العدد كبير ، ولا توجد شراشف مصفوفة فوق بعضها ، إنما غطاء من البلاستيك . كان الطعام دسماً ، رحت أداعب النادل الذى يأتى إلينا به ، أسأله بصوت خفيض

ـ هل هناك شىء آخر ؟

فيهز رأسه ايجاباً ، كان الطبق الثانى عبارة عن خروف صغير ، حمل رضيع ، راح المناول يفك الخيوط التى تحيطه ، ثم شقه فاتضح أنه محشو بشىء يشبه الشعرية عندنا ولكنه نبات ، مستورد من الصين . كان مذاقه غريباً ولكنه ليس خارقاً للعادة ، وخيل الىّ أن الغرض من حشو الخروف به هو الابهار أكثر من المذاق .

ـ بعده شىء ؟

ابتسم النادل الأسمر ، أومأ برأسه مرحاً ، كان الطبق الثالث دجاج مضمخ بزيت الزيتون .

ـ وماذا بعد ؟

الشاى الأخضر المنعنع ، والحلوى المغربية ، الكعك المستدير وكعب الغزال .

مع الطعام لاحظت حماس المدعوين للموسيقى الأندلسية ، كان بعضهم يتمايل طرباً ، ويستبق كلمات القصائد ، يحفظونها ، إذن .. ليست الموسيقى هنا مجرد تراث منعزل ، ولكنه جزء حى من بهجة الحياة ، يتمايل على أنغامها الثرى والفقير . مما أخبرنى به صديق مغربي أن الموشحات التى تنشد قبل بدء الطعام تختلف عن تلك التى تنشد أثناء تناوله ، أما معزوفات الختام فمغايرة تماماً .

مما شغلنى كميات الطعام المتخلفة عن الموائد ، كانت ضخمة جدا ، سألت النادل بصوت خفيض

ـ اين تذهب هذه البقايا ؟

بدا حائراً ، ثم قال ..

ـ لا أدرى .. ربما يرسلونها إلى الخيرية

والخيرية تعنى هنا ملاجئ الأيتام والفقراء .

* * *

الزفــــة

مع انتهاء العشاء علت موسيقى مغايرة من ناحية البيت ، وبدا زحام على الممر المحفوف بالأشجار المؤدى إلى المكان الرئيسي للاحتفال حول البحيرة .

هذا موكب العروسين .

يتقدمه رجال يحملون ما يشبه البيارق ، بينما يعزف بعضهم موسيقى راقصة ، ثم وصيفات العروس ، ثم العروس نفسها محمولة فى هودج خشبى اسمه هنا «العمارية» ، يشبه المحمل ، تجلس العروس داخله ، ويحملها أربع نساء ، من خلال مقابض خشبية برز من «العمارية» . ويقمن بالطواف بها ، وأثناء الطواف يؤدين بعض الخطوات الراقصة التى تسمح بها حمولتهن . «العمارية» من الخشب الملون ، مزخرفة بالزهور والأغصان ، كانت العروس الأولى ، تجلس داخل العمارية الأولى من الخشب أخضر اللون ، يبدو أنها الأخت الأكبر ، ترتدى ثوب العرس الأبيض وعلى رأسها تاج ذهبى . وتبدو يدها الممسكة بقائم العمارية الخشبى ، مزينة بنقوش الحنة الدقيقة . كانت الصغرى تجلس فى عمارية وردية اللون ، وتبدو مبتسمة ، مرحة بعكس ، شقيقتها الأولى التى خيل إلىّ أنها عصبية إلى حد ما ! لاحظ أحد الشباب الواقفين ارتجاف إحدى الخادمات الأربع كانت نحيلة ، كبيرة السن ، متسارعة الأنفاس ، تقدم

بسرعة، حل مكـانها ، واستمر الطـواف بالعـروسين ثلاث مـرات حول بحيرة الماء، إلى أن انزلـت العمارتيين أمام الكـوشة ، وأحاطـت الوصيفـات بهن وبدأ الرقص المغربى التقليدي .

تتشابه طقوس الفرح عند الأثـرياء والفقراء ، وجلوس العروس فى عمارية أمر حتمى ، وكذا الطواف بها ، وفى مدينة شوفشاون الواقعة فى جبال الريف ، رأيت عمارية مغلقة تمامـاً ، كصندوق تجلس داخلها العروس وأعـلاها ثقوب مستديرة للتنفس .

هذا ما شاهدته بعينى فى فرح تلـك الليلة ، وقد قدر لى أن أشهد فى آخر ليلة لى قبل سفرى فرح شقيقة زوجة صديقى بهاء الطود .

لم أشهد إلا جزءاً يسـيراً من طقوس العـرس المغربى ، وحتى تكتمل الفائدة كما يقولون فى كتب أجـدادنا الأقدمين أورد وصفاً للعرس كما ذكـره أحد أبناء المنطقة الأجلاء .

طقوس عريقة

يقول العـلامة الحاج بن عيسى عبد الكبير العيسـاوى فى كتابه عن مـدينة أصيلـة بين الماضى والحاضر . ان العـرس ينقسم إلى قسمين . خطبـة وحفلـة عرس، تبدأ الخطبـة بقيام وفد مكون من أم العريس وبعض الأقارب بـالذهاب إلى عائلة العروس ، ومعهم هدية مناسبـة . تكون غالبا من قوالب السكر وعلب الشاى . فتستقبلهم أم العروس بترحـاب . وتجلسـهم فى أجمل حجرات البيت ، ثم تختلى أم العريس بوالدة العـروس ، وتشرح لها الغرض من الزيارة وتطلب رؤيـة الفتـاة ، وعندئذ تمضى الأم وتطلـب من ابنتها أن تحضر كـوب مـاء أو بعض الحاجيات ليراهـا أهل العريس ، طبعـاً العروس تكون متأهبـة ، تعود أم العريس إلى دارهـا فتحكى عن جمال العروس لزوجها وعن الحفـاوة والكرم . عندئذ يقـوم الأب بزيـارة إلى والد العروسـة ،صحبـاً ببعض رجال عـائلته وغالباً ما يصحبه أحد الصالحين مـن علماء المدينة ، وبعد الاتفاق تبدأ مناقشة

التفاصيل وغالباً ما يتكلم فى الموضوع شخص آخر غير أب العروس ، وكثيراً ما يكون العالم الذى يصحب الوفد ، يقول مثلا :

سيدى فلان قد جئنا إلى أعتابكم الشريفة طالبين بنتكم فلانة البكر العذراء لولد السيد الفاضل فلان على سنة الله ورسوله .

يصمت الجميع ، لا يجيبه أحد ، يكرر الطلب مرة ثانية ، ثم ثالثة ، حينئذ يجيبه الأب أو أخوه وغالباً ما يكون الأخير ، بالقبول ، فترفع الأكف بالدعاء إلى الله أن يوفق العروسين إلى ما فيه رضاه .

مع قرب موعد العرس ، يستعد أهل العريس وأهل العروس ، بتهيئى أنواع الحلويات ، وإعداء الثياب الرفيعة ، والفرش ، وأنواع الحلويات ومنها القفاص وهو نوع من الخبز الصغير المصنوع من الدقيق المعجون بالسمن والسكر . والغريّبة وتلك معروفة فى المشرق ، وكعب الغزال وهو عبارة عن حلوى مصنوعة من اللوز والسكر فى شبه قوس من العجين الرقيق .

طبعاً تجتمع هذه الأصناف الثلاثة فى حفل المترفين من الناس ، أما المتوسطون فيقتصرون على نوع أو اثنين ، والفقراء غالبا ما يقتصرون على أصناف المأكولات . وربما يبيع والد العريس عقاراً لينفقه فى فرح ابنه أو ابنته .

يقول العلامة ابن عيسى عبد الكبير العيساوى معلقاً :

«وأما فى الوقت الحاضر فحدث ولا حرج . فقد بلغ السيل الزبى فى الأعراس ، والمصيبة أن الفقير يقلد الغنى ، بدافع من ربة البيت وعائلتها. فقد حضرت ختان ولدين لأحد أصدقائى بإحدى المدن المغربية فكانت حفلة الختام أعظم من حفلة العرس ..»

نعود إلى العرس كما يصفه العلامة العيساوى .

* * *

مع الوصول إلى اليوم المتفق عليه ، تبتدئ أفراح العرس ، وغالباً ما تبدأ يوم ثلاثاء ، وذلك حتى يكون الدخول بالعريس ليلة الجمعة ، وهى ليلة عظيمة عند الله وأجر من يحتفل فيها جسيم .

الثلاثاء ، أول أيام العرس ، هو يوم الهدية ، وهو عبارة عما يرسله العريس إلى زوجة ، وتزف الهدية على أنغام الموسيقى . حيث تعزف حوالى نصف ساعة قبل بدء تحرك الموكب . وبعد اكتماله يخرجون ، فى المقدمة ثور أو بقرة أو بعض الغنم ، وهذا بالنسبة للعائلات الموسرة فى الركب أكياس دقيق . وآنية سمن ، وأخرى من الزيت ، وقوالب سكر ، وأحياناً بعض الأحذية للذكور ، والاناث مختلفة الأحجام لعائلة العروس .

يتبع موكب الهدية عائلة العريس ، وشرفاء المدينة ، وعلية القوم ، يتلوهم عامة الناس والصبية . ويمرون على أضرحة الأولياء والصالحين ، يذكرون الله ويصلون على سيدنا محمد ، وغالباً ما يقولون :

«صلوا على الهاشمى طه . ما خلق الله فى السماء ولا في الأرض فحالوا (مثل) احمد مولاى التاج سيدنا» .

هكذا يمضى الموكب مخترقاً أزقة المدينة ، داعين عند كل ولى أو صالح بدوام العشرة والتوفيق لعامة المسلمين ، إلى أن يصلوا دار العروس ، فيجدون عند مدخله أب العروس وجميع أفراد عائلتها ، فيستقبلون بالترحاب ، ويتعانقون ، يتسلم الأب الهدية ويدخلها إلى الدار . وترتفع الأيدى بالدعاء .

* * *

الليلة الثانية

فى الليلة الثانية ، الأربعاء ، تعقد حفلتان مختلفتان فى كل من دار العريس والعروس ، وتكون كل منهما خاصة بأفراد عائلة العريسين . وتصاحبها فرقة موسيقية تنشد خلالها الموشحات الأندلسية ، أو شعر الملحون . فى هذه الليلة يتم تحنية أيدى العروسين ، كل فى داره .

يبدأ الحفل بذكر الله ، ثم المدائح النبوية ، ثم الموسيقى الأندلسية ، ثم يجتمع الطلبة على شكل دائرة وسط الدار ، وحولهم الشعب بمختلف طبقاته . وفوق الأسطح النساء ، ثم يؤتى بآنية فيها الحناء والحليب ، ثم يشعل الشمع ،

ثم يؤتى بالعـريس مرتدياً ملابس بيضـاء ، محفوفاً بإخوانه وأعـز أقربائه . تعلـو الزغـاريد . والموسيقى ، والمدائح ، أمـا كل من يصحب العـريس فيحمل شمعة بيده ، ويرش أهل العروس الحاضرين بماء الزهور وماء الورد .

طبعاً تحدث هذه العنـاصر كلها جوا أسطورياً ، مبهجاً ورهيبـاً معاً ، يقول الشيخ العيساوى انه كثيراً ما رأى العـريس يبكى والمقدم يضـع فى يده الحناء ، طبعاً مـن السعادة والـرهبة والفرح وسـائر المشاعـر التى يثيرها هـذا الحفل المهيب.

بعد الانتهـاء من حفل الحنـاء ، تقدم الأطعمـة المتنوعة ، وغـالباً مـا تشمل أوانى الكسكوس بـالدجاج والزبيب والبصل ثم تتبعهـا أوانى اللحم المطبوخ ، ومعه اللوز والبيض أو البرقوق .

فى النهاية يؤتى بالطاس ويغسل الجميع أيديهم .

بعـد الطعـام يجىء دور الحلـويـات . ثم يقـدم الشـاى الأخضر ، المحلى بالنعناع.

بعـد الشاى يأتى دور الهدايـا التى تقدم إلى العـريس ، ويطلقون عليهـا فى المغرب (كـادو) وهـى كلمة فـرنسية ، وفى مصر (النقـوط) يؤتى بصينيـة من الفضة أو النحاس ، مغطاة بمنديل كبير من الحرير يسمونه (السبنية) . فتجعل أمـام العريس الـذى يجلس على كـرسـى رفيع لابسـاً أرفع اللبـاس ، وحولـه أصدقـاؤه الذين يطلق عليهم تلك الليلة الـوزراء ، لأنه هو نفسـه يعتبر سلطان الليلة ، فى يـد كل منهم شمعة مضـاءة ، ثم يأتى أحـد الطلبة من حفظـة القرآن الكريـم . يبدأ بتـلاوة فاتحة الكتاب وسـورة الاخلاص (فى معظـم الأحوال) ، وبعد الصلاة على الرسول الكريم يرفع صوته متسائلاً :

* أين إخوان العريس .. أين أبناء عمه ؟ أين أصدقاؤه ؟ فيتقدم أولاً إخوان العريس . كل بـاسمه فيرفعون هديتهم كل على حـدة . وغالباً ما تكـون مقداراً معيناً من المال ، يصيح الشخص الذى يطلقون عليه اسم (البراح)

* اللهم مع فلان ابن فلان ، أخ مولاى السلطان أهدى كذا وكذا ..

ويعلن مقدار الهدية ، ثم يقول :

* سيرجع إليه إن شاء الله فى فرحه .

ثم يضع القدر المعين من المال فى الصينية ، ويغطيه ، ثم يتقدم الثانى والثالث والرابع وهكذا . كل حسب درجة قرابته من العريس أو درجته الاجتماعية فى البلدة ، ويستمر الحفل إلى قرب الفجر ..

بالطبع لا يخفى عنصر التضامن والتكافل الاجتماعى المتمثل فى تقديم الهدية المالية أو النقوط كما نعرفه فى المشرق .

* * *

الليلة الثالثة

ليلة الجمعة ، وهي ليلة الدخلة ، لأن العريس يدخل بعروسه فيها . يبدأ الحفل بعد صلاة العصر ، حيث يجتمع أصدقاء العريس وأقاربه ، ويُستدعى الحلاق ليحلق شعر العريس ويهيئه، أو يزينه ، وفى المغرب يطلقون لقب المزين على الحلاق تماماً كما يعرف فى مصر .

يبدأ الجوق الموسيقى فى انشاد الأناشيد الدينية والوطنية ثم ينصب مقعد صغير فوقه قطعة صغيرة من السجاد ، ووسامة ويجلس العريس على المقعد . بعد اتمام عملية الحلاقة يمضى إلى الحمام ، ثم يرجع العريس إلى الدار متوسطاً موكب الحفل .

بعد صلاة العشاء يجتمع المدعوون قرب دار العريس باستدعاء من صوت الطبالة ، ويستمر عزفهم كأنه دعوة للجميع ، بعد حضورهم كلهم يأتون بالعمرية التى سبق وصفها فى عرس طنجة الذى شهدته فى أول ليلة لى بالمغرب، يزينونها بالحرير الملون ، ثم يجعلونها فوق فرس أو بغلة ، ويقصد الركب إلى بيت العروس ، على الباب ينتظرهم الأب وعائلته وصحبه ، يرحبون بالزائرين ، يدخلون بالعمرية إلى باحة الدار ، يصبحون العروس التى تخرج

لتـدخل إليهـا وتجلس فيها . يحملـونها وسط الـزغـاريد ، والأنـاشيـد ، يشدونها إلى ظهر الفرس أو البغل شداً وثيقاً . ثـم يولون الأدبار قاصدين دار العريس . هنا يستقبلهم أهل العـريس ويدخلون العمريـة إلى حجرة العريس ، وترتفع الأكف بالدعاء للعروسين ، ويمضى كل إلى سبيله . صباح اليوم التالي . ضحى الجمعة . يبعث والد العروس إلى دار أبى العريس آنية كبيرة تشبه قارباً صغيراً مليئة بالكسكس . وفوقها خروف محشى ، مشوى ، وزبيب ، وبصل ، يتم استقبال الهدية بالترحيب . بعد صـلاة الجمعة التى يؤديها أفراد العائلتين معاً ، يمضـى الجميع إلى دار العريس بما فيهم صحبـه ، ويتناولون شيئـاً من طعام القصعة .

ونلاحظ المـنزلة الخـاصة التـي يحتـلها الطعـام فى الفرح المغربى ، ونظراً لتعدد لياليه ، وضخامة التكاليف ، يقل إقبال الشباب على الزواج ، وفى الفرحين اللذين أتيح لى حضورهما كان واضحاً مدى الانفاق الذى تكبده الأهل.

ما أوردتـه سابقاً ذكـره العلامة الحاج بن عيسى عبـد الكبير العيساوى فى كتابه عن أصيلة بين الماضى والحاضر ، وتحتفظ التقاليد حتى الآن بالعديد من التفاصيل التى ذكرها ، وتتشابه الخطوط العامة عند الأغنياء والفقراء ، الفارق فى المستوى الاجتماعى . ولكن الطقـوس واحدة ، فى أول ليلـة لوصـولى دعانى صديقى الأديب بهاء الطود إلى فرح لا أعرف أهله وصحبه ، فرح ثرى من أبناء الطبقة الجديدة التى أثـرت ثراءً شديداً فى فترة وجيـزة ، ويشاء القدر أن أفتتح رحلتى المغربية بعرس وأن أختتمها بعرس .

بعد أن أمضيت اسبـوعاً في أصيلة . كـان من الفروض أن أغادرهـا صباح الجمعـة ، ليلة الجمعـة كنت حريصـاً على حضور ليلـة عرس أخـرى ، تخص الصديق بهاء هذه المرة . فرح الشقيقة الصغرى لزوجته..

* * *

وصلت إلى مكان العـرس ، بيت الصديق بهاء ، هـذه المرة لم أكن بمفردى ، صحبنى الدكتـور حسن حنفى وزوجته وبعد وصـولنا قدم الـروائى العربى

الكبير الطيب صالح ، والدكتور محمد ابراهيم الشوش . ولطفى الخولى ، وعدد من الصحفيين الذين كانوا يتابعون مهرجان أصيلة ، والوزير محمد بن عيسى، وزير ثقافة المغرب . جاء كأحد أفراد عائلة العروس ، فهو شقيق بهاء الطود .

البيت من ثلاثة طوابق ، منزل أسرة متوسطة ، عندما وصلنا كان مغطى بالمصابيح الكهربائية ، ومن الطابق الأسفل تعلو أنغام الموسيقى الأندلسية، لم تكن موشحات ، إنما أنغام سريعة مختلفة ربما تنتمى إلى هذه الموسيقى التى يعزفها الطبالة على باب العريس، كان الطابق الأول مخصصاً للنساء . لمحت العروس داخل (العمارية) المحمولة فوق الأعناق . كانوا يطوفون بها داخل الحجرات الفسيحة . فى الطابقين الثانى والثالث كان الرجال يجلسون إلى مناضد مستديرة ، كان الجو حميماً ، سرعان ما شعرت بالألفة مع الحاضرين ، وكأنى أحد أفراد العائلة ، عائلة العروس أو العريس ، كان معظم الحاضرين ممن لهم صلة أو علاقة بالأدب . هكذا دارت المناقشات حول الأدب العربى وكأننا فى منتدى أدبى .

تعرفت إلى مصرى مقيم فى طنجة ، أحد ثلاثة أو أربعة مصريين استقروا نهائياً فى طنجة ، محمد عبد القادر خليل ، يعمل فى التعليم ويمتلك مدرسة ثانوية خاصة ، متزوج من مغربية ومستقر هنا . سألته :

ـ هل مررت بكل هذه الطقوس ؟

ضحك قائلا :

ـ بالضبط ..

قلت :

ـ وكل هذه التكاليف ؟

قال مبتسماً :

ـ الأفراح هنا مكلفة جداً .. خراب بيوت !

محمد عبد القادر سعيد بحياته هنا . إنه متخصص فى اللغة المصرية القديمة، ومن أغرب ما قال لى أن هناك عناصر شبه عديدة بين البربر فى المغرب والمصريين القدماء ، وخاصة فى اللغة . ومن أغرب ما قاله لى أن كلمة (كوسكوس) وهى الأكلة الوطنية فى شمال إفريقيا كله هى كلمة فرعونية أصلاً ، تعنى القمح المكسر .

فوجئنا بالعروسين يصعدان إلى السطح الذى كنا نجلس فوقه لتحية المدعوين ، مرا بالجميع وفى بساطة صافحوهم ، وكانت هناك سيدة تمشى خلفهما تطلق صوتاً غريباً يشبه النداء الممدود فى وادى فسيح ، استقر العروسان إلى منضدة مستديرة ، وذهبنا لتحيتهما ، قال لى العريس رشيد أمحجور . انه تعرف الىّ من قبل فى باريس ، خلال ندوة أقامها معهد العالم العربى عن الرواية وأن آرائى التى شاركت من خلالها فى النقاش كانت مهمة جداً بالنسبة له ، جلست بجوارهما وتحولت القعدة إلى حديث فى الثقافة ، رشيد متخصص فى المسرح ، ويزداد شعورى بالألفة والحميمية ، خاصة عندما بدأ الجوق الأندلسى يصدح بالموسيقى والموشحات الأندلسية، ذهبت إلى قائد الجوق ، وطلبت منه الاستماع إلى موشح جميل أذكر من كلماته ..

أجمل ما فى القدود الوجوه
وأجمل ما فى الوجوه العيون
وأجمل ما فى العيون الفتور ..

أومأ الرجل مسروراً ، وعدنى بتلبية الطلب ، وأثناء تناولنا العشاء المغربى الفاخر ، كان يشير إلىّ بما يعنى أن المقطع قادم .

كان الطعام ذو النكهة الأسرية الخاصة مكوناً من عدة أصناف ، مقبلات، ثم فطيرة البصطيلة المدججة باللوز ثم الخروف المشوى المرصع بالزيتون واللوز والفستق ، ثم الدجاج الذى اتخذ لوناً أخضر لغزارة زيت الزيتون المستخدم فى طهيه ، ثم الحلويات والشاى ،

خلال توالى الأطباق ، أشار الادريسى رئيس الجوق الموسيقى بما يعنى أن المقطع الذى طلبته قادم ، ولم تمض إلا دقائق معدودات ، وكان الجميع ينشدون

«أجمل ما فى القدود الوجوه ..»

كان خاتمة نوبة موسيقية طويلة ، وكانت الأنغام الأندلسية العتيقة الأصيلة تصدح فى الفضاء الطنجاوى ، الذى يجمع بين الجبل والبحر .

حوالى الثالثة صباحاً ودعنا أهل العروسين ، وكان العريس رشيد فى مقدمة المودعين ، حتى اننى داعبته قائلاً :

ـ اذهب إلى عروسك .. أما مناقشات الثقافة فلها وقت فيما بعد ..

فى الليل استدارت السيارة متجهة إلى أصيلة ، وكنت أشعر أننى شاركت حقاً فى عرس ، تعمق عندى الإحساس بأنني واحد من أهله ، كان أكثر دفئاً وإنسانية، ربما لأننى لم أكن غريبا فيه .

* * *

الليل غميق ، الطريق محاذى للمحيط الأعظم ، المحيط الأطلنطى . السماء غزيرة بالنجوم ، ومجرة درب التبانة تبدو أوضح ، كنت راغباً فى الوقوف على مواقع النجوم والفارق بينها هنا وبين سماء مصر فى المشرق ، كنت أمعن النظر عبر العتمة أيضاً إلى مياه المحيط الجبارة . إلى هذه الضفاف العظمى التى ما جئت هذه المرة إلا للوقوف عندها .

متتاليات مغربية

أصـــيلة ..

أغسطس ١٩٩١

أصـيلة ..

التطلع إلى المحيط بحذر .

مواجهة اللامدى ، اللانهائى . بالحرص الإنسانى الذى لا يمنع من الخروج إليـه ، ومواجهتـه . والايغال فيـه ، الاسوار الحصينـة التى يحرسها الاحيـاء والموتى ، البوابات المؤدية ، منها ما يفضى إلى المحيط الشاسع . ومنها ما يؤدى إلى الخلاء الذى كان فى الماضى موحشاً ، قد يأتى منه الخطر ، بوابات تؤدى الى الفضاء الفسيح . من جانب ، ومن ناحية اخرى إلى الأزقة الضيقة ، إلى الزنقات المتصلـة ، المتقـاطعة ، تبـدو أحيـانـاً وكأنها وصلت إلى النهـايـة ، ولكن تأتى الانفراجـة عند زاويـة او حافة غير متـوقعة . غير معـروفة خـاصة لمن يجهل المكان. أمـا أبواب البيـوت فتظل على الطرق وكـأنها تلخيص للحذر الـذى كان يميز الطابع العـام لتكوين المدينة فى الزمن القديم وحتى وقت قـريب . فالمدينة تقع عند الحافة ، عند آخر حد البر ، البر الذى بلغه الاسلام وتوقف عنده القائد العربى عقبة بن نافع ليشهد الله أنه لو كان ثمة أرض اخرى لما توقف عن الفتح والغزو، ناشراً الإسلام .

كيف تطلع عقبة إلى المحيط الأعظم ؟ إلى بحر الظلمات كما كان يعرف قديماً قبل إكتشاف الامريكيتين حديثاً ؟

بل أين توقف عقبة بالضبط ؟

في أصيلة ؟ في طنجة ؟ فى المهدية ؟ فى الـرباط ؟ ، لا أدرى على وجه التحديد ، لكن منذ وصوله وصـار قدر بـلاد آخر الحد . آخر البر أن تدفع الخطر المتربص بـالديـار الاسلاميـة ، خاصــة بعـد أن جرى فى التـاريخ ما جـرى ، وسقطت الأنـدلس، واتصلـت الحروب الصليبيــة فى المغـرب بعـد تــوقفهـا فى المشرق واستمرت حتى العصر الحديث .

مرة الأسبان ، ومرة البرتغال ، ومرات أخرى أمم شتى من الطرف الآخر . وعند آخـر حد البر . رابط رجال القبائل العـربية ، والبربريــة . وزادوا حقاً عن الاسلام .

كانت أشرعة السفن المعادية تبدو دائماً قادمة من هذا الأفق ، أيضاً قراصنة البحر ، وكفة الأخطار ، لهذا لا تلتقى المدن القديمة مباشرة بالمحيط ، على الرغم من أنها تحاذيه تمامـاً . يفصلها عنه ســور ، الأمواج لا تهدأ عن الاصطـدام به ليلاً ونهاراً ، تـاركة آثـاراً لا تراها العين مبـاشرة ، إنما تبدو مع مـرور الوقت والأزمنة ، على الأسوار أبـراج المراقبة ، وأربطة المجاهـدين . وأيضاً .. أضرحة الصـالحين .

(أصيلة) المنسوخة شوارعها وزنقاتها كـالدانتيل ، يوحد حضورها اللون الأبيض للبيـوت ، والأزرق للنوافـذ ، وموجـات البحـر التى تتخلل شوارعهـا متمثلة فى هذا التصميم الفريد الذى وضعه فنان من ابنائها محمد المليحى .

أصيلة التى أمضيت ساعات طويلـة فوق أسوارها ، وعلى شواطئها ، أرقب لانهائية المحيط . وابديته ، واستعيد ما كان . واستدعى ما سيأتى ..

* * *

اللقاء الأول

سمعت اسم أصيلـة لأول مرة فى بـدايــة الستينيات ، كـان ذلك عام واحـد وستين وتسعمائة وألف ، وربما .. اثنين وستين ، لا تسعفنى الـذاكرة الآن على التحديـد ، فى ندوة الـروائى الكبير نجيب محفوظ التى كـانت تعقد فى كـازينو

الاوبرا التقيت بالصديق جميل عطية ، كان عائداً لتوه من المغرب ، حيث كان يعمل بالتدريس ، وحدثنا عن مدينة جميلة تقع على حافة المحيط اسمها أصيلة ، ولسنوات تالية كان الاسم يطرق سمعى أثناء حديث جميل عن أيامه هناك . وكان ثمة شىء ما يشدنى إليه . ولكن لم يخطر ببالى اننى يوماً سوف أزور المدينة . او امضى فيها بعضاً من أيامى .

فى رحلتى المغربية الأولى . وفى أول أيام عام ألف وتسعمائة وثمانين ، خرجت بالسيارة صباحاً وآثار الاحتفال بالعام الجديد تغطى مدينة طنجة ، قاصداً مدينة الرباط ، بعد مرحلة يسيرة من الطريق قرأت اللافتة «أصيلة»

إنها المدينة التى حدثنا عنها جميل ، تطلعت إلى مبانيها ، مرقت بها مروقاً وان بقى فى الذاكرة شىء ما منها .

فيما تلى ذلك قرأت كثيراً عن أصيلة من خلال مهرجانها الثقافى الذى بدأ عام ألف وتسعمائة وثمانية وسبعين ، لأول مرة ، دعيت إليه مرتين من قبل، ولكننى لم أستطع الحضور لظروف شتى تتعلق بكثافة عملى وازدحام الوقت.

ها أنذا أطأ أرض أصيلة . لا اجيئ عابرا بسرعة ، إنما ستمتد إقامتى بضعة أيام ربما تمكننى من التعرف جيداً على المدينة ، وتأمل حافة البر المطل على المحيط الأعظم فى أوقات مختلفة ، وهذا هو الدافع الحقيقى والأول لقدومى إلى تلك البقعة من العالم ، دافع يتصل مباشرة بهاتف المغيب ، عملى الروائى الذى بدأت كتابته منذ حوالى عامين .

ها أنذا فى أصيلة ، ولأنني أعرف عن خلال رحلتى المغربية الأولى والثانية ان هناك تنوعاً هائلاً فى المدن المغربية بحيث يمكن القول انه ما من واحدة تشبه الأخرى ، وهذا التنوع نتاج ظروف تاريخية وجغرافية وسياسية متداخلة ، نزلت إلى المدينة القديمة أو القصبة كما تعرف فى بلدان الشمال الافريقى دفعت بنفسى عبر شوارعها الضيقة المتوالية ، المتصلة على غير هدى ، لم أخش أن

أفقد طـريقى . فكل الطرق تؤدى إلى بعضـهـا ، وفى لحظة ما سأجـد نفسى عند نقطة البـداية ، كنت أتأمل منبهـراً اللون الأبيض للبيوت ، والنـوافذ الـزرقاء . غميقة الزرقة ، السماء القصية ، والبحر القريب ، البحر الذى لا يمكن رؤيته من شوارع أصيلة ولكن حضوره يستمر طاغياً ، فياضاً ، أينما وليت وجهى ، ربما لعمق الادراك بحضوره اللا نهائي على بعد خطوات ، ربما لرائحة اليود القوية أحياناً . ربما لوشيش الأمواج عند إصطـدامها بالصخور . أثناء قطعى الطريق من طنجة إلى أصيلـة ، هبت الريـاح بقوة . ولاحت من أعماق المحيط سحـابات دانية من سطحه . غمامات متحركة ، أو أمواج من الضباب ، لا أدرى توصيف هذه الظاهرة علمياً ، لكنها سرعان ما تقدمت بسرعة إلى البر ، تجاوزت الشاطئ إلى الطريق ، إلى الجانب الآخر . ضاق مدى الرؤية ، وتوارى قرص الشمس ، ان مويجات الضبـاب التى تكاد الأيـدى أن تمسك بها تلف البيـوت أيضاً ، وربما كانت أقسى فى الشتاء . وصلت إلى حـافة المدينة ، إلى السور المطل على المحيط ، ثمة درجات حجرية قديمة تؤدى إلى شرفة على هيئة لسان مستطيل شبه مثلث، تطل على المحيط ، بعض من أهـالى المدينـة يجلسـون على الأسـوار الحجـريـة العـريضة ، وجـوههم متجهـة إلى الماء الأعظم ، بعضهم يتأمل ، وفى مـلامحه ترمق آثـار حقب طويلة من التـوقع ، والحذر ، والأمل . قلة يتحـدثون ، بعض السائحين الأجانب يتطلعون مرة إلى البر ، ومـرة إلى البحر ، وما بين طلة وطلة يلتقطون بعض الصـور . جلست وحيدا . امعنت النظر إلى الشـاطئ الصخرى الـوعر الممتـد بأسفل ، كثيرون يسبحـون فى الخلجـان الصغيرة ، كان المكـان مزدحماً ، وإلى جانب الدرج الحجرى ضريح شيخ مهيب ، بسيط معاً ، جدرانه وقبابه من لـونين ، أبيض وأخضر ، كنت متوحداً بمضمونى ، مـدركاً لغربتى هنا ونأيى ، ولكننى كنت تواقاً إلى معرفة المدينة فى الظاهر والباطن ، لكل مدينة سطح يمر بـه العابرون والغرباء وأبنـاء السبيل ، وأعماق لا يمكن ادراكها إلا من خلال زمن المكـان واسراره ، والزمن يمكن تحصيلـه من التاريخ المدون او

المعروف ، أما الأسرار فـلا يغص بها إلا البشر الذين ولدوا وعـاشوا هنا ، وإلى هؤلاء كنت اسعى، لكن قبل سعيي هذا لا بد من ادراك تاريخ المكان .

عبر الأزمنة والعصور ..

يقول المؤرخ الناصرى فى كتابه الاستقصا انه لما توفى مولانا ادريس الأزهر رضى الله عنـه ترك اثنى عشر ولداً اكبرهم سيدى محمـد ، فخلف أباه فى ملك المغرب ، ووزع اقاليم المغـرب على اخوته بايعاز من جدتـه السيدة كنزة رضـى الله عنها فخرج على سيدى محمد الخليفة اخوه سيدى عيسى . فقاتله وانتصر عليه ، ثم امـره بقتال اخيهما سيدى القـاسم فقاتله وانتصر عليـه كذلك ، فلما هزم سيـدى القاسم اعزل الامارة وبنى لـه ولعائلته داراً قرب أصيـلا . صار يتعبد فيها إلى ان أتاه اليقين . وقبره معروف بين طنجة واصيلا يزار .

وبقيت أصيلاً أيام ملك المولى محمد بن المولى ادريس تحت امره المولى يحيى ابن المولى ادريس الازهر ، وكانت عـاصمة اياله التى كانت تضم أيضـاً مدينة العرائش ومدينة البصرة التى كانت بين اصيلا وطنجة .

هكذا يبدأ العـلامة الحاج بن عيسى عبد الكبير العيساوى كتـابه عن اصيلة الماضى والحاضر . ينقل عن مؤرخين عرب وأجـانب ، ومنها يتضح حساسية الموقع الذى احتلته أصيلـة ، موقع المقدمة ، كالمخفر الامـامى للعالم الاسلامي مع سائر المدن المغـربية ، تاريخ طـويل ، لم يخل من الحوار يومـاً وان تنوعت أشكالـه، من اقتتال جـرى منذ فتح المدينـة على ايدى الجيش الاسـلامى سنة أربعة وتسعين هجـرية (٧١٦ ميلاديـة) ، كان يحكمها وقتئـذ الحاكم القوطى «كيلا» .

كانت أصيلة تسمى زيليس ، وهى كلمة بـربرية تعنى «الجميلة» ، عاصرت قرطاجنة . وربما كان موقعها قريباً من موقع المدينة القديمة الآن ، لأن أصيلة الحالية بنيت فى عـام مائتين وتسعة وعشرين هجرية (٨٨٤م) وكـانت أرضـها ملكاً لمدينة لواته ، وعن سبب بنائهـا يقول البكرى فى كتابه المسـالك والممالك ان

النورمانديين (ويسميهم المجوس) حاولوا الرسو بمينائها مرتين للبحث عن كنوز قديمة ، فسمع البربر بذلك ، وسارعت قبيلة كتامة إلى بناء رباط جعلت منه سوقاً عمومية تنعقد ثلاث مرات فى السنة ، فقصدها الناس من سائر الامصار فخيموا بها وبنوا شيئاً فشيئاً حتى اصبحت مدينة معمورة.

يقول عبد الوهاب ابن منصور مؤرخ المملكة المغربية المعاصر ، في مقدمة كتاب اعدته جمعية المحيط الثقافية عن أصيلة ان المدينة صارت بعد ذلك من مراكز الصراع بين المروانيين خلفاء قرطبة وبين العبيديين ائمة افريقية على حكم المغرب. كما انها صارت واحدة من المراكز التى التجأ إليها آخر الأدارسة عندما ضيق موسى بن ابى العافية بهم وامعن فى التنكيل بهم ومن حسن الحظ أن التاريخ حفظ وثائق ترجع إلى هذا العهد .

عاشت أصيلة جميع الاحداث الكبرى التى عرفها العصرين المرابطى والموحدى ، وذلك لقربها من ملتقى البحرين ، المحيط الأعظم والبحر الأبيض ، حيث مدينة طنجة ومدينة سبتة الاستراتجيتين . فى عام ستمائة وتسعة وتسعين هجرية (١٢١٢ ميلادية) كادت أصيلة ان تخلو من سكانها بعد هزيمة الجيش المغربى بقيادة الخليفة محمد الناصر الموحدى أمام الجيش القشتالى الذى كان يقوده الفونسو الثامن . وخشى الفقيه أبو القاسم صاحب سبتة عاقبة خلوها من جيش ومن اهلها ، فأرسل إليها اسطوله وهدم جنوده اسوارها حتى لا يستولى عليها الفرنجة ويتحصنون بها ، ولكن إسم أصيلة لم يهن ولم يختف ، إذ يبرز خلال الأحداث التى وقعت بعد مقتل السلطان يوسف ابن يعقوب المدينى عام سبعمائة وستة هجرية ، إلا أن تهديم أسوارها لم يكن عملاً صائباً ، إذ سهل ذلك للبرتغاليين احتلالها أثناء هجومهم الواسع على المغرب عام ثمانمائة واثنين وسبعين هجرية ، استولى عليها البرتغاليون بعد معركة شرسة ، دارت داخل الدروب والازقة ، وفى المساجد ، وبلغ عدد الشهداء

الفين ، والاسرى من المسلمين خمســة آلاف، وتلك أرقــام كبيرة جداً بمقــاييس العصر.

هذا القتال ، وذلك الزود والاستشهــاد ، جرى فى نفس موقع المدينة الحالى ، حيث القصبــة والزنقات والــدروب التى تؤدى مــن اللحظات الآنية إلى الــزمن النـــائى بمــواجعه ، وآلامه . وهــذا ما كـنت احــاول ان أصغى إليه ، وان أراه فى المكان . ليس فى أصيلة فقط ولكن فى كل موضـع نـزلته ، أو حللت به ، العلاقة بين ما جرى فى الزمان المندثر والمكان الذى لا يتغير .

حول البرتغاليون الجامع الكبير إلى كنيسة وتحولت أصيلة إلى ميناء نشيط ترد عليه بضــائع مرسيليا والبندقية وجنـوده ، وخلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر تحولـت أصيلة إلى قلعة محصنــة . وابراج تطل منهــا المدافع ، وأصبحت قاعدة للهجمات البرتغـالية على المناطق المجاورة ، وعلى مقـربة منها جرت معركة كبرى تعد من أشهـر المعارك فى تاريخ المغرب فى العصر الوسيط ، بدأت عندما قاد ملك البرتغــال سباستيان الأول جيشاً من عشرين ألف مقاتل ، انطلق من أصيلة فى جمادى الأولى عام تسعمائة وستة وثمانين (يوليو ١٥٧٨) أى بعد الغـزو العثمانى لمصر بحــوالى ستين عامــاً . وبدأ التقـدم صوب القصر الكبير ، اعترضه الجيش المغـربى يوم ٤ اغسطس عند وادى المخــازن وسحقه سحقاً ، وقتل ملك البرتغــال وحلفائه من الخونــة . بعد هــذا النصر الساحق لم يسع أسبــانيا التى اتحدت مع البرتغــال إلا أن تسلم أصيلة إلى السلطــان احمد المنصــور السعـــدى فى ذى القعـدة عـــام تسعمائة وسبعــة وتسعين (١٥٨٩ ميلادية) عرفت أصيلة بعد ذلك أحداثاً هامة . منها هجوم الاسطول النمساوى عليها سنــة ١٨٢٩ ميلاديــة ، وهجوم اسطـول الاسباني عليهــا سنة ١٨٦٠ خلال حرب تطـوان ، كما تردد اسمها كثيراً فى بداية القـرن الحالى خلال ثورة احمد الريسونى ، وقد استطاع ان يستـولى عليها عام ١٩٠٦ ، وأصبحت مقراً لقيادته ، وبنى فيها داراً فخمة واسعة تواجه الحيط ، لايفصلها عنه إلا السور ،

هذه الدار حولتها جمعية المحيط الثقافية إلى قصر للثقافة الآن ، يصبح مركزاً نشطاً خلال مهرجان أصيلة السنوى ، وفى المدينة التى شهدت هذه الصراعات الدموية وتغير الأحوال من نقيض إلى نقيض . فى نفس المكان تقوم الندوات ويتم الحوار بين المسلمين والمسيحيين ، بين الافارقة والأوروبين ، لقد حل الحوار محل الصراع ، هذا التاريخ المزدحم بالتفاصيل ، لا يقابله ثراء فى المراجع المكتوبة بالعربية ، وخلال بحثى فى المكتبات لم أعثر إلا على مواد ضئيلة جدا .

يقول الأستاذ عبد الوهاب بن منصور ، إنه اطلع فى المكتبات الوطنية البرتغالية ، والأسبانية على مجاميع مطبوعة تضم مئات الوثائق تلقى أضواء على أحوال أصيلة السياسية والاجتماعية والاقتصادية خلال مراحل الصراع ، ويعتبر أن نقل هذه الوثائق إلى اللغة العربية من أهم واجبات المثقفين من أبناء أصيلة .

محاولة للتواصل ..

كنت أظن أن اقترابى سيبدأ من ناحية المحيط ، ولكن قادنى الصديق عبد الكريم البسيرى إلى جهة البر لنبدأ منها ونوغل فى المدينة ، لننتهى إلى البحر .

هكذا خرجنا معاً من فندق الخيمة مقر إقامتنا ، على مقربة منه شاطئ المحيط ، ويومياً فى الصباح الباكر كنت اعبر الطريق السريعة التى تربط طنجة بالرباط ، ومدن اخرى ، وابدأ مشيى بحذاء المحيط متأملاً امواجه الصباحية ، ولون الضوء عند بدء طلوع الشمس ، وملمس هبوب الرياح ، أو النسمات .

ما من لحظة تشبه الأخرى قرب المحيط ، هناك أماكن تثير التأمل ، وتدفع بى صوب حالة خاصة اتجاوز فيها اللحظة الآنية . منها شاطئ البحر ، وتخوم الصحراء ، والوقوف عند حد البحر أمام المحيط .

ما الفرق بين البحر والمحيط ؟

ما الفرق بين غروب الشمس فى مياه البحـر الأبيض المتوسـط ، وقد راقبتها مئات المرات أثناء مضيها بقرصها البرتقالى فى الخضم الأزرق الغميق؟

وباختفائهـا توقع على دورة مدركة لنـا من دورات الزمن ، انها لا تمضى، انما هى اعمارنا التى تمضى ، تنسل يوماً بعد يوم ، وغروباً ، بعد غروب ، وما الشروق إلا إشارة إلى الغروب ..

مـا الفرق بين غـروب الشمس فى البحـر . ومغيبهـا فى المحيط ؟ أليس الكل متصلاً ؟ والأمواج كل منها يؤدى إلى الآخر ؟

لا .. المغيب فى المحيط جد مختلف ، جد مغـاير . ليس لأن المدى أبعد ، وليس لأن الادراك بشسوع المسافة أطول .

لماذا إذن؟. لماذا تختلف الوقفـة عند المحيط ؟ لماذا تبدو مغايـرة عن البحر؟ ، على مقربة تقع طنجـة قرب ملتقى البحرين ، الابيض والمحيط الأطلنطى ، ومن نقطة معينة يمكن رؤية الاثنين معاً ، فاذا وليت وجهك هنا .. سترى مياه البحر الأبيض ، واذا تطلعت جهـة الغـرب فتلك ميـاه المحيط ، أما فى لحظـات صفـار الطقس فيمكن رؤيـــة جبل طـــارق ، الميـــاه هى ، والأمـــواج هـــى هى ، ولكن الإحساس مختلف ، هذا بحر ، وذاك محيط .

ربما لـوقع الكلمــة نفسهـا ، فالمحيط من الاحـاطـة ، أى الاطبـاق على كل الجهات، والمحيط عنـد الجغرافيين العرب القدمـاء ، كان محيطاً بالـدنيا كلها ، وهنـاك عند نقطـة قصية منـه يقع جبل قاف الـذى يتردد اسمه فى الأســاطير البعيدة القديمة كناية عن المكان المستحيل إدراكه .

ما زال ادراكى لاختلاف الـوقفة على حافة المحيط يـزداد جلاء ، كذا البحث عن الأسباب .

ربما تترسب داخلى آثار النظرة القديمة قبـل الوصول الى الضفاف الأخرى البعيدة الآن ، التى لم تكـن مدركة وقتئـذ . عندمـا كان الانســان يقف فى فجر

البشرية ويتطلع إلى قرص الشمس إذ يغرق فى مياه البحر وهلع يتملكه خشية الا ترجع مرة اخرى فتدوم العتمة إلى ما لا نهاية .

ربما ..

هكذا حاولت أيضاً التواصل مع لحظات المغيب ، شاهدتها من أصيلة . من طنجة . من الرباط . صحبنى صديق عزيز من العراق فى سيارته بعد أن وقفنا طويلاً عند ضريح المغفور له محمد الخامس .

تجاوزنا باب الوداية ، والقصبة ، كان الطريق يصعد بنا ، لم أكن افصحت لصاحبى عن نيتى ، عن رغبتى فى الوقوف على لحظة نزول الشمس عند المغيب. أن أقف على موضع غروبها ، هذا الموضع النسبى ، فتلك الشمس قد غربت فى موطنى القاهرى منذ ثلاث ساعات ، وفى تونس منذ ساعتين ، كذا قابس ، وجربة ، وسائر المدن الواقعة إلى الشرق ، فرق ساعة أو دقائق ، هنا أو هناك ، وهى فى نفس تلك اللحظة تطلع على قوم آخرين ، الأمر نسبى ولو أردت رؤية الغروب مرة اخرى فى عين اللحظة لاستحال ذلك ، لن يتحقق هذا إذا اتجهت شرقاً . فقد اكتمل الغروب منذ زمن ، ولن أرى ذلك إذا اتجهت غرباً فهناك غروب سيبدأ وربما لن ألحقه .

لكل مكان غروبه .

ولكل إنسان إمكانية الإطلاع على مغيب واحد لا غير ، فى المكان عينه ، إنه غروبه هو ..

لذلك يستحيل التواصل مع تلك اللحظة ، يستمر الركض تجاهها ، حتى إذا نفذت الطاقة وقع الكف واستمرت هى . واذا كان العجز عن بلوغ الادراك ادراك كما يقول شيوخنا القدام من المتصوفة ، فهل يعنى ذلك الرضا بالحال ؟

فلأحاول التواصل مع المكان . لعلىّ بالغ سره ، إذا كنت مازلت ألهث فى اثر لحظة اعى تماماً اننى لن احتويها أبداً ..

الجوهر الخفى ..

المدن ليست المبانى ، والشوارع ، والمنحنيات ، والعمارة الماثلة . إنما هى أيضاً الحكايات المتوارثة ، والأمثال المضروبة . والذكريات التى ينسخ بعضها بعضاً .

مضيت بصحبة عبد الكريم ابن المدينة ، ورأيت فى سعيه سعي عندما اصحب نفراً احبهم إلى القاهرة القديمة فأرغب فى رؤيتهم كل التفاصيل ، وان أكشف لهم ما أعرفه .

للمدينة أبواب رئيسية ، منها باب القصبة الكبير ، وهذا عرفته ، إذ اجتازه يومياً منذ وصولى فى الطريق إلى المركز الثقافى الحديث الذى تقام به الندوات ، وباب البحر ، يواجه المحيط ، وباب الحمُر.

السور من الحجر الذى يميل لونه إلى صفرة غامقة ، عريض ، بناه البرتغاليون بعد استيلائهم على المدينة ، فى كل ركن منه يوجد ولى صالح يرقد ، كأنه يحرس المدينة مسئول عن تأمينها من جهته .

مضينا بحذاء السور حيث تمتد المقاهى السياحية ، ويشتد زحام الوافدين من أماكن قصية . مررنا بضريح الامام الاصيلى ، أكبر الأولياء وأشهرهم . انه ضريح رمزى ، لأن الإمام مدفون فى الأندلس .

عبرنا الطريق الخاص بالأجانب ، اتجهنا الى ضريح سيدى العربى ، المكان بسيط ، ثمة غرف متجاورة يمكن تأجيرها للاقامة على مقربة من الشيخ الذى يرقد فى تربة بسيطة تعلوها قبة بيضاء . البناء قديم يذكرنى بإسلوب المعمارى العظيم حسن فتحى . اللون الأبيض للحجارة ، والأخضر للأبواب والنوافذ وكساء الضريح ، الأبيض والأخضر هذا ما يوحد أرجاء المغرب فى الذاكرة . كذا الأبيض والأزرق .

على الأرض آثار أضحية . دماء جافة تختلف بعد ذبح الخرفان تقريباً وتوزيع لحومها على الفقراء كان المكان فى العصور الوسطى مكاناً للمجانين ،

كان مستشفى للأمراض العقلية وكان المرضى يربطون بقيود من حديد مثبتة إلى الجدران ، ويضربون بالسياط أحياناً.

يؤلمنى الوقوف فى أماكن تراكم الألم الإنسانى ، فى مدينة شوفشاون المغربية المعلقة عند قمتى جبل الريف ، رأيت فى قلعتها سجناً قديماً . واذهلنى التشابه بينه وبين سجن مملوكى قديم مازال قائماً داخل سور القاهرة بجوار باب الفتوح ، نفس الأدوات الحديدية. بعضها مثبت إلى الجدار للاحاطة بمعصمى اليد فقط ، وبعضها يتدلى من السقف بواسطة سلاسل . بحيث يظل السجين معلقاً طوال الوقت ، واقفاً ، وهؤلاء أفضل وضعاً من سجناء آخرين تحاط رقابهم بقيود حديدية متصلة بالجدار قرب الأرض ، فيرقدون متمددين موثقى الرقاب والأيدى ، لا يقدرون على الحراك ، أو التلفت هنا أو هناك .

حقاً ما أبشع وسائل التعذيب ، وما أشد معاناة الإنسان وما أعظم قدرته على التكيف ، وقد خبرت ذلك بنفسى! فى أصيلة لم تهدأ الحروب طوال احتلال البرتغاليين لها ، ومن يقرأ تاريخ هذه الفترة يقف على التاريخ المجيد العظيم لقبائل المغرب من بربر وعرب فى الدفاع عن الإسلام وحمايته خاصة بعد سقوط دولته فى الأندلس .

يصف المؤرخ البرتغالى (ادولفو خيفارا) الذى عاصر الاحتلال البرتغالى لأصيلة فى القرنين الخامس والسادس عشر بعضا مما كان يجرى. إن الدوريات البرتغالية كانت تخرج من المدينة وتجول فى الأماكن القريبة بحثاً عن بعض الأهالى من المغاربة . وعندئذ يأسرونهم ويأتون بهم إلى حاكم المدينة أو نائبه حيث يستجوبهم بنفسه عن الحالة الداخلية للمغرب ، عن نية السلطان ، هل سيهاجم أصيلة المحتلة هذه السنة ؟. ماذا عن الجيش المغربى وأحواله ؟

ويقول المؤرخ ان الاستجواب يكون مصحوباً بالتعذيب ، ويضغطون عليهم لاعتناق المسيحية ، شريطة منحهم الحقوق المخولة لرعاياهم داخل المدينة.

نلاحظ هنـا الفرق بين طرفين ، فلـم يحدث أن قرأنا لا فى مصـادرنا ولا فى مصادر الغرب عن كنيسـة تحولت إلى مسجد بعد الفتح . منذ أن استـن سيدنا عمر سنـة ومبدأ ، عندما حـان وقت الصلاة وهو فى القـدس ، فصلى بعيداً عن كنيسة القيامة .

أمـا أحكام غير المسلمين فكـانت جليـة واضحة ، ولكن لم يحدث أن عـذب مسيحى أو يهودى لاعتناق الإسـلام ، وربما كانت أراضى الأنـدلس والمغرب من أوضح الميـادين التى يمكن فيهـا اجراء المقـارنـة بين مفهومين ومـوقفين مختلفين .

يقول ادولفو خيفارا ، إن من يمتنع عن إعتناق المسيحية كانوا يزجون به فى مطامير وأنفاق تحت الأرض . أو يبيعونهم فى سوق الرقيق . وكثيراً ما كان جند السلطان يهاجمون المدينة بهدف تحرير الأسرى .

تتشابه أماكن تقييد الحريـة ، سواء فى الزمن القديم أو الحديث . تماماً كما تتشابه بنايات أجهزة الأمن ، سواء كانت المخابرات الروسية فى موسكو (كى. جى. ب) أو وزارة الداخليـة الفرنسيـة ، أو المصرية ، أو الأردنيـة ، أو قلعة من القرون الوسطى كان يمارس فيها التعذيب .

* * *

نطـوف بمقـام سيـدى العـربى ، بعض المواطنين يتمـددون فـوق الأرض المجاورة للضريح ، بعضـهم مغمض العينين ، ربما يغط فى نعاس عميق ، وربما يغرق فى همومـه ، ومحاولته التماس العون من الموتى، بعـد أن شح العون من الأحياء. للمقـام شيخة ، سيـدة متقدمـة فى العمر ، رحبت بنـا مبتسمة ، ولكن عندما استأذنت لتصويرها ، أبت بشدة ، قالت ..

ـ عمرى ما تصورت .

نفارق الضريح ، نعود إلى المشى بحذاء سور المدينة ، نجتاز الباب المؤدى إلى داخلها ، هكذا ندخلها من ناحية البحر ، يحدثنى عبد الكريم عن الزوايا المباركة

بأصيلة ، كافة الزوايا تقع داخل المدينة ، زاوية سيدى مبارك . زاوية القادرية ، زاوية الدرقاوية ، زاوية سيدى على بن حمدوش ، زاوية سيدى بن عيسى .

الاضرحة تقع فى الأركان ، على مقربة من الأبواب ، أما ضريح لا لا منانة فيواجه المحيط ، يقع عليه ، ولا لا تعنى السيدة .

الزوايا والأضرحة ، بمثابة المراكز الروحية التى تحفظ اتزان أصيلة ، علامة الوصل ما بين الأول والآخر ، بين ما كان وما يكون وما هو كائن . ملاذ الضعفاء وأبناء السبيل ، والغرباء مثلى ، بالأمس عندما كنت أتجول فى هذه الأزقة الجميلة ، النظيفة ، كنت أتطلع إلى أبواب البيوت ، اتمنى أن الج أحداها ، أن أتعرف على سكانها ، ولكن استحال ذلك ، فلا الاقدام ممكن وقوعه من جانبى ولا الدعوة لاحت من جانبهم ، فما أنا إلا غريب ، وعندما تملكنى التعب دخلت المسجد الكبير . وأمضيت وقتا ملتفا بظلاله وأريجه .

تتصل زنقات القصبة ، كل منها يؤدى إلى الآخر ، مثل الشرايين والأوردة . الواجهات بيضاء والنوافذ زرقاء ، الخطوط تلقائية ، وبعض الأبنية توشك أحجارها أن تصير همساً ، الجمال مصادره بسيطة ، أخاذة . تتساوى فيه البيوت الفقيرة ، أو تلك التى اشتراها أثرياء أو بعض الفنانين القادرين وبدأوا يجرون عليها تعديلات تستهدف تحديثها من الداخل ، مع تجديدها بما يتلاءم مع الإطار العام للمدينة من الخارج ، وللذوق المعماري فى المغرب شأن عظيم ، لا يمكن الخروج عنه ، ولا يرجع هذا إلى صرامة قانون مكتوب ، بقدر ما يعود إلى التزام داخلى من الناس ، التزام تكفل الثقافة المتوارثة ، والحضارة القديمة . والمجهود الذى تم لاستنفار كافة عناصر الأصالة .

من زنقة إلى زنقة ، أو من زقاق إلى زقاق ـ بالتعبير القاهرى ـ أمضى بصحبة عبد الكريم ، وما كنت أراه أمامى بالأمس عندما تجولت بمفردى موصداً ، بدأ يتضح لى الآن ، وتتيسر سبله . ليس من الضرورى أن ألج كل

الأبواب كى أقترب من الجوهر ، يكفى أحياناً باب واحد . وربما يكون غير مرئى أو ملموس .

كنت أتطلع إلى النوافذ المعلقة . بعضهـا مغلق ، وبعضها مفتوح ، والبنايات المتضامة ، المتجاورة ، في أصيلة كل البيوت على مستوى واحد متقارب ، بعكس شوفشاون المدينة الجبلية الأنـدلسية التى زرتها ف رحلتى تلك زيارة سريعة ، وكنت أستحضرها دائماً أثناء جولاتى الصباحيـة ف أصيلة ، شوفشاون تبدو على مهل ، كحلم من الزمن القـديم ، تلوح عبر الطـريق الصاعد وتبـدو كلها ف مجملها لأول وهلـة ، ثم تتوارى مع منحنى الطـريق . بيوت بيضـاء . ترصع القمــة وتتعلق بها . تتجـاور المنازل والبنـايـات كـالسلم الموسيقى ، النمنمات الأندلسية ليست ف التفاصيل ، ولكن أيضـاً ف الكليات ، الفراغ أشد مدى .. ربما لأننا أكثر قـرباً من السماء ، وف الخلفية تقوم نهاية الجبل الذى يحجـز أحياناً الرياح فترتفع درجة الحرارة صيفاً ، ولكـن الغرض العسكرى من بناء المدينة هنـا لم يكن ليخفى على أى ملم ولـو المامـــة سريعـة بتـاريخ المنطقـة ، كـانت شـــوفشاون أيضـاً نقطـة ارتكاز هــامــة ف جبال الـريف حيث يعيش البربـر المسلمون . ويتصدون عبر قرون متوالية للهجمات الصليبية الأوروبية ، وحتى العصر الحديث ، كانت الحمـــلات العسكريـة تخرج من شوفشــاون إلى أصيلة للاشتبـاك بالبرتغــاليين ، أو الأسبان ، والمســافة ليست بـالقليلة حــوالى مائة وستين كيلو متراً، عبر جبال وعـرة ، هذه المدن المبهرة جمالياً ذات نـواة صلبة استعصت على القهر، ونواتها هم ابنائها ..

في شـوفشــاون ، وقفت أتأمل المدينـة ، اشارت رفيقـة رحلتى إليها الفنـانة المغربية لطيفة التيجانى إلى ناحية منها ، قالت ..

ـ هنا عدوة الأندلسيين ..

عندما بدأ النزوح من ديار الأندلس ، جاء الأهل المطرودون عنوة إلى هنا، إلى شوفشاون ، إلى أصيلــة ، إلى فاس ، إلى الرباط ، إلى المغـرب ، احتواهم المغرب ،

وأقامـوا فيه ، عـادوا إلى أرض الآباء والأجداد ، وفى كل مـدينة اتخذوا نـاحية اقامـوا فيها ، سمعت تعبير «عدوة الأنـدلسيين» لأول مرة عندما زرت مـدينة فاس منذ اثنى عشر عاماً ، فى رحلتى المغربية الأولى .

وقفت أتأمل عـدوة الأندلسيين فى شـوفشـاون . هكذا تعـرف حتى الآن ، لسبب مـا تـذكـرت عمان فى الأردن ، عمان أيضـاً تقـوم على جبـال ، تختلف مستوياتها . بيـوتها أيضاً بيضاء يوحـد بينها اللون الأبيض ، وان لم يكن لها الثراء المعمارى الفنى المغربى .

فى عمان أيضـاً عـدوات اخرى ، ولكـن لا يسكنها أنـدلسيـون طـردوا من موطنهم . بل يعيش فى مخيم الوحدات وغيره فلسطينيون مطرودين ، لاجئين ، بعضهم منذ عـام ثمانية وأربعين وتسعمائة وألف ، وبعضـهم منذ عـام سبعة وستين وتسعمائة وألف ، ومن فترات أخرى .

هنا عدوة ، وهناك مخيم .

فما أشبه وما أعجب التماثل ، ولكن فى المغرب وقف فـرسان الريف البربر ، ورجـال القبـائل العربيـة ، بإختصـار حـارب المغاربـة الأشـداء ذوى البأس بمفردهم فى ديارهم ضد الخطر الأوروبى الصليبى الذى أراد الاستمرار وغزو دار الاسلام. لم ينجح إلا فى الحصـول على موطئ قدم ولفترة مؤقتـة .، وجزر صغيرة منسية من ذاكـرة العرب والمسلمين . الذين أصيبت ذاكـرتهم بنسيان مبين لأمور شتى . واخطار افظع فى عصرنا الحالى ، على مرأى منهم . ومسمع .

أوقف المغاربة الشجعان الخطر وحاربوه ، وعانوا فى سبيل ذلك كثيراً . فهل سيوقف المشارقة الخطر الجديد ؟

خواطـر عديدة تتداعى إلى الـذهن وأنا أقف فى شوفشاون الجبليـة متأملاً عـدوة الأندلســيين . أو أثنـاء تجوالى بجوار أسـوار أصيلة الحصينـة التى تمترس وراءها المسلمون ثم البرتغاليون ، ثم المسلمون .

نمضى فى زنقات أصيلـة ، أرضية المدينة تتدفـق فى حركة قويـة ، صممها

الفنان محمد المليحى ، بعض الجدران عليها لوحات ضخمة رسمها الفنانون المشاركون فى مهرجانها أو موسمها الثقافى الذى بدأ منذ عام ألف وتسعمائة وثمانية وسبعين واستمر حتى أصبح علامة ثقافية . جداريات أصيلة من أبرز أنشطة موسمها الثقافى ، توقفت مسروراً أمام جدارية الفنان المصرى جورج البهجورى المقيم فى باريس الآن . رسمها منذ ثلاث سنوات ، الأصيليون يعرفونه ، ويذكرونه حتى وإن لم يأت . بعض الجداريات تبدو متسقة مع جمال المدينة ، وبعضها يبدو متنافراً معه ، خاصة تلك المنتمية إلى مدارس الفن الحديث جداً ، حيث الاشكال غير المفهومة ، والتى أتذوقها بصعوبة ، أو أنفرمن بعضها ، وأرى فيه نوعاً من الاستسهال المخل .

أجمل جدارية فى أصيلة ، هى أصيلة نفسها ، بساطة واجهاتها خطوط العمارة التلقائية ، وقفت فى ساحة ابن خلدون ، فى مواجهة قصر الثقافة الذى بناه الثائر القديم احمد الريسونى ، وبعض البنايات المحيطة ، لا أظن ان جدارية أخرى يمكن ترقى إلى هذه المهابة ، بل إن بعض الجداريات بألوانها المتنافرة تبدو كالصراع فى حضور المدينة .

يقول شيخنا محيى الدين بن عربى ان الأبيض أصل الألوان ، ولا أدرى إذا كان المغاربة قد استوعبوا هذا القول أو إنهم عبروا عنه بطريقة أو أخرى . يغادر المرء المغرب واللون الأبيض فى ذاكرته يؤطر كل شيىء حتى اللحظات الفانية .

فى شوفشاون ، فى بعض زنقاتها الفقيرة اختلط الأبيض بالأزرق النيلى ، المتخذ من النيلة الزرقاء ، صبغت به مداخل البيوت غير المستوية ، فأحدثت إنفجاراً مبهراً من الضوء الخفى أضفى على المداخل المتواضعة ابعاداً سحرية تفوق الواقع ، هكذا ببساطة ، بأقل الإمكانيات .

لن أنسى هذه اللحظة فى تلك الظهيرة الحارة ، عندما وقفت لطيفة التيجانى المغرمة بأبواب المغرب . والأبواب هنا عالم متكامل من الذوق والفن والثقافة ،

وقفت تلتقط صوراً لأبواب خشبية زرقاء ، لمحت احـدها موارباً . اقتربت منه ، كانت ثمة درجات قليلة مؤدية ، ولكن ما رأيته من خلال الباب هالنى .

انفجـار الضوء الخفى عبر لقـاء اللونين ، الأبيض سيـد الألوان جميعهـا . والأزرق أحـد الألوان الـرئيسية الثـلاث ، التى تدخل فى تـركيب الألوان كلهـا ولكنها لا تُركب ، اما اللونين الاخيرين فهما الأصفر والأحمر .

فى عبقرية فنية تلقائية ، مزج المغاربة اللونين فأوجدا تلك الدرجة المضيئة ، التى تحول المداخل المحدودة ماديا إلى أفق رحب ، لا نهائى.

اللون الأبيض فى أصيلـة لم يمتزج بلـون آخر ، ولكنـه يتلقى تأثيرات زرقة المحيط الأعظم .

أثنـاء سعيى فى المدينـة ، كنت أفكـر فى مـركـز المدينـة القـديمـة ، أين هـو بالتحديد؟ . كلما حددت نقطة مـا تفلت منى ، يصعب اعتبارها نقطة ارتكاز. أو انطلاق إلى سائر جنبات المدينة .

فجأة .. خطر لى أن المركـز هناك ، فى نقطة مـا ، يصعب إدراكها ، كـامنة فى أمواج هـذا البحر المطلق ؛ المحيط بالـدنيا ، والذى تلتصق بـه أصيلة ، وتحذره أيضاً ..

البعد والقداسة

أخيرا .. خـرجنا من الـزنقات المتصلـة ، المتـوالية ، إلى المحيط ، إلى الشرفـة الممتـدة على هيئة لسـان حجرى نـابع من السور ، تصـــعد إليهـا بـدرج . إلى جـدارها ضريح سـيدى أحمـد المنصـور ، بـالقرب من المكان مـوضع مدفع قـديم . كـان وسـيلة لمعرفـة الأخبار الهامـة . وللاعـلان عن ثبوت هـلال رمضان.

قال عبـد الكريم مـرافقى ان من ذكريـات طفولتـه خروج أهـالى المدينة إلى السور، تطلعهم إلى السماء بحثاً عن الهلال الوليد ، هلال رمضان .

إذ تثـبت رؤيـته ، تنطـلق زغاريـد النسـاء من فـوق تلك الشرفة منتقـلة

إلى فضاء المدينـة ، تتولد الأصـداء فتتجاوز المدينـة إلى المحيط ، إلى البر ، كانت لحظة مهيبة ، غريبة .

إلى هذه الشرفة كان الأهالى فى الزمن القديم يجيئون ليرقبوا غروب الشمس. لماذا ؟

لماذا كـانوا يتجمعـون عند بـدء الغـروب هنا على حـافة المحيط ، هل كـان يحركهم دافع غـامض بتأثير مـوروث قـديم ، أو هم يشبـه همى ؟ الانشغـال بالمغيب ، بالوضع الذى تغرب عنده الشمس فى عين حمئة ؟

لا أدرى ، ولكننى عنـدما جئت إلى الشرفـة لحظة الغـروب وجدت الـرجال والأطفـال والنسـاء جـالسين متطلعين إلى الغرب ، وكـان عددهم أكثـر من أى لحظة تمر بالنهار أو الليل .

* * *

فى مواجهة ضريح سيدى أحمد المنصـور ، باب صغير يؤدى إلى درج ضيق مفضى إلى منطقـة صخريـة من المحيط . فى الخرائط الأوروبيـة القديمـة التى رسمت لمدينة أصيلـة يمكن ملاحظـة المكان بسهولـة ، يعرف بـاسم صخرة المحيط ، الحقيقـة انها ليست صخـرة واحـدة ، بل مجمـوعـات من الصخـور المتجاورة ، تتخللها خلجان من المياه يسبح فيهـا الأطفال . العاقرات من النساء كن يقصـدن المكان . يخضن الميـاه الضحلة فى أمـاكن معينـة ، يرفعن ثيـابهن لتتلقى أجسادهن رذاذ مياه المحيط عندمـا يكون المد مكتملاً والأمواج تصطدم بالصخور فى قوة . ويستمر تلقيهن الرذاذ المتناثر أملاً فى الإنجاب .

مرة اخرى يبدو ذلك الضباب الغريب القادم من أعماق المحيط ، يتقدم ليلف الشاطئ كله ، يبدو مشـهد الصخور غريباً ، النساء والأطفال والرجال تغوص أجزاء منهم فى المياه وفى الضباب .

نجتاز الباب الضيـق الذى يتخلل السور . نمر بضريح سيـدى ميمون ، انه على المحيط مبـاشرة ، ويقصده خـاصـة ذوى الأصول السـودانيـة خاصـة ،

والافريقية عامة ، يبدو انه جاء من السودان . ولكم قرأت هذه العبارة فى كتاب «التشوف إلى أهل التصوف» للتادلى ، الذى حققه الدكتور أحمد حجى . تقول العبارة «وورد إلينا من المشرق» ، اشارة إلى قدوم الصالحين من الشرق ، حيث الكعبة أو الأزهر أو الزيتونة ، الكعبة التى كان موكب الحج المغربى يسعى إليها سيراً على الأقدام أو على ظهور الابل شهوراً عدة .

من ذكريات طفولتى وصول الحافلات التى تقل الحجاج المغاربة إلى القاهرة. كانوا يقصدون القاهرة القديمة حيث الأزهر الذى بناه أجدادهم الذين جاءوا مع جوهر الصقلى والمعز لدين الله . مع إخوانهم المصريين . كان هناك طريق برى للحج . توقف فيما تلى ذلك من سنوات لأسباب سياسية عارضة .

كان المغربى فى قريتى بأعلى الصعيد ، وفى حوارى القاهرة القديمة أيضاً مثيراً للاهتمام . خاصة بالزى الخاص السلهام والجلباب ، والذى جعله جلالة الملك الحسن زياً رسمياً لسائر رجال الدولة فى الاحتفالات والمناسبات. كنا ننظر إلى المغربى محاطا بالغموض ، وبدرجة من الرهبة ، تماماً كما ينظر المغاربة إلى القادمين من المشرق فى ذلك الزمن البعيد ، فكأن البعد يضفى درجة من القداسة على من قطعوا المسافات وتكبدوا المشاق من أجل تحصيل العلم ، وزيارة أضرحة القديسين ، والحج إلى بيت الله الحرام..

مقهى البحارة ..

فى كل مكان انزله لاقامة عابرة ، لا تدوم إلا يوماً أو بعض يوم ، أو تستمر أطول قليلاً أو أكثر ، لا يكتمل اتزانى إلا إذا وصلت إلى مقهى معين استكين إليه، واتخذه مقراً للتأمل اليومى ، وللقاء الأصدقاء والنظر إلى العابرين .

أما علاقتى بالمقاهى فى دار مقامى ـ القاهرة ـ فأمرها معروف ، وطيد .

هكذا ، استقرت علاقتى بأصيلة عندما عرفت مقهى البحارة ، أو كما يعرف بإسم آخر ، مقهى زريق ، مقهى ملتصق بالسور المحيط بالمدينة ، لكنه يدير

ظهره إليها ، وينفتح على البحر اللانهائي ، يقصده محبو العزلة ، وينتظر فيه البحارة اقلاع السفن .

المقهى بسيط ، محجوب عن المارة بجدران من جريد النخل ، أشبه بالأقفاص ، تتخللها أوراق شجيرات العنب التى تتسلق السقف أيضاً ، وفى المقهى أشجار تين أيضاً ، وشجيرات أخرى لا أعرفها ، المقاعد والدكك أشبه بالعنجريب النوبى أو السودانى . المصنوع من جريد النخل أيضاً .

أوراق العنب والتين تضفى ظلالاً خضراء على المكان شبه المستطيل الذى لا يكشف أبعاده مرة واحدة للداخلين ، أحب شرب الشاى الأخضر بالنعناع وكما يسمونه فى المغرب (اتاى) ، وانني لاعتبر النعناع فى سائر صوره وأشكاله من نعم الله على الخلق .

دلنى على المقهى بشير القمرى . عرفته من خلال ما كتبه من بحث عميق عن روايتى «كتاب التجليات» ، وقد دهشت إذ أحسست أن الباحث كان يصحبنى خطوة بخطوة اثناء كتابتى للعمل ، وقد نشر فصل منه فى مجلة فصول عام ١٩٨٦ ، ونشر كاملاً فى كتاب صدر مؤخراً فى المغرب بعنوان ، «شاعرية النص الروائي» . لقد أفادنى هذا البحث كثيراً فى اضاءة جوانب من التجليات كنت أدرك ما فيها وربما لا أقدر على تحديده تفصيلاً ، مثل الإنسان يتنفس برئتيه ، ولكنه لا يعرفهما ، ولا يدرك ما بهما ، كذلك يصغى إلى نبض قلبه الذى يحفظ له استمرارية الحياة ولكن سماعة الطبيب ، وأجهزته ، هى التى تحدد حالته ، وما يجرى فيه تحديدا .

تلك أيضاً علاقة المبدع بعلمه من ناحية ، وعلاقة الناقد الجاد به ، وهذا ما لقيته فى دراسة بشير القمرى . وبشير ينتمى إلى جيل فى المغرب استوعب الثقافتين الأوروبية والعربية تماماً . وزاوج بين هذه وتلك ، فى تطبيق خلاق للمناهج الحديثة على النصوص العربية ، واعتقد ان الحركة النقدية العربية ينتقل ثقلها الآن إلى المغرب .

لم ألتق ببشير القمرى منذ أن قرأت بحثه عن التجليات ، وكان الأصدقاء من مصر الذين يزورون المغرب ينقلون منى وإليه تحيات متبادلة . حتى إذا نزلت أصيلة ، ولم يكن قد مضى على وصولى إلى الفندق إلا ساعتين ، عندما لمحت شاباً وسيماً يتجه ناحيتى مبتسماً ، وبتلقائية قلت متسائلاً ..

ـ بشير ؟؟

وتعانقنا ، هو بالفعل ، هذا الحدس الغامض المستعصى على التفسير ، بدأنا حديثنا وكأننا نستأنفه بعد انقطاع لم يستمر إلا ساعة أو أقل ، وهكذا الحال مع الأصدقاء العرب الذين التقى بهم خلال ترحالى ، نستأنف الحوار ولا نبدأه، رغم اننا نلتقى للمرة الأولى ، الهموم واحدة ، والمصادر واحدة ، والمصائر متشابهة .

فى مقهى البحارة تحدثت إلى بشير طويلاً ، وإلى العديد من الأصدقاء المغاربة الذين لم التق بهم من قبل ، طلاب وأساتذة وموظفون . وقد أمضيت معظم وقتى فى الأصغاء والحوار معهم على المقهى ، وكنت افارقه مضطراً إلى جلسات الندوة التى انعقدت تحت عنوان ، الفكر العربى .. أى غد .. إلى أين؟، والتى شارك فيها عدد من أبرز المثقفين العرب . تتشابه الندوات فى كثير من أنحاء العالم العربى ، وتتكرر أسماء ، ولكن المفاجئ فى أصيلة كان جمهور القاعة من الشباب المغربى الذى كان أكثر تقدماً ووضوحاً من بعض المشاركين من الاعلام!

الشىء الايجابى الحقيقى بالنسبة لى هو تلك اللقاءات الجانبية مع اناس لم أعرفهم شخصياً من قبل ، تتحول مدينة أصيلة إلى مهرجان حقيقى طوال الموسم الثقاف الذى بدأ لأول مرة عام ألف وتسعمائة وثمانية وسبعين ، وقام بمبادرة ذاتية من خلال اثنين من ابناء المدينة هما محمد بن عيسى ، الذى أصبح وزيرا للثقافة ، والفنان محمد المليحى . المسارح فى الهواء الطلق .

المعارض الفنية ، الفرق الموسيقية المختلفة ، فنانون من مختلف أنحاء العالم ، أدباء ، تغير شكل المدينة بمبادرات ذاتية من أهلها ، وقدمت تجربة موسم أصيلة الثقافى نموذجاً لكيفية التنمية بالثقافة ، لا شك أن أحوال المدينة قد انتعشت كثيراً اقتصادياً منذ بدء الموسم الثقافى والذى استمر بانتظام كل سنة فى أغسطس .

فى أصيلة التقيت هذا العام بالروائى البرازيلى جورج آمادو ، وجميل حقاً أن نلتقى شخصياً بمن قرأناهم وأحببناهم منذ بدايات العمر ، مازلت أذكر «فارس الأمل» و«دروب الجوع» و«جابريلا» وغير ذلك من أعمال روائية كبرى ، آمادو تجاوز الثمانين . يبدو فى منتهى الحيوية والنشاط . يسافر كثيراً ، يستمتع بالحياة ، كنت أتطلع إليه معجباً ، ومقارناً فى نفس الوقت بينه وبين أدباء عرب فى مثل عمره أو أقل لكنهم يبدون طاعنين فى الهم ، وتفصح ملامحهم عن معاناة هائلة . مع أن بعضهم لم يتجاوز الخمسين يبدو طاعناً فى السن ، متجاوزاً عمر آمادو وغيره من ادباء اوروبيين قابلتهم ، يعيشون من عائد مؤلفاتهم السخى ، يتجولون فى العالم ، لا تطاردهم أنظمة بلدانهم ، ولا يتعرضون لضغوط هنا أو هناك .

لفت نظرى فى آمادو تواضعه . ورقته ، وحضوره الإنسانى ، أسباب شتى جعلتنى أتذكر نجيب محفوظ .

لم ألتق بآمادو فى مقهى البحارة ، قابلته فى بيت محمد بن عيسى فى قلب أصيلة القديمة ، هذا البيت الذى يشهد كل ليلة طوال الموسم ضيوفاً من شتى أنحاء العالم ، ويبدو أن عمل محمد بن عيسى فى السابق كخبير فى الاتصالات الدولية هو الذى يسهل عليه احتمال هذا الجهد العجيب .

لا أدرى لماذا كنت على يقين أن آمادو لو عرف طريقه إلى مقهى البحارة المنزوى بعيداً عن الصخب لعشقه وارتبط به ، ربما لأنه قريب من عالم رواياته الواقعية العظمى .

كما أننى لن أنسى وجه جورج آمادو . لن يغيب عن ذهنى أيضاً وجه محمد ابن سودون .

مغربى ، تجاوز السبعين ، وربما الثمانين ، نحيل جداً ، عندما وصلنا إلى المقهى فى الصباح الباكر قابلنا أحد العاملين فيه بود وترحاب ، تلفتنا حولنا ، كانت الأرض مرشوشة بماء ندى ورائحة البحر مختلطة بالزرع . رأينا العجوز المغربى النحيل فى مواجهة الركن الذى اعتدنا الجلوس أليه ، ألقينا التحية فجاوب بأحسن منها ،

جاء عامل المقهى يحمل إلينا تيناً طازجاً ، قال أنه من الشجرة ، قطفه للتو ، كان التين متفتحاً ، مسفراً عن قلبه الأحمر وبذوره الصغيرة ، وما من ثمرة تثير حنينى إلى أيامى الأولى مثل التين ، أستعيد على الفور رائحته القوية عند منعطفات وجسور قريتى جهينة فى صعيد مصر . وأشجاره ذات حضور قوى، أما مذاقه العسلى فتعلقت به منذ الطفولة ، وبرغم ما يسببه لى من مشاكل فى معدتى إلا أننى لا أستطيع التوقف أمامه ، التين فى مصر ذو قشرة بنية اللون تميل إلى حمرة ، وفى المغرب لونها أخضر ، أما القلب فمتشابه . وربما كان مذاق هذا التين الأصيلى الصباحى الذى قدمه إلينا الرجل بكرم فياض من المعالم التى ستعلق بذاكرتى خلال السنوات القادمة .. كذلك ابتسامة محمد بن سودون الذى أمسك بين اصابعه بالسبسى ، اى الغليون المغربى ، من الخشب، طويل، ينتهى برأس صغيرة ، يوضع فيها الدخان المخلوط بالكيف . يذكرنى بالشبك الذى كان معروفاً فى القاهرة حتى القرن التاسع عشر .. لا يتخلى محمد عن السبسى طوال حديثه إلينا .

* * *

سى حمد بن سودون أصيلى صميم ، كان يعمل حائكاً لشباك الصيادين ، يصنعها ، ويصلحها. ومن هذه الصفة يتكسب عيشه .

ـ لكننى حساسبى ..

أى أنــه يحسب جيداً ، أوتــى مقدرة على الحســاب بــدقة ، بحيث يمكنــه أن يحسب مثلاً كم ساعـة فى الشـهر ، كم دقيقة فى السنة . كم ســاعة ، كم دقيقة فى القرن بأكملـه ؟ يمكنه أن يحسب أيضـاً . كـم طوبة فى البيت؟ كـان سى محمد يؤكد خلال حديثه ..

ـ عمرى ما قريت ..

أى إنه لم يذهب إلى المدرسة قط . ولا يعرف القراءة أو الكتابة .

ببساطة حكى لنا عن حياته أيضاً ، تزوج مرتين

ـ الحمقاء ديالى ..

زوجتــه الأولى كــانت مجنــونة ، أصــابها مــرض نفسى ، أمضت مــدة فى المستشفى اضطر إلى الزواج بأخرى ،

ـ نعم .. كانوا يربطون المجانين بالسلاسل

وبعد أن يشفوا يطلقونهم ..

يتدارك سى محمد قائلا ..

ـ ولكننى أطل عليها بين الحين والآخر ..

أتساءل :

ـ على من يا عم محمد ؟

يقول :

ـ على الحمقاء ديالى ..

يحتفظ وجهه طوال حديثه بإبتسامــة صافية ، رائقة ، يصل فى هذه اللحظة بحــار عجوز أسمــر ، مقــدد الجلـد ، جاء الى المقهــى ليشرب الشاى وينتظــر ، الضباب كثيف هذا اليوم ، والابحار صعب .

أشار بيده إلى ثلاث جهات ، كان خلفه مبــاشرة سور المدينة ، يوما خرج إلى المحيط . باغتته العــاصفة ، أمضى وقتاً طويلاً يصــارع الأمواج بعد أن تحطم

قاربه ، عندما وطئت قدميه أرض أصيلة ، فوجئ بأهله يبكون ، ينوحون عليه ، ظنوه غاب بلا رجعة .

تذكرت وجه حارس متحف تطوان ، كانت الساعة تدنو من السادسة عندما خرجنا من شارع محمد الخامس إلى شارع جانبى ، كان الزحام شديداً ، المدينة كلها تخرج إلى الشارع الرئيسى ، الرجال ، النساء . الأطفال . عادة اندلسية قديمة . حيث يتدفق القوم قبل نزول الليل إلى وسط المدينة يروحون ويجيئون . طرقنا باب المتحف حيث يقيم الرجل . اسمه محمد ميمون التطواني، تجاوز الستين ، يجيد الأسبانية شأن معظم أهالى الشمال المغربى الساحلى ، زوجته أسبانية ، ان الامتزاج والتأثير والتأثر في مناطق الأطراف أمر يحتاج إلى دراسة خاصة . فى العادات ، فى اللغة ، فى الطعام ، فى الأدب . الصراع الطويل لا يلغى انتقال بعض الطباع من هنا إلى هناك والعكس .

سى محمد ميمون يتحرك متمهلاً ، زوجته مريضة راقدة فى المسكن . كل ما فى الرجل يوحى بالنهاية ، كانت الفنانة لطيفة التيجانى تعامله برفق شديد ، وكنت أتأمل وجهه الطيب ، وأشجار الريحان المبثوثة فى الحديقة ، وأرضية الفسيفساء الرومانية النادرة ، وشواهد القبور اليهودية المصفوفة ، كان الرجل يتحدث عن زوجته بحب وعطف اثرا فى ، طلبت من لطيفة أن تلتقط لنا صورة معاً .

عندما ودعناه ، عدنا لنغرق فى الزحام غير العادى ، الذى لم أر مثيلاً لكثافته أنا المواطن القاهرى الذى يعيش فى مدينة يتجاوز تعداد سكانها الخمسة عشر مليوناً .

قالت لطيفة التيجانى إن الرجل يعرف كل قطعة فى المتحف ، خبير بها ، يعيش فيه منذ افتتاحه ، وعندما بلغ سن التقاعد ، قرر المسؤولون فى وزارة الثقافة استمراره فى المكان ، لقد أصبح جزءاً منه .

تطلعت إلى وجه الصياد فى مقهى البحارة ، لقـد كاد المحيط أن يبتلعه يوماً . ولكنه غالب موجه ورجع بعد أن قطع أهله الرجاء .

ترى كم من البحارة ، أو المتطلعين إلى بلوغ مـوضـع مغيب الشمس خرجوا عبر الأزمنة المتواليـة من أصيلة ومن مواضـع أخرى ، ولم يـرجعوا من المحيط الأعظم .. كم ؟

سبتمبر ١٩٩١

متتاليات مكسيكية

عبـــور المحـــيط

نوفمبر ١٩٨٩

الأمر نسبى ،

من القاهـرة إلى باريس ، رحلة أعد لها وأتأهب ، أربع ساعات من الطيران تقـريباً ، أصل بعـدهـا متعباً ، متطلعـاً إلى لحيظات سكـون ، فى أعماق اكتمال الرحيل ، والانتقال ، التهيؤ لما يليه . هذه الـرحلة التى كانت فى المرات السابقة شوطاً مكتملاً ، مـا هى إلا مرحلة فى سفر أطول ، تنزل الطـائرة باريس فجراً ، لن نغادرهـا ، التزود بالوقـود قبل الايغال ليلاً فـوق البحر المحيط ، نقف على حافة البحر وآخر البر الذى أعرفه ، خـارج الطائرة يبدو رجال الخدمة مدثرين بمعاطفهم الثقيلة ، تبدو حركتهم آتيـة من بعيد ، الاضواء بحساب ، ولكل منها وظيفتـه هنا ، بـدءا من الكشـافـات الضخمة التى تضىء الفـراغـات ، وحتى اللمبات الصغيرة المصفوفة على جانبى الممر ، افكر فى الاصدقاء الحميمين الذين تضمهم المدينة ، اقف على تخومها ، خارج اطارها ، موجود وغير موجود فيها ، ما هى الا دقائق وانتقل مبتعـداً بسرعة تقارب ألف كيلو متر فى السـاعة ، لتبدأ المرحلة الثانية من سفرى إلى المكسيك، انها الأطول ، ثمان ساعات تقريباً بعدها نحط في نيويورك .

حقاً إن الأمر نسبى ، استعيد تجربة من الماضى القريب ، البعيد ، منذ حوالى ربع قـرن كان الشـهيد ابـراهيم الرفـاعى ، يخرج للتدريب القـاسى على رأس جنوده من قوات الصـاعقة المصرية ، كانت القاعدة فى مدينة انشاص بدلتا النيل،

ويتم الاستعداد لطابور مشى ، يعلن انــه سينتهى فى مرسى مطروح ، أى قرب حدود مصر الغربية ، حوالى ثمانمائة كيلومتر يجب قطعها على الاقدام ، ترجلاً ، طبعاً المشية بترتيب معين ، كنت أبدأ عملى كمراسل حربى ، وبدا لى الأمر شاقاً ، ولكنه قال لى إنــه يؤمن أن الطاقة التى يمكن أن يبـذلها الإنسان لا حدود لها ، وإنه على قـدر الغاية تكـون الطاقة ، فلو بـدأ الرجال السير والهدف بعـد مائة كيلـومتر ، سيكـون الاستعـداد مختلفـاً عن شروعهم وهم مـدركين ان نقطـة الوصول بعـد ألف أو أكثر ، هكذا كنا نمضى، كل منا يستمد قـوته من الآخر ، فكما يتعـاون جمع على قهر ثقل مـادى بـرفعه ، يتعـاونون أيضـاً على تجاوز المعنوى .

إننى لا أمشى ، ولكننى اجلس إلى مقعـد محدود المساحة ، مـريح ، البعض يقـوم بهذه الـرحلة الآن ربما مـرتين فى الاسبـوع ، ولكن حـواسى جميعهـا مستنفرة وخزائن ذاكرتى تفتح لومضــات ، ارى فيها ما كاد يخبو ، استحضر لحظات مارقة ، واوقاتاً نائيـة ، وقراءات خيل الىّ اننى نسيتها . امر عادى جداً عبور المحيط الآن ، خلال السنـوات العشرين الأخيرة ، ومن أحاديث البعض فى موطنى تبدو السواحل الامريكية اقرب من سواحل مجاورة على مرمى البصر ، ألم تتحسن العلاقــات ، والوفود لا تكـف عن الذهاب والايـاب ، والساعين إلى فرص اخـرى فى الحياة ، كل تلك العـوامل جعلت الرحلة عـادية جـدا ، ولكنها بالنسبة لى المرة الأولى التى اعبر فيها المحيط ، ادفـع بوجودى الحسـى إلى نقطة أبعـد فى المكان والـزمان ، تـولى الطائرة مقـدمتها صـوب لحظة الاقــلاع ، على الشاشة الصغيرة المعلقة فى مواجهة المقاعد ، تبـدو البيانات الخاصة بالرحلة ، السرعة ، الارتفاع ، موقع الطـائرة من العالم ، ولاننى فى الرحيل لايمكن لعينىّ أن تغفو ، رحت اتابـع ، واقارن ، ولا أكف عن مزاوجة اللحظـة الآنية بلحظات عتيقة واخرى لم أبلغها بعد .

تجتاز الطـائرة الفراغ الليلى ، تـرحل من ليل إلى ليل ، فطبقاً لـزمن موطنى

تطل الشمس الآن عن الأفق ، ونحن الآن نتقدم غرباً ، صوب مغرب الشمس ، وكلما اوغلنا ، كلما نأينا عن ساعة الشروق ، ولكن التقدم لا يعنى الافلات فعند لحظة معينة سوف يتبدد الظلام ويتلاشى فى نفس الوقت الذى ينزل فيه على ديارى وأوطانى . فأى زمن اتبع اذن فى الرحيل؟ ، مهما بلغ فرق التوقيت فإننى لا أغير وضع عقارب ساعتى ، وإن لزمت توقيت المكان الذى أحل به .

فوق الشاشة الملونة يبدو وضع الطائرة ، تجتاز شمال الجزر البريطانية ، تصبح فوق اللون الأزرق ، نحن الآن فوق المحيط الأعظم ، أو بحر الظلمات كما سماه الأجداد .

* * *

ترى ، أى صور جالت عند من وقف على حافة البر . سواء فى سواحل المغرب ، أو آخر حدود اليابسة فى بلاد الأندلس ، أى صور توالت ، أى احتمالات امام اللانهائية الجبارة للبحر الذى كانوا يتصورون أنه محيط بالدنيا . كما يحيط بياض البيضة بصفارها ، ألم يقدم أحدهم على المغامرة ، على خوض لجة المجهول قبل أن يجهز كولومبس قافلته ؟

بالتأكيد أقدموا .

تحتفظ المصادر التراثية العربية باشارات عديدة إلى ثمانية اخوة من الأندلس أقلعوا فى البحر المحيط ، وغابوا عدة شهور حتى انقطع الأمل فيهم ، ثم رجعوا يوما ، وأخبرا عن وصولهم أرضاً غريبة ، يسكنها قوم مختلفين ، فهل وصلوا إلى الساحل الأمريكي ؟ ، ربما .

هل كان كولمبس أول من حط على شواطئ امريكا عام ١٤٩٢ ميلادية ؟

أشك أيضاً ، فى عدد الخريف الماضى من مجلة التراث الشعبى العراقية دراسة مترجمة بعنوان «الازتيك وألمايا والأنكا ، هل كانت المعتقدات الشعبية سبباً فى سقوطهم؟» ، عندما وصل كورتيز قائد الغزاة الأسبان إلى مدينة

«مونتيزومـا تينو شتتلان» وتعرف اليـوم بمدينة المكسيك ، إنها محط رحلتى فى الذهـاب ، التقى بالقـائد الهندى مونتيـزوما ، كان متألقـاً بالـذهب والفضة والـريش الأخضر الغريب ، كـانت المفـاجأة كلمات الترحيب التى فاه بها أمـام الغزاة الأسبان ، انحنى قائلاً :

«إلهنـا .. إنّك مُضْنى ، لقـد أتعبـك السفـر ، ولكنك الآن قـد وصلت إلى الأرض ، وصلت إلى مدينتك مكسيكو ، لقد تنبأ بهذا الملوك الذين حكموا مدينتك ، وها هى النبـوءة قد صدقت .. لقد عـُدت إلينا .. لقد هبطت من السماء ..»

لم يحاول مونتيزومـا إمبراطور الازتيك إيقافه ، حتى عندما دمـر كورتيز المعابد المقـدسة ، ويرجع ذلك إلى عقيدة الازتيك الهنـود نفسها ، انهم يعتقدون بوجـود اله يُدعى كـويتز الكويتل ، جـاء من الشرق ثم اختفى عائداً إلى الشرق ثانية ، تصفه الأسـاطير أنه طويل القامة ، ذو بشرة بيضـاء ، ولـه لحية ، كانوا يعتقـدون أنه سيرجع مـرة اخرى ، ويبـدو أنهم رأوا فى الأسبان تحقيقـاً لهذه الاسطورة ، هل قامت عناصرها على أساس واقعى يمتد إلى زمنٍ قديم ، سحيق البعد جاء فيه رجـال بيض من الشرق أثاروا المخيلة ، واختفوا ، ربما .. فما من شىء مؤكـد فى حقب التاريخ البعيدة ، اعيـد النظر إلى الشاشة ، تـوغل الطائرة فوق المحيط ، تصعد شمالاً ، ظننت انها ستمضـى فى خط مبـاشر إلى نيويورك ، ولكن الطريق على هيئـة مثلث ، ويبدو أن هذه مسارات فى الجو تشبـه الطرق ، تشير الخريطة إلى ريكيافيك عاصمـة ايسلندة ، فى الخارج الظلام مطبق ، فراغ من العتمة ، مـا من تفاصيل بادية ، لا يلـوح لى شيئٌ مما هو موجـودبالفعل ، ولكن كل ما عندى يمت إلى مـا لا يوجد حولى على المستـوى المحسوس ، ملامح الأهل ، والصحب ، ونـواحى معينة فى مـدينتى ارتبطت بها ، وألفت اريجهـا ، عالم داخلى ، خاص بى ، عناصره عندى ، احله فوق البحر المحيط ، كنت أحاول تخيل امتـداد المياه المنبسطـة تحت ، مـا تحويـه ، أصل عند لحظـات معين إلى

مواقف شبيهة بتلك التى اجتازها أجدادى فى التراث العرب القديم ، كيف نظروا إلى هذا المحيط الأعظم .

* * *

فى كتبه الثلاثة التى وصلت إلينا ، تحدث المسعودى عن البحر المحيط ، نجد ذكره فى «أخبار الزمان» و«مروج الذهب» و«التنبيه والاشراف» ، صوره لنا على أنه بحر الظلمات ، فيه عرش ابليس لعنه الله ، وفيه هيكل سليمان ، وفيه أسماك طول الحوت منها عدة أيام ، ومدائن تطفو على سطح المياه وتغيب ، وقصور من البلور تضىء بقناديل لا تنطفئ أبداً ، وفيه مدينة من حجر أبيض براق يسمع فيها ضوضاء وأصوات ، لا يرى بها ساكن . وفيه جزيرة بها مساكن وقباب بيض تلوح وتتزيا للناس فيطمعون فيها وكلما قربوا منها تباعدت منهم فلا يزالون كذلك حتى ييأسوا فينصرفوا عنها .

أما سراج الدين ابن حفص عمر بن الوردى فذكره فى كتابه «خريدة العجائب وفريدة الغرائب»، قال إنه كثير الأهوال ، أمواجه كالجبال الرواسى ، ظلامه كدر ، وريحه زفر ، وفيه صنم يشير بيده ، لا خطوة بعدى ، ثم يصف مجموعة من الجزر سبق للمسعودى أن وصفها ، وأطلق عليها «جزر الخالدات» ، وهذه الجزر موجودة بالفعل فى المحيط الأعظم ، أو بحر الاوقيانوس كما ذكرته المصدر القديمة ، أو الأطلنطى كما نعرفه الآن .

أتطلع إلى الشاشة الصغيرة ، الطائرة الآن فوق جرينلاند . المناطق الأبرد من العالم .

* * *

ايسلندا ، البحر الأعظم ، جرينلاند ، الساحل الكندى ، من نقطة إلى نقطة ، من لحظة إلى اخرى ، مدن هناك فى حشا الليل ، وجودها بالنسبة لى يتمثل فى

هذه الأسماء التى اطالعها فوق الخريطة ، لكنه وجود نائى ، بقدر قربه ، وفى نفس الوقت الذى ادركه ، يفلت ، ينأى ، فأى علاقة يمكن الوقوف عليها ، وجود هذه المواضع فى حقيقته ، وبين كينونتى أنا ، بمعنى آخر ، انا أطير الآن داخل حيز محدود ، متحرك ، يتغير موقعه باستمرار ، تشير المعلومات المتاحة ، إلى أننى فوق الساحل الكندى ، حيث تتجه الطائرة الآن جنوباً بعد أن صعدت شمالاً ، هل أنا موجود فعلاً فوق الساحل الكندى؟، أم انه مجرد علامة فوق الخريطة ، وكيف أكون موجوداً فى نفس اللحظة التى أفارق فيها الموضع الذى ادركه ؟، الحيز فى حركة دائمة مستمرة ، أما استمرارى وأمانى وضمان وصولى الى نقطة معينة هو هذا الفراق الدائم للمكان ، انتفاء الوجود فى لحظة ادراكه ، أما لو أتحدت كينونتى بالمكان الذى يشير إليه السهم المتحرك فوق الخريطة ، فربما يعنى ذلك الهلاك المبين ، لو توقفت حركة الطائرة ، لو حطت فجأة فوق مكان خارج الخطة ، لأتحدت بالمكان ، ولخرجت من الكينونة . ذات يوم بعيد فى زمن الحرب ضد إسرائيل ، كنت فى البحر الأبيض ، أركب قطعة بحرية تمخر فى الليل ، بدأت نوة ، رياح عاصفة ، وامواج عنيفة ، رأيت التجسيد الحى لذلك التشبيه القرآنى القوى «وموج كالجبال» ، خرجت إلى السطح ، تمايل عنيف ، أقبل نحوى ضابط بحرى شاب ، صاح يطمئننى ، «البحر كويس» ثم زعق «اطمئن لا خطر طالما نمضى ، الخطر كله إذا توقفنا..». تماماً كالقلب ، تركض دقاته من ثانية إلى أخرى فى رحم الوقت ، وإذا سكن ، توقفت الحياة ، وانتقلت إلى الأفق الذى لايبين !

أتابع من خلال النافذة خطا نحيلاً أحمر اللون عند الافق الدائرى ، يتسع شيئاً فشيئا ، حتى تتوهج السماء بحمرة كونية نادرة ، تكشف بحراً من الغيوم فوق المحيط الأعظم ، فكأنهما الأصل والظل ، الصوت والصدى ، لا يستمر الضوء القانى طويلاً ، ندخل الليل الطاغى مرة اخرى ، أى ضوء هذا ؟ أهو الفجر الكاذب ؟أم أنه مصدر الفجر ، أم انه فجر المكان الذى مرقنا به ؟ ،

قُتْنـاه لاننا نتجـه غربـاً إلى الموضع الـذى تغرب فيـه الشمس ، والذى حـاول الاسكندر المقدونى بلوغه لكنه فشل ، أمـا الذى ادركه فهو سيدنا الخضر الذى شرب من نبع الحياة . هـذا ما يقولـه المعتقد الشعبى الذى تـردد فى سمعى منذ طفولتى .

تمضى ساعة أو أكثر ، الخط الأحمر من جديد ، لكنه لا يغيب عنا هذه المرة ، يستمر متوهجاً . منقلباً إلى نهار جديد .

غيـوم ، غيـوم . من بينهـا يمكن رؤيـة اراض يغلب عليهـا اللـون الأخضر الصخرى ، أمـواج المحيط تبدو أكثـر وضوحاً بعـد اجتيازنـا طبقات السحب المتراكمـة متجهين إلى الأرض ، يقـولـون ان اصعب لحظـات الطيران الاقــلاع والنزول ، صحيـح الاقلاع صعب لكنه عنـدى لسبب آخر ، لاننى افـارق أمى الأرض ، ولا يسرى الاطمئنان الحقيقى إلا عند الدنو منها ، بل إن شعورى عند الطيران فـوق البحار يختلف عـن الطيران فوق الأرض ، مع ان المصير واحـد ، أليس الأصل ، والمثوى ؟ .

أمواج المحيط ، زبد أبيض يحدهـا ، لون زيتونى غامق ، انـه الطرف الآخر الذى كان يتطلع إليه قومى لعبوره فى العصور السحيقة ، هذه الشمس الواهنة الضعيفة ، الواهنة . ما تـزال عند الأفق ، انها فى ذروة وهجها الآن فى قاهرتى ، استدعى إلى ذهنى كتب الميقات القديمـة ، اتساءل كطفل ، أهى شمس واحدة؟، هل يمكن إدراك الشروق والغروب معاً ؟

أتأهب لمفـارقة الحيز المكـانى ، التحرك الـذى سكن الآن ، الذى إنـدفع من شرق الكوكب إلى غربه ، كنت أفكر فى الدهشة الأولى والأحاسيس الإنسانية، هل تتغير من عصر إلى آخـر ، من حضـارة إلى أخـرى ، أى صـور جـالت بـذهنى الأقدمين عندما نزلوا هذا البر أول مرة ؟

كنت أشرع فى التفكير هنـا وهناك ، مـا الـرحيل إلا داخلى . دائماً مغترب عن اللحظة الآنية ، تذكرت صاحبة لى ، قالت يوماً فجأة بعد طول نظر الىّ :

ـ أنت فى غير زمانك باستمرار ..

فكرت ، والسفر داخلى : لا مكان إلا عندى. بينما كان وجهها الجميل القص يطالعنى من مسافات قصية ، فارضـاً وجوده ، طاغياً على كل ما يحيطنى ، مع إن صاحبته لم تعد تسعى فى هذه الحياة الدنيا !

توهم الصلات !!

بالقطع .. كانت هناك صلة .

الشواهد التى وقفت عليها ، والتى غذت حدسى ، تؤكد الصلة التى أقطع بها بين الحضارة الفرعونية وهنود المكسيك ، الملامح ، قسمات الوجوه بمجرد نزولى مطار مكسيكو سيتى ، وحتى مدينة موريليا حيث عقد مؤتمر السرد الروائى ، كنت أطالع ملامح ذات ثلاث شعب ، الأولى والتى لفتت نظرى بشدة ، عربية الأصل ، مصرية الحضور ، ليس بسبب اللون الأسمر المنتشر ، ولكن القامات ، وشكل الرؤوس ، هل انتقل ذلك عن طريق عرب أسبانيا ؟ ، ربما ، ولكن الملامح جلية ، واضحة ، الثانية ، هندية ، وهؤلاء ذوى ملامح مغولية ، الوجنات العريضة ، والأجسام القصيرة ، والصدور البارزة ، أحياناً تخفت الملامح الهندية لتصبح عربية تماماً ، هؤلاء أقدم السكان . يقول علماء الأجناس ان ثمة هجرة بشرية واسعة جرت قبل الميلاد بحوالى عشرين ألف سنة عبر مضيق بيرنج فى ألاسكا ، وان أمواجاً كثيفة من بشر آسيا ، بالتحديد من مغولها تدفقت إلى الامريكيتين . وهؤلاء هم الهنود الحمر ، بالتأكيد ، الأصل مغولى ، لكن .. إذا كانت الهجرات قد بدأت من آسيا ، فهل إنقطعت الصلة بين آسيا والأمريكيتين فيما تلى ذلك من قرون ؟

لا توجد إجابة حاسمة حول هذه النقطة حتى الآن .

أما الشعبة الثالثة للملامح ، فهى الأوروبية ، وهؤلاء هم الأسبان الذين نزلوا سواحل المكسيك فى بداية القرن السادس عشر ، بعد وصول كولمبس إليها، وهؤلاء تراهم بكثرة فى المدن ، وعند خروجنا من مدينة مكسيكو إلى

الطريق الجبلى المتجه إلى موريليا ، والذى يبلغ طوله حوالى أربعمائة كيلو متراً ، كنا نمـر بالقـرى الصغيرة ، والمدن الجبلية ، لم تكن تطالعنـا إلا وجوه هنـدية الملامح ، ولم يكن صعباً استنتاج المستـوى المادى الذى يعيشـون فيه ، وهـو بـالتأكيـد متـواضع ، ولا يعنى هـذا عـدم وجـود بيض فقـراء ، فـالفـوارق الاجتماعيـة فى المكسيك حادة ، والعـاصمة نفسهـا تحتوى على منـاطق فقيرة تنتشر على التلال المحيطة بـالمركز ، وهناك منطقة للأثريـاء رأيت فيها قصوراً تنم عن ثراء فاحش. وبيوت تشى بمدى ثراء أصحابها مبنية على نمط العمارة الكسيكية التقليدية، خليط من العمارة الأندلسيـة القديمة ، والعمارة الهندية ، التى لا تخلو من تماثيل الآلهة القديمة ، والحيوانـات الأسطورية . والزخارف التى تستمد عناصرها من عالم النبات .

* * *

كعادتى خرجت فى أول النهار . أمشى مسافات محدودة حول الفندق ، ألزم أرصفة معينـة ، واحدد علامات بـارزة خشبية إن أضل طريق العـودة ، شيئاً فشيئـاً تتضح معالم المدينـة التى أنزلها أول مـرة وتبين . وتسفر النـواحى . والميـادين ، والمنحنيـات ، والبيوت المنطـويـة على أسرار لا حصر لها، لا قبل لى بفضهـا حتى وإن تحولت من عـابـر إلى مقيم ، عـربات صغيرة عنـد نهايـات الأرصفة ، للطعـام ، يقف عدد معظمهم من ذوى الملامح المغـولية ، يتنـاولون طعام الافطار فى أطباق صغيرة ، قطع لحم مطهـو ، أو قطع الكرشة الصغيرة ، تلف فى الخبـز المصنوع من الـذرة (التوريلـوس) ، وهذا الخبـز قديم ، وجـده الغزاة الأسبان عنـد مجيئهم ، ومازال ، والكل يتناوله ، لا فـرق بين ثرى جدا . وفقير جدا . رأيته بنفس المواصفات فى المطاعم الفاخرة التى دعيت إليها ، وفوق هذه العـربات الصغيرة المنتشرة فى الميادين ، خـاصة فى الصباح البـاكر ، أو فى المساء ، استدعت إلى ذهنـى على الفور صور عربات الفـول التى يتجمع حولها نفر من قومى فى القاهرة والمدن الصغيرة ، يقف البائع ليغرف الفول فى الأطباق

الصغيرة ، أما إضافة الزيت أو الشطة ، كذا تناول الأرغفة . والبصل الأخضر ، فأمر من شأن الزبون نفسه ، وعند دفع الحساب يذكر للبائع ما أكل . ولا أحد يغالط فى حساب الطعام الذى أستقر مختفياً فى المعدة ، شىء شبيه ذلك الذى رأيته فى شوارع المكسيك . ولكننى تعجبت عندما تناولت الإفطار ، إلى جانب البيض المطهو استقر طعام آخر له مذاق الفول المدمس ، نوع من العدس أو البقول ، لكن طريقة تدميسه شبيه تماماً بطعامنا المصرى الشعبى ، وعرفت أن هذا منتشر فى امريكا اللاتينية وأنه قديم .

* * *

قبل زيارتى موقعا يمت إلى العصور المندثرة ، أحرص على قراءة ما تيسر ، ما يلقى الضوء على الأحجار الصامتة ، والنقوش ، ويفك بعضاً من طلاسم الرموز ، فما البال ، وأنا أمضى لرؤية الأهرامات ، هرمى الشمس والقمر ، أحد أهرامات المكسيك الشهيرة الغامضة ، إذا كان الإنسان قد شيد عمارة هرمية الشكل فوق سطح الكوكب الأرضى . فقد جرى ذلك فى موقعين ، مصر قبل الميلاد بحوالى ثلاثة آلاف سنة ، وكانت الذروة هرم الجيزة الأكبر ، والمكسيك ويرجع العلماء تاريخ الاهرامات هنا الى ما قبل الميلاد بحوالى ستمائة سنة . كنت متشوقاً لرؤية الأهرامات المكسيكية ، فالهرم عندى ليس مجرد بناء من أحجار متراصة ، إنما هو فلسفة وفكرة .

فكرة تحاكى العمر الذى يبدأ ممتداً عريضاً ثم يتناقص حتى يصل إلى نقطة تتلاشى عندها الفروق بين المادة والفراغ ، فكرة التطلع نحو اللا نهائى ، إدراك ما كان يطمح الانسان القديم إلى إدراكه فى السماوات العلى ، ثم ان هندسة البناء نفسه حوت أفضل العناصر لمقاومة العدم ، لقهر الفناء بالمادة الصلدة ، فالبناء مصمم بحيث يخف الثقل كلما ارتفع ، وهذا يطيل أمده ، وينتقل به من زمان إلى زمان .

بعد حوالى أربعين كيلو متراً بدأنا نقترب من وادى تيوتيهواكان . ثمة

مرتفعات جبلية ، تلال صخرية لكنها مكسوة بالحشائش الخضراء ، فيه قامت خلال الألف عام السابقة علي الميلاد مركز حضارى هام ، وفى المائة العام ق. م أصبحت تيوتيهوا كان مدينة متكاملة ، تقدر مساحتها وقتئذ بسبعة عشر كيلومتراً ، وعدد سكانها من ثلاثين إلى ستين ألفا ، وفيها تم تشييد هرمين عملاقين لمعبدى الشمس والقمر ، عبادة الشمس كانت هنا ، وكانت أيضاً فى مصر القديمة ، سواء فى الإله رع ، أو فى قرص الشمس نفسه الذى دعا اخناتون إلى عبادته كإله واحد للعالم كله . اشطح بخيالى محاولاً سبر الماضى البعيد ، وكما يقف الإنسان إزاء المستقبل حائراً لا يدرى ماذا سيحدث غداً ، يقف أيضاً حائراً إزاء ما كان فى الماضى البعيد الذى لفه الصمت ، ولم يعد ما يدل عليه قادراً على البوح حتى وان بقيت علامات مثل هذه الأهرامات أو المعابد .

* * *

نترجل ، بقدر ما أحاول إستيعاب الأهرامات الماثلة أمامى ، بقدر ما أحاول عقد المقارنة ، أهرامات مصر من حجارة ضخمة يتسق لونها مع الصحراء الرملية الممتدة ، ولكن هذه حجارتها أصغر حجماً بكثير ، حجارة رمادية غامقة، كشفت فى بعض المواضع عن كتلة من التراب الذى تجمد وتلاصقت ذراته ، ونبتت من خلاله الأعشاب الصغيرة ، الدقيقة ، أعشاب تطل حتى من بين الشقوق الدقيقة التى تفصل ما بين الأحجار ، بتأثير المطر الاستوائى الغزير الذى يستمر هنا طوال الصيف .

أهرامات الجيزة تراها دفعة واحدة برغم ضخامة كتلتها ، حتى عند الاقتراب منها ، تظل احاطتك بالأهرام ممكنة ، تشرف عليه ويشرف عليك ، أما هذا فلا تراه الا مجزءاً ، إذ لا ينطلق عبر ارتفاعه في مساحة واحدة ، إنما يتكون من عدة أجزاء ، مصاطب ، ويتوسطها درج معد للصعود ، وفى نهاية كل مصطبة أفريز عريض ، ومنه تنطلق إلى الإرتفاع التالى ، فوق هذا الأفريز يقال

إنه كان يتم تقديم الضحايا البشرية من الأسرى . يرتفع الهرم إلى ثلاثة وستين متراً ، أهرام الجيزة يرتفع إلى مائة وسبعة وثلاثين متراً ، هذا ارتفاعه الآن ، إذن فالبون شاسع ، أما حضور كل منهما فمختلف ، وعندما ارتقيت الدرج وتطلعت إلى المنطقة المحيطة ، إلى هرم القمر القريب والأصغر حجماً ، والتلال الطبيعة هرمية الشكل ، خطر لى ، إن هذه الأهرامات ربما كانت تلالاً طبيعية فى الأصل ، ثم جرت تسويتها ، وتكسيتها بالحجر ، وماذا عن الفرق الصغيرة التى عثر العلماء عليها أخيراً؟ إنها محفورة وهذا يدعم تصورى ، إن قمة الهرم مسطحة، ولا تنتهى بنقطة نحيلة كأهرامات مصر ، فوق القمة المسطحة كان يوجد معبد فى يوم ما تمارس من خلاله طقوس العبادة . إلى وقت قريب كان الإعتقاد أن أهرامات المكسيك لا تحتوى على مدافن كأهرامات مصر ، لكن اكتشفت أخيراً مقابر داخل بعض الأهرامات ، وهنا يزداد التشابه ، فإذا كانت تفاصيل البناء مختلفة ، لكن الجوهر واحد . وأيضاً الوظيفة ، فلا شك ان أهرامات مصر كانت بناءً دينياً مرتبطاً بالطقوس والفلسفة والرؤية ، تماماً كأهرامات المكسيك .

خططت المدينة بدقة ، من فوق الهرم يمكن رؤيتها ، ملامحها ، قسماتها الرئيسية التى ما تزال أعمال الكشف جارية فيها . شارعان أساسيان هما محورها ، يتقاطعان بزاوية قائمة ، تنتشر عدة هياكل ، ومعابد ، كانت المدينة مقدسة ، تضج بالحيوية ، أكثر تقدماً من أى مدينة أوروبية فى زمنها . الشارعان الرئيسيان يشيران إلى الجهات الأربع . الشارع الرئيسي الذى يصل الهرمين كان يسمى شارع الموتى . على جانبيه اصطفت الهياكل والمعابد ، أهمها هرم الشمس ذاته ، يتقاطع شارع الموت فى وسطه بزاوية قائمة مع شارع عريض بلا إسم منقسم إلى قطاعين ، الغربى والشرقى ، يصل طوله إلى حوالى ثلاثة كيلومترات . ومن هذين تتفرع شوارع أخرى متعامدة ، بحيث تشكل شبكة متتالية ، منتظمة من المربعات . يقول الباحث السوفيتى فاليرى

غولاييف ، ان المدينة كانت حسنة التنظيم ، وإن شوارعها كانت مرصوفة بمحلول جيرى صلب كالحجر ، مد تحتها مجارى ومواسير حجرية تنقل ماء المطر إلى أحواض خاصة . وهناك الأن تصور كامل لما كانت تحويه المدينة ، بيوت سكانها ، وأسواقها ، وحى الأجانب الذى اكتشف مؤخراً . كان النشاط الرئيسي فى المنطقة هو الزراعة ، وقد تعرضت مدينة تيوتيهوا كان إلى دمار شامل بين أعوام ٤٥٠ ميلادية ـــ ٦٥٠ ميلادية . ويبدو انه جرى على أيدى بعض القبائل الرحل التى لم تكن تعرف الاستقرار ، والتى اجتاحت هذا المركز الدينى والثقافى الهام ، عندما حانت ساعة انصرافى ، فارقت المكان متراجعاً بظهرى محاولاً استيعاب الهرمين هرم الشمس ، وهرم القمر ، ويقينى الداخلى أقوى بوجود صلات ما بين مصر القديمة ، وهذه البقاع . لكن الأهرامات ليست عنصر التشابه الوحيد .

* * *

بعد انتهاء المؤتمر دعانا مدير المعهد الثقافى لمدينة موريليا إلى منطقة جبلية قريبة ، رائعة الجمال ، والمدير هندى الأصل ، يتزعم حركة لاحياء لغة قبيلته السائدة فى المنطقة ، لغة البورابتشا ، فى افتتاح المؤتمر القى كلمة بها ، ثم حرص على ان ينبهنى إلى بعض صفحات الجريدة المحلية ، تكتب بالبورابتشا فى حروف لا تينية ثم زارنى خصيصاً ليقدم إلىّ عدة كتيبات تحوى اغنيات البورابتشا ، بنوتها الموسيقية ، وقاموس صغير للغة وما يوازى الكلمات بالأسبانية ، وشريط مسجل عليه موسيقى واغان وقصائد البورابتشا ، وهناك حركات قوية لاحياء اكثر من ستة وعشرين لغة هندية قديمة ، فى محاولة لتحقيق الاتصال بالجذور ، والخصوصية فى محاولة أيضاً لوقف الغزو الثقافى القادم من الجارة الشمالية الأقوى . الولايات المتحدة . ولكن تأثيرها لا تلمحه إلا فى المدن الكبرى ، فالأساس الثقافى فى المكسيك عميق وغنى ، وقوى أيضاً ، من هنا كان الترحيب العميق ببحثى الذى القيته حول العناصر الروائية

فى التراث العربى ، تحقيق الخصوصية هدفهم الرئيسي ، وأحد همومى الأساسية أيضاً ، لكل تراثه ووجهته . لكن الهدف واحد .

دعانا المدير إلى المنطقة الجبلية المرتفعة ، طبيعة خاصة ، ثرية ترتد بالإنسان إلى بدايات الخليقة ، فوق هذا الارتفاع بحيرة باسكويرا ، بعد ابحار نصف ساعة بالقارب ذو المحرك . تلوح جزيرة خانتسيو ، البيوت فوق بعضها، الشوارع تصعد على جدران المرتفع الصخرى وتنتهى بمقبرة الجزيرة ، فوجئت فى المقبرة ، ببقايا طعام ، خبز ، وفاكهة ، وخضروات ، وقيل لنا انه فى كل سنة تخصص المكسيك يوماً للاحتفال بذكرى الموتى فى شهر نوفمبر ، وفى هذا اليوم يتجه السكان لزيارة أقاربهم الراحلين ، حاملين معهم اطارات خشبية علقوا بها كل ما كان يحبه الراحل أو يشتهيه ، يضعونه فوق المقبرة ، وعندما رجعت إلى مصادر العقائد الهندية القديمة ، وجدت انهم كانوا يضعون مع الميت فى قبره طعاماً وشراباً ، وما كان يمت إليه من حاجيات ، تماماً كالمصريين القدماء ، وهذا عناصر التشابه القوية . وأعود لا شطح بخيالى من جديد ، من يدرى ، ربما هاجرت موجات من المصريين القدماء حاملين معهم عقائدهم إلى هذه الفياق النائية مع إنهيار الحضارة المصرية القديمة وأفولها ، وعاشوا فى هذه القارة النائية التى اكتشفتها أوروبا فى القرن السادس عشر ، فدمر الغزاة ثقافات عريقة بلا رحمة . هل يفسر شطحى هذا تشابه الملامح ، والطقوس ، وعناصر الثقافة الشعبية ؟ من يدرى ؟

موريليا ..

ماذا سيتبقى عندى من موريليا ؟

أى صور ستطفو من مجاهل الذاكرة بعد مرور أعوام عديدة ؟ أى روائح ستظل عالقة بحساسة شمى ؟ . أحياناً قد يثير عبير قديم حقبة بأكملها ، وفترة ولت ، أى الأفكار سوف تستدعيها موريليا ؟. تلك المدينة ذات الحضور المتميز . الواقعة وسط المكسيك ، عاصمة ولاية ميشوكان ، على ارتفاع ستة آلاف وخمسمائة قدم من سطح البحر ، وسط منطقة جبلية ، من هنا تتعدد المستويات ، وتبدو الطرقات أحياناً كمُرْتقى ، وأحياناً أخرى كمنحدر .

لا أدرى ماذا سيتبقى ، ولكننى الآن بعد مضى حوالى ثلاثة شهور على إقامتى المحدودة بها ، أرى لحظة وصولنا المركز القديم ، ودخول العربة التى تقل الأدباء المشاركين فى مؤتمر السرد الروائي إلى الشوارع الضيقة بحثاً عن الفندق والمقر ، متاجر ، سعى متصل ، رجل يثنى ركبتيه أثناء مشيه ، يحيى شخصاً ما داخل عربة . أعى ملامحه ، والتحية ، مع ان عينى لم تقعا عليه إلا ثوانى معدودات ، ربما لأنه حل بالبداية ، أول وصولنا المدينة . والبدايات دائماً لا تمحى من الذاكرة ، كذا النهايات ، لحظة التعارف الأولى استرجعها مجسده ، جلية ، كذا لحظات الفراق ، أو إنقطاع الصلات ، سواء بمكان ، بزمان ، بشخص عزيز ، أو كريه .

التاريخ ذو حضور قوى فى موريليا ، عند إفتتاح مؤتمر السرد الروائى ، تحدث مدير المركز الثقافى بالأسبانية ، ثم تغير فجأة ايقاع خطابه . بدت لى اللغة غريبة ، تشبه ايقاع اللغة الصينية ، مال علىّ مرافقى هامساً ، انها لغة

(البورابتشا) اللغة الأصيلة لقبائل الهنود القاطنين هنا ، فى المكسيك حوالى ستة وعشرين لغة قديمة ، وتوجد حركات قوية الآن لاحيائها ، فى صباح يوم المغادرة جاءنى المدير بعدد من المطبوعات لهذه اللغة ، وتسجيلات موسيقية لأغانى البورابتشا ، ونوت موسيقية ، فى الجريدة المحلية صفحتين تصدران الآن بهذه اللغة ، طبعاً تكتب بالحروف اللاتينية ، إضافة إلى مطبوعات أخرى ، وفى كل المنابر الثقافية والاعلامية فى المدينة موقع للبورابتشا ، حوالى عشر صحف ومجلات محلية، ومحطتين للتليفزيون ، ومحطة اذاعة ، وقصر ثقافة يموج بالنشاط وفيه عقدت جلسات المؤتمر .

بالتأكيد سوف أذكر دائماً ملامح هذا الرجل هندى الأصل ، شرقى الملامح، ونضاله من أجل إحياء لغة البورابتشا . من اجله تأكيد الهوية ، والخصوصية، وعباراته التى طلب من خلالها استماعى إلى أغانى البورابتشا .

* * *

للحضور التاريخي عناصر عديدة يتكون منها . تسهم فى خلق الاحساس ، ولأننى شديد الاهتمام بالعمارة ، خاصة العمارة العربية والاسلامية . أسعى إلى التعرف على نماذجها . ومشاهدة آثارها . وخلال ترحالى أطلعت على أشهر علاماتها ، من منمنمات المغرب الاندلسية وحتى قباب سمرقند ، ومآذن ، واقواس مدرسة مير عرب فى بخارى ، واضرحة الصوفية الذين ساحوا فى البرارى والبلدان وعبروا سيمون وجيجون ودفنوا فى صحارى تركمانيا ، إلى مداخل المراقد المقدسة بذهبها وفضتها وقبابها التى يمكن رؤيتها من علو شاهق لما تعكسه من بريق ، وحتى مآذن استامبول النحيلة ، وخطوط مسجد السلطان احمد القوية ، التى تحاكى معمار كنيسة ايا صوفيا القديمة التى لم تختف معالمها بعد رغم تحولها إلى مسجد ، وحتى المساجد الصغيرة الحزينة ، الوحيدة التى قامت فى اوروبا الشرقية ، آخر حد وصلت إليه جيوش الاسلام ، أو جماعات الدراويش الذين كانوا ينشرون الدعوة ، وأخص بالذكر مسجد

صغير ، رقيق ، اسمه مسجد حسن ياكوفيل قائم الآن بمدينة (بيتش) المجرية ، اما تذكرى واستعادتى لمرقد الشيخ نجم الدين كبرى زاده فى الصحراء التركمانية النائية ، واستعادة السطور التى كتبت على جدرانه باللون الأبيض على أرضية من الخزف الأزرق الحزين ، خاصة بيت الشعر الشهير:

كأَنْ لمْ يَكُنْ بالحجونِ والصفا أنيس ولمْ يَسْمرُ مكةَ سامر

إن استعادة هذه السطور ، وتوحد الضريح لتبعث داخلى رعدة قادمة من زمن سحيق . أما معمار موريليا فأثار عندى دهشة ، ذلك اننى رأيت بوضوح التأثير العربى ، فى الأقواس الحجرية التى تحد الأرصفة فتنشئُ ممرات ظليلة يسرى فيها المارة خلال الشهور العديدة التى لا تغيب فيها الشمس ، فتسطع بقوة .

مدينة مكسيكو سيتى تقع على خط العرض الذى يمر بمدينة أسوان فى بلادى ، أى اننى عندما كنت أمشى فى شوارعها ، واشهد مظاهرات المدرسين السلمية المطالبة بزيادة الأجور ، اصطحبوا طلبة المدارس الصغار معهم . ومظاهرات ربات البيوت اللواتى حاصرن وزارة التموين يحملن أوعية الطبيخ الفارغة يقرعنها بالملاعق ، عندما كنت أرى أبناء الأثرياء يركبون الدراجات البخارية مرتفعة الثمن ، يتجمعون وسط المدينة ، عندما كنت أرى أطفالاً صغاراً ملامحهم هندية ، قد صبغوا وجوههم بألوان شتى ، يتشقلبون عند اشارات المرور سعياً وراء بضعة بيزوسات (البيزوس أقل من المليم أو الفلس)، طريقة مهذبة ، مستترة للتسول ، عندما رأيت عشش الصفيح حول المدينة ، عندما رأيت منطقة الأغنياء وبذخ العمارة الذى يشى بثراء فاحش ، عندما كنت أرى ملامح التناقضات الاجتماعية الحادة ، والغليان الذى يموج فى المجتمع المكسيكى ، عندما اطلعت على هذا كله ، كنت أقف فى نفس الوقت بمحاذاة السد العالى ، وحديقة النباتات ، ودير الانبا سمعان . والمسلة الناقصة،

وحوارى أسوان الفقيرة ، وفنادقها الفاخرة ، فما أبعد الشقة . وما أقرب تشابه الظرف .

ومرة اخرى . أسأل نفسى ، ماذا سيبقى عندى من موريليا ؟

* * *

هذه الملامح فى العمارة ، عربية الجذور ، الأقواس ، المبانى المفتوحة على الداخل ، كان الفندق الذى نزلنا فيه شبيه بخان مرجان فى بغداد أو وكالة الغورى فى القاهرة ، نوافذ مستطيلة تطل على الطريق ، مدخل فسيح يؤدى إلى حديقة داخلية جميلة تفيض رقة وخصوبة ، تتوسطها نافورة ، أما الغرف فمرتفعة الأسقف ، كذلك قاعات الطعام ، كان منزلا لاحدى الاسر الثرية فى القرن الماضى . ثم هجر . ثم حولوه إلى فندق حديث . لكن مع الحفاظ التام على طابعه القديم . استغلال أمثل وذكى ، كافة مبانى المدينة القديمة ، مقر حاكم الولاية ، قصر العدالة ، مبنى البريد ، التصميمات متقاربة ، خطوط العمارة العربية ، لست أشك فى الجذر البعيد ، إنه الأندلس ، جاء الأسبان الغزاة بتقاليد العمارة العربية ، الإسلامية ، وكانت مناسبة جداً لهذه البلاد الحارة ، وأضفى عليها الحجر ذو اللون الوسط بين الأحمر الفاتح والبنى طابعاً خاصاً ، حجارة منتزعة من الجبال القريبة المحيطة ، حيث الطبيعة ذات فرادة وتميز ، تموجات الأرض ، نبات التين الشوكى وأشجاره ، النخيل متعدد الرؤوس والذى لم أشهده إلا هنا ، قصب السكر غليظ الجذع ، يباع فى شوارع المدينة كعصير ، أو للمص ، مقسم مقشر فى أكياس صغيرة من البلاستيك ، فوق الجبال المحيطة تقع بحيرة فيلاسكويرا ، فى المنتصف منها وبعد ابحار مقداره نصف ساعة بزورق بخارى تلوح الجزيرة ، بيوتها مشيدة على مرتفع ، فوق أعلى نقطة منه تمثال للبطل المكسيكى الوطنى كارديناس ، حمله العمال والفلاحون إلى السلطة عام ١٩٣٣ ، وفى الزورق الذى أقلنا راح أبناء المكسيك من الأدباء ينشدون الأغانى التى تذكر كارديناس ، والبطل جوزيه ماريا موريلوس الذى ولد فى

المدينة عام ١٧٦٥ ، واطلق اسمه عليها ـ موريليا ـ تكريماً له كأحد أبطال حرب الاستقلال ، تفيض المكسيك بالثروة ، مساحتها تقترب من مساحة الولايات المتحدة ، ثرواتها من المواد الخام أكثر ، كذا ثرواتها الطبيعية ، ولكن النهب الاستعمارى ، وسوء النظام الاجتماعى ، والفساد ، وبطش الولايات المتحدة ، الجار الشمالى ، ويدها الثقيلة التى تشعر بها مخيمة ، هذا كله جعل المكسيك أقرب إلى العالم الثالث ، مكبل بالديون ، حوالى مائة وعشرين ملياراً ، ويبدو أنها خطة للولايات المتحدة ، اغراق البلاد التى تدور فى فلكها بالديون ، حتى يسهل السيطرة عليها ، فما البال إذا كان هذا البلد يعتبر الفناء الخلفى للولايات المتحدة، ومدخل امريكا اللاتينية كلها ، وبرغم الجار الشمالى القوى ، فلم ألحظ التأثير الثقافى الامريكي ، ولا رموزه العالمية ، مثل أرغفة ماكدونالد التى غزت موسكو العريقة اخيراً ، والكوكاكولا. وموسيقى الروك . هنا تمسك بالأصالة، بالخصوصية ، والثقافة هى الدرع الحصين ، الثقافة الهندية القديمة الموروثة من حضارات ألمايا ، والازتيك ، والثقافة الأسبانية الوافدة منذ القرن السادس عشر ، والتى تشكلت بملامح البلاد . ولا أدرى من القائل ، إنه من سوء حظ المكسيك بعدها عن الله ، وقربها الشديد من الولايات المتحدة .

* * *

ماذا يتبقى من موريليا عندى ؟

بالتأكيد .. تلك الاعلام التى تتكون من لونين ، الأصفر . والأحمر ، كانت معلقة فى الشوارع بكثافة ، ظننتها فى البداية مناسبة ما ، وعندما أصغيت إلى نداءات تنطلق من مكبرات صوت فوق عربات سريعة تجول الشوارع ، لم افهم منها إلا كلمة واحدة (السلفادورا ..) . وعندما كان يقترب منى شباب ويضعون فى يدى منشورات تدعو إلى دعم ثوار السلفادور ، ومعاضدتهم ، كانوا وقتئذ قد نجحوا فى اقتحام العاصمة ، أدركت أن (موريليا) تغلى بالتأييد لثوار السلفادور ، ثم حدثنى شباب آخرين بمرارة عن أثر السياسة الخارجية

للاتحاد السوفيتي بعد بريسترويكا جورباتشوف ، كانت الدولة الاشتراكية الأولى والعظمى تمثل حلماً انسانيا رائعاً فى المساواة ، فى انتصار المستضعفين فى الأرض ، وكان وجودها المعنوى والمادى يمثل رادعا للولايات المتحدة ، وقوة مساندة لحركات التحرر ، خاصة هنا فى أمريكا اللاتينية ، وأن ترى على الطبيعة أكثر فعالية من أن نسمع ، كافة الحركات الثورية فى أمريكا اللاتينية تتراجع الآن ، وشعورهم ان الاتحاد السوفيتى قد تخلى عن مساندتهم عميق ، وأمريكا الشمالية ترد بسرعة على مبادرات السيد جورباتشوف السلامية ، فتغزو بنما ، وتكثف من حملاتها لقمع الثورات فى بلدان امريكا اللاتينية . أما السذج من اليسار ، وخاصة فى عالمنا العربى ، فيهللون للبيروسترويكا ، ويفسقون بالكلمات ، عندما يصفونها بأنها ثورة اشتراكية جديدة ، حقاً انها ثورة .. ولكنها ثورة مضادة للاشتراكية ، للحلم الإنسانى الرائع الذى نمونا عليه ، وأعتنقناه ، ودفع كثيرون سنوات غالية من أعمارهم لتحقيقه ، وإذا بهذا الحلم والمشروع العظيم الذى قام من خلال ثورة اكتوبر العظمى ينهار أمام حضارة الويمبى ، والكوكاكولا ، وموسيقى الروك . التى تنتشر فى موسكو الآن تعبيراً عن حسن النوايا وجدية التحولات البيروستراكية ، مع أن موسيقى البلاليكا أروع وأعظم .

الحديث يطول ، وبالتأكيد فإن شجونه بلا حصر ، خاصة بعد فتح باب الهجرة أمام صهاينة الاتحاد السوفيتى لغزو ما تبقى من فلسطين . ولكن للصورة ملامح خاصة تبدو هنا فى أراضى امريكا اللاتينية ، ولكن . من يدرى، ربما تتخذ ثورات هذه الشعوب مسارات أخرى ، فيتجدد الحلم الذى أجهض فى موسكو على أيدى أبناء المايا والازتيك ، والحضارة العربية ، فقط عليهم إدراك عناصر قوتهم الذاتية . فالتاريخ لم ينته بعد .

* * *

ماذا يتبقى من موريليا ؟

طبعاً المناسبة التى جئت من أجلها ، مؤتمر أساليب السرد الروائي ، والذى

سيطـرت على محاوره هموم الادباء والمثقفين الـذين جاءوا من بلـدان أمريكـا الـلاتينيـة ، والبرتغـال ، وبعض المتخصصين فى أدب امـريكـا الـلاتينيـة من الجامعات الاوروبيـة ، وأديب واحد يمثل ثقافـة مختلفة ، وحضارة مغـايرة ، وهو كاتب هذه السطور ، أما الهموم فعكست إهتماماً بمستقبل الأدب ، ولغته ، ودوره ، وأسـاليب تجدده ، وقـد عـدت بما ألقـاه الأدبـاء من أبحـاث ، واننى لاهديها إلى اليوم السابع لترجمتها من الأسبانية ونشر نصوصها ، حتى يطلع القراء على ما يشغل أدباء القارة هناك . وظروفهم تكاد تتطابق مع ظروفنا .

* * *

ماذا يتبقى من موريليا عندى ؟

أرى الآن أول نجم يفد من عمق السماء فى الليل ، تعلق بصرى به ونحن نعبر بحيرة فيلا سكـويرا ، متجهين إلى الجزيـرة ، كان يبـدو كبيراً جداً . أكثـر مما عهدتـه في أى موضع آخر مـن العالم ، هل نكون أقـرب إلى السماء هنا؟ ، ألهذا السبب عبدوا الشمس والقمر هنا ؟

ربما .. لكن ، ما لن أنساه أبداً لمعة هـذا النجم القصى ، ولمعة أخرى ، عندما كنت أتجه إلى المطار مقلعاً إلى ديارى ، حاذت السيارة عربة أخرى تقودها شابة من تلك الأقـاصى . كان وجههـا ذو حضور قـوى ، وسمرة بشرتها غـريبة ، فريدة ، من عناصر وحضارات شتى ، ويبدو أنها شعرت بوقع بصرى . إلتفتت صوبى ، ولمعت عينـاها الجميلتـان لمعة لن أنساهـا أبداً . بعثت عنـدى رجفة ، ووعداً مستحيلاً بالوصول ، التفت إلى صديقى المصرى قائلاً ..

ـ هل رأيت هذا الجمال الفريد ..

قال مرافقى الذى يصحبنى إلى المطار .

ـ طبعاً ..

قلت إننى من خـلال هذه اللحيظـات العـابرة يمكننى أن أضع فيهـا كتابـا كاملاً، وإننى لأعنى ما أقول !

متتاليات هولندية

فبراير ١٩٩١

.. أتوق إلى السفر ، حتى إذا واتت الفرصة ، ودنا موعده يبدأ الاكتئاب ، وخشية المجهول ، والإنقطاع عن العادة والمألوف ، والتردد ، تلك مشاعر وأحاسيس تقوى عندى خلال السنوات الأخيرة . وهذا ما اشتد عندى كلما اقترب موعد سفرى إلى امستردام فى العاشر من فبراير ، ومما ضاعف الأمر بدأ الحرب فى الخليج العربى . فالظرف العام مضطرب أيضاً . لم يكن فى حسبان القائمين على تنظيم مهرجان الأدب العربى اشتعال الحرب . إذ بدأ الإعداد له منذ عام تقريباً ، عندما تلقيت أول رسالة لحضور هذا المهرجان ، كان ذلك قبل غزو العراق للكويت فى اغسطس الماضى .

ثمة عامل آخر طارئ ، اضطراب خطوط الطيران . المسافرون قلة ، ومنطقة الشرق الأوسط اعتبرت خطيرة ، وبعد أن كانت هناك رحلة واحدة يومية تقوم بها الشركة الهولندية ، إنخفضت الرحلات لتصبح مرة واحدة اسبوعياً ، فجر الأحد ..

إذن .. ماذا لو تصاعدت حدة القتال ؟

ماذا لو شمل الشرق الأوسط كله ؟

أسئلة مطروحة ، وكافة الاحتمالات قائمة ، إذن .. من الممكن أن القى نفسى فى اوروبا منقطعاً عن الوطن ، وما من وسيلة عودة . مصر للطيران ألغت رحلاتها لعدم وجود ركاب . الشركات الأجنبية خفضت رحلاتها .

قبل سفرى بيومين إتصل بى عبد الرزاق السبايتى رئيس مؤسسة

«الهجرة» المنظمة للمهرجـان ، كان يتأكد من موعد سفرى . قلت لـه انه توجد طائرة واحـدة فى الاسبوع تقلع فجـر الأحد وهذا يعنى أننـى سوف أصل قبل الموعد المحدد بثلاثة أيام ، إننى لا أرغب فى أن أكون ضيفاً ثقيلاً ، يمكن أن أصل بالطـائرة التـالية للافتتـاح .

قال إنـه من المهم جداً حضـورى الافتتاح الذى سـوف يشـهده مسئـولون هولنديـون كبار ، فى مقدمتهم وزيرة الثقافة ، وعمـدة مدينة امستردام ، ثم أن أول نشاط للمهرجان مخصص لى فى ليلة الافتتاح .

عـدت أستفسر منه عن الظـروف السـائدة فى أوروبـا الآن ، وما أقـرأه عن استنفار المشاعر المضادة للعرب ، والعنصرية .

قال إن أهميـة إنعقاد المهـرجان تأتى هنـا ، فمن المهم القيـام بهذا النشاط الثقافى الذى يبرز الوجه الإيجابى للثقافة العربية .

هكـذا .. لم تعد هنـاك حجـة ، ولأننى أعرف سخـافـة الاعتذار فى اللحظـة الأخيرة ، وما يترتب عليـه من اضطراب البرنامج المعد ، ولأننى مـؤمن بأهمية هذه اللقاءات التى تخدم الثقافة العربية فى الغرب ، ولأننى كنت أمر بأيام كئيبة منذ بداية الحرب . عزمت أمرى ، وتوكلت على الله ..

* * *

موعد إقلاع الطائرة فى الثانية صباحاً بعد منتصف الليل .

وصلت مطار القـاهرة فى الحاديـة عشرة والنصف . افضل الذهـاب مبكراً لإنهاء الإجراءات ، ثم المثول فى حالة إنتظار ، كان المطار مزدحماً ، كافة رحلات الطيران القـادمة والـذاهبـة إلى أوروبـا تتم ليلاً ، لا تمكـث الطائرات إلا وقتـاً ضئيلاً، اللازم فقط لنزول الركـاب والتموين . فالتأمين على الطائرات مرتفع ، ولكننى لم أعرف سر الرحلات الليلية، ولماذا لا تتم إلا ليلاً، كان الزحام شديداً أمـام المدخل، وعنـدمـا سألنى شرطى الحراسـة عن وجهتـى، أجبتـه، قـال بإختصار ..

ـ لقد تأخرت الرحلة وتأجلت إلى الغد ..

مفاجأة غير سارة .

فالسفر حالة ، يبدأ التأهب لها قبل موعده بأيام ، وحتى الآن برغم تعدد مرات رحيلى لم أتكيف بعد مع ظروف التغيير المفاجئ فمازلت احتاج وقتاً كافياً لترتيب أوراقى ، وتقبل التغيير الذى سيطرأ على برنامج قراءاتى وكتابتى. كثير من زملائى الصحفيين يمضون إلى المطار وكأنهم يقصدون احدى ضواحى القاهرة وليس بلاداً بعيدة .

عندما خرجت مرة أخرى من المطار ، مضيت إلى موقف عربات الاجرة أمام صالة الوصول ، السيارات تصطف فى طابور طويل ، عندما وصلت الى العربة الأولى طالعنى وجه السائق الذى بادرنى قائلاً :

ـ كل تأخيرة وفيها خيرة ..

لاقت الجملة عندى موقعاً حسناً ، تلك المبادرات المصرية التى تشيع الحميمية وتسهل الصلة ، أذكر وجوه سائقى العربات فى المطارات الأجنبية ، اعتصامهم بالصمت ، برودهم . وإجاباتهم المختصرة ، أذكر أننى كنت عائداً من دولة اوروبية منذ فترة ، وبمجرد نزولى من سلم الطائرة . سمعت سائق العربة التى تنقل الركاب إلى مبنى المطار .

ـ تعالوا هنا بالصلاة على النبى ..

ترقيق الحوار . لنر تحية الصباح فى مصر . خاصة فى الأحياء الشعبية ، «يا صباح الفل» ، «يا صباح الجمال» ، «نهارنا فل» «نهارنا قشطة» ، «نهارنا أبيض» ، «يا صباح الورد» «يا صباح اللبن» .... الخ .

فى اللغات الأخرى تعبير واحد مقتضب ، وإذ أتذكر طفولتى فى الجمالية ، أستعيد رنة البشر فى أصوات التحية تلك ، وأرى اقبال البسطاء على الدنيا رغم عسر الأحوال .

فى الطريق قال لى السائق إنه يقف مكانه منذ الثالثة عصراً ، حركة المسافرين

محدودة جداً ، والليلة بالذات لم تصل أى طائرة من اوروبا ، يعرف السائقون حركة الطائرات ومواعيدها وربما نوعية ركابها ، فالقادمون من البلدان العربية يختلفون عن أولئك الذين اقلعوا من أوروبا وامريكا .

لماذا لم تصل الطائرات الليلة ؟

هل هو سوء الأحوال الجوية كما قيل ؟

أو انها أسباب اخرى تتعلق بالحرب ؟ بالهجوم البرى المنتظر ، أو أى تطور آخر ..

* * *

الأحـــد :

بالتأكيد .. لم يكن السبب أمس سوء الأحوال الجوية . عندما اقتربت الطائرة من مطار امستردام لم يكن ممكناً رؤية أى شيئً خارج نافذة الطائرة ، ضباب كثيف فى كثافة اللبن ، وعندما لامست العجلات الأرض كان من الصعب رؤية نهاية الجناحين الممتدين لغوص أطرافهما فى الضباب . الجليد يغطى الأرض عدا الممرات ، المصابيح ترسل أضواءاً صفراء شبحية ، يبدو الواقفون فى المطار يرتدون ثياباً ثقيلة تتوقف الطائرة تماماً ، ونمضى عبر الأنبوب الطويل المؤدى إلى المطار ، اللون الأصفر هو الغالب ، لم تستغرق الاجراءات إلا دقائق ولكننى لاحظت أن البعض يتم وقوفهم جانباً بعد ملاحظات من ضباط الجوازات ، التدقيق قائم فى كافة المطارات الاوروبية بالنسبة للعرب ، والعرب هنا يعاملون ككل ، كجنس ، وليس كدول ، لا فرق بين سعودى ، أو مغربى ، أو مصرى ، أو سودانى .

خارج المطار لمحت عبد الرزاق السبايتى ، لم نلتق من قبل ولكن ملامحه العربية كانت كافية لكى أتعرف عليه ، بسرعة قارنت بين ملامحه الشابة . إذ لا يتجاوز عمره الخامسة والثلاثين . وبين صوته الذى عرفته فى الهاتف والذى يوحى أنه أكبر سناً .

عبد الرزاق جاء إلى هولنده منذ حوالى ثمانية عشر عاماً كمهاجر بحث عن عمل ، والجالية المغربية هنا أكبر الجاليات العربية تليها الآن الجالية المصرية حيث يوجد حوالى عشرين ألف مصرى كلهم من الشباب ، ومعظمهم جامعيون، يعملون فى مهن شتى ، بدءاً من المطاعم وحتى مكاتب الترجمة .

افتتح عبد الرزاق مكتبة لبيع الكتب والاسطوانات العربية ، إنها الوحيدة فى امستردام . ومن خلالها أسس هو وزوجته الهولندية السيدة سيمون مؤسسة الهجرة ، وبالتعاون مع عدد من المستعربين الهولنديين أساتذة الأدب العربى فى الجامعات الهولندية ، وعرب آخرين ، حيث تعنى المؤسسة بتقديم الثقافة العربية ، تدريس اللغة العربية لأبناء المهاجرين وللهولنديين الراغبين ، ومن بين انشطتها تنظيم هذا المهرجان الذى جئت من أجله ، مهرجان الثقافة العربية، والذى يعقد مرة فى كل سنة ، إنه الرابع ، وتحصل المؤسسة على إعانات مالية من وزارة الثقافة وبلدية امستردام وجهات ثقافية أخرى يتم من خلالها تمويل نفقات المهرجان ،، فى هذا العام سيحضر أيضاً الشاعر الفلسطيني أحمد دحبور ، والقصاصة الفلسطينية ليانة بدر . والمغربية خناثة بنونة ، ومن باريس يجيئ فنان الخط العراقى حسن المسعودى ، وفرقة جمال علام التى تقدم الموسيقى البربرية أو كما تعرف فى شمال إفريقيا بالأمازيغية .

كنت أول الواصلين ، ومن المطار إلى الفندق اتصلت بيننا الحميمية . تحدثنا عن الحرب ، وعن الطقس ، إن الجليد نادر هنا ، لقرب الاراضى المنخفضة من البحر ، ولكن هذه العاصفة الثلجية تهب منذ أيام ، والجليد بالنسبة لى غريب، أول مرة رأيته أثناء سقوطه كان ذلك خلال الأيام التى تلت حرب أكتوبر عندما سافرت إلى سوريا لاعداد تحقيقات صحفية عن الحرب ، وأثناء الليل فى الطريق من دمشق إلى اللاذقية حيث قاعدة القوات البحرية ، هبت عاصفة ثلجية ولأول مرة أقابل ندف الثلج المتساقط من الفراغ ، وكان مشهداً عجيباً بالنسبة لى ، أنا القادم من بلاد الدفء والشمس . فيما بعد اشهدته

مراراً، فى بـاريس عـام ١٩٨٢ عندما مضيـت لمناسبة صـدور ترجمة كتـابى «الزينى بركات» إلى الفرنسية ، كان ذلك فى يناير ، وكانت أوروبا تمر بعاصفة مماثلة ، وفى عـام ١٩٨٧ رأيت الشتاء الروسى المكين فى موسكـو، حيث يرتفع الثلج أكثر من متر فى الطريق . واغرب ما عرفته وقتئذ سباحة الأطفال والشباب فى الجليد ، فى حرارة تقل عن الصفر بثلاثين درجة، وقد اطلعتنى أدبية روسية على صور لها بالمايوه وهى تسبح فى الجليد، وحتى الآن غير قادر على إستيعاب ذلك بالمخيلة .

يكون الجليـد جميلاً ورائعاً وغـريباً إذا تأملت سقـوطه أو انبساطـه فوق الموجودات من مكـان دافئ مغلق عبر الزجـاج ، ولكن المشى فيه مـرهق لمن كان مثلى ، حتى مع الاستحكـامات ، مثل الملابس الصـوفية ، والسراويل الـداخلية الطويلة التى لا يتخلى عنها أهل الـريف فى مصر طوال الشتاء . وغطاء رأس من الفراء على الطراز الـروسي . لا أذكر من القائل : تكون العاصفـة جميلة إذا كان البيت قوياً .

مع إقترابنا من الفنـدق ، قال عبـد الرزاق إن الجهات الـرسمية فى هـولنده حريصة على نجـاح المهرجان الذى يعقد فى ظـروف دقيقة ، وفى أجواء الحرب الممتدة مـن الخليج إلى هنا ، إلى سـائر أنحاء أوروبـا ، قال إن الجهـات الأمنية اتخذت كافة الاحتياطـات ، وعندهم خبر بما سيتم ، لكنه يفضل أيضاً ألا أخبر أى شخص بمكان الاقامة ، إذا كان ولابد ثمة اتصال فليتم عن طريق مؤسسة الهجرة .

أصغيت بحرص ، محافظاً على تعبيرات وجهى جامدة ، وإن ساورنى قلق ، فالغريب يكون ضعيفاً مهما كان . وبالطبع قفزت إلى ذهنى حالات اغتيال تمت فى الفنادق . مثل هـذه الهواجس تزداد خـاصة بعد الانفـراد ، وقبل الاستعداد للنوم ، ولكـن فى كل الاحوال يجب ألا أسمح بـازديادها عن حـد معين حتى لا تفسد أيامى هنا ..

قــال عبد الــرزاق انه سيأتى فى الصبــاح ليصطحبنى ، وغداً سـأتعـرف إلى استــاذ الأدب العــربى فى جـــامعـــة امستردام الحرة الــذى سيجيئ ليصحبنى خصيصاً .

بعد ذهابه رحت أتأمل الغرفة .

الفندق إسمه أوّل ، أى البـومة ، وفى كل ركن منه يطالعـك تمثال أو صورة للبومة ، بـوم أنيق ، فسيح العينين يطل من فوق لوحة المفــاتيح ، أو من أركان الحديقة الخلفية الصغيرة التى تطل عليها نافذة الغرفة .

كم حجرة غريبة نزلت بها عابراً قبل هذه ؟

كم منذ ان بــدأت السفر فى أوائل الستينيات؟ عندمــا كنت طالباً بالثــانوى ، خاصة بعد عملى كمصمم للسجاد فى مـؤسسة التعاون الانتاجى ، وسفرى إلى القرى والمحافظــات لمتابعة تنفيذ التصميمات فى وحــدات السجاد ، تلك الفنادق المتواضعة ، والقــرى النائية ، ثم تكرار سفرى إلى البلدان العــربية والأوروبية منذ عام ١٩٧٣ . لا حرص لى ، ولا شرط لى عند تلقى أى دعوة إلا النوم منفرداً، فى حجــرة بمفردى ، إن الإنســان يكون أشــد وحــدة عند نــومه . حتى ليتخــذ معظمنا وضع الجنين فى الرحم ، وأكره أن يشاركنى من أجهل الفراغ الذى تتم فيه هذه الوحدة .

صعب على الذاكرة احصاء الغــرف التى آوتنى ، فقد طوفت كثيراً . وأقلعت مراراً .

الغرفة مستطيلة ، ضيقة ، سرير ، صــوان ، مكتب ، مقعد واحد ، تليفزيون كــان باستطــاعتى عبره أن أرى خمسة وعشريــن قناة مختلفــة ، منها القنــاة الأمريكية السى ان ان . والتليفزيون البريطانى ، القناة الأولى والثانية ، وقنوات اخرى إيطالية ، وألمانية ، وفرنسية ، وبــالطبع هولندية ، بالطبع لم أكن أتوقف عندهــا كثيراً لجهلى باللغة . ولكم اقتصت متــابعتي أخبار الحرب من ســاعات نومى القليلة ، كنت أعــود متأخراً ، فى الواحدة أو الثانية صبــاحاً ، وأبدأ التنقل

بين القنوات ، وافاجأ بالرابعة صباحاً أو الخامسة قد أدركتنى بينما يجب أن أستيقظ مبكراً لمتابعة برنامج المهرجان .

بسرعة تآلفت مع الغرفة رغم بساطتها ، أزحت الستائر عن النافذة المستطيلة ، كان الفراغ جليدياً ، الأشجار مكسوة باللون الأبيض ، أضواء خافتة كالهمس تبدو من نوافذ البيوت القريبة . السماء مقنعة بضباب كثيف . أعود إلى الفراش . الساعة الآن فى القاهرة متقدمة ، فارق التوقيت ستين دقيقة ، نحن أقرب إلى موضع شروق الشمس ، كل ما امر به فى ترحالى أحيله إلى أصلى . فالقاهرة عندى هى الأصل ، وموطنى هو المرجع الأول .

أرى بعيني عقلى بيتى فى هذه اللحظات . السكون المخيم عليه ، اتخيل الطريق الممتد تحته ، وأضواء جبل المقطم التى تبدو عند الأفق .

أصغى إلى أصوات المكان الجديد ، أحاول أن أفسرها وأنسبها إلى مصادرها، حتى اعتاد عليها ، لكل مكان أصواته ، الخاصة ، وهسيسه .

لم أدر اللحظة الفاصلة بين اليقظة والنوم .

أول وسنى فى عاصمة البلاد المنخفضة ..

* * *

الاثنـــين :

فى الصباح استعيد اكتشاف الموجودات . حقاً .. النهار له عينين ، مهما بلغت قوة الاضاءة وتعود المصابيح الليلية ، ازيح الستارة ، أتجول ببصرى مطولاً فى الحديقة الصغيرة التابعة للفندق ، تنتهى بحجرة من خشب أبيض الطلاء ، اتطلع إلى الساعة ، لابد أن الحصة الأولى فى المدرسة انتهت الآن ، هناك فى مصر.

فى نهاية الحديقة الصغيرة مصباح على الطراز القديم يقوم فوق عامود حديدى . مازال مضاءً ، أطيل النظر إلى ما تقع عليه عيناى خلال إقامتى هنا ، وكم من نوافذ تطلعت عبرها فى مدن شتى ، ودائماً أتذكر اللحظات الأولى التى

يلم فيها بصرى بـالمشهد الذى سـأفارقــه بعد إقامتى المؤقتة ، ويـوميا أطل ، فى الصباح ، وإذا عـدت إلى مكانى فى الظهيرة ، وليلاً قبل النوم . وبعـد مغادرتي ، يتحول الموضـع الى مادة تغذى الذكريات ، وبعد ان كنت أطل على الموجودات من خلال نوافذ مؤطرة ، تحدد الرؤية والمجال ، أطل من خلال ثقوب ذاكرتى التى لا ترى ، فأرصــد بعض الملامح بوضــوح ، واجتهد فى إستعادة الآخــر ، وعبثاً أحاول تــرتيب الأشياء كما كنت أراها فى وقــت تطلعى ورؤيتى . فربما تختفى علامــة ضخمة أو مبنى ما زال قائماً ، ولكـن للذاكرة قانــونها الخاص . أفارق الحجرة ، مفضلا النزول إلى الطابق الأول عبر السلم الخشبى ، مؤتنساً بصرير الدرج تحت حذائى .

ألج قــاعة الطعــام ، مجاورة تمامــاً للحـديقة ، مـؤديــة إليها ، الحشــائش الخضراء تطل عبثــاً عبر غطــاء الجليد الأبيـض الذى بلغ سمكــه حــوالى العشر سنتيمترات .

اختار منضدة فى مواجهة الأشجـار العتيقة ، والحديقة التى أطل عليها من غرفتى ، لكننى الآن جالس فى مواجهتها تماماً ، الآن لا أذكر الوجوه التى كانت، لكننى أثق أن منضــدة كان يجلس إليهــا رجل عجوز وسيــدة ، الرجل طــويل ممتلئ ، والسيدة نحيلة ، مجعدة العنق ، وكانا صامتين . هنا يعتصم كل إنسان بوحـدته ، بنفسه ، فى بلـدى يتم التواصل بسرعة ، لا أدخل مطعماً فى القــاهرة القـديمــة إلا وأبادر الجالسـين بــالســلام ، فيردون التحيــة بأحسن منهــا ، ثم يشيرون إلى ما وضـع أمامهم إن كانــوا سبقونى ، ويقولون : تفضل . فأجيب : بالهنا والشفا.

وإذا شاركت أحد المنضدة ، فقـد يمتد الحوار بيننا ، وأذكر أننى أطلعت على حيــوات كاملــة فى مثل هــذه اللقــاءات العابــرة التى تتم فى المطــاعم، المقــاهى، القطــارات ، صالات الانتظــار بعيادات الأطبــاء ، وتكــون فاتحة الكــلام دائما بالسؤال عن البلـدة أو الحى الذى ينتمى إليه الآخر ، فإذا قــال إنه من الصعيد

مثلاً أبادر قائلاً : اجدع ناس ، ثم اتبع الثناء بالسؤال عن البلدة ، فإذا قال مثلاً: أبو قرقاص . أقول متسائلا : تعرف فلان ؟ ويبدأ الائتناس وقد تنشأ الصلة .

فى أوروبا لا تجرى الأمور هكذا ، قد يجلس الإنسان بمفرده ساعات فى المقهى . أو فوق مقعد الحديقة ، معتصماً بصمته ، محدقاً بملامحه الجامدة إلى الفراغ . لا يتبادل الحديث مع من يجاوره ، أو يمر به ، وربما مع صاحبه نفسه..

هكذا .. أوليت وجهى تجاه الحديقة محاولاً تثبيت المكان الذى ربما لن أراه مرة أخرى بعد أن أفارقه فى ذاكرتى .

- صباح الخير..

تحية بالعربية ؟ رفعت رأسى مبتهجاً ، تقف فتاة شرقية الملامح . مبتسمة ،.قلت وقد تبددت وحشتى ..

- صباح الفل .. مغربية ؟

- لا .. مصرية مغربية .. أبى مصرى وأمى مغربية ..

- مهاجرون ؟

- نعم .. أبى جاء إلى هنا منذ عشرين سنة ..

- أنتم أصحاب الفندق ؟

ضحكت . وكأن ما قلته كثير جداً عليهم ..

- لا .. اننى أعمل هنا لمدة يوم واحد فى الاسبوع ، عطلتى من الجامعة .. والدى كان يعمل فى التجارة ، ولكن منذ أن بدأت الحرب كسد كل شيئ. وهو الآن فى البيت ..

ثم قالت

- بلا عمل !

أبديت أسفاً ، سألتنى ..

ـ شاى أو قهوة ؟

ـ قهوة ..

لا أشرب القهوة إلا خلال السفـر ، الشاى فى اوروبا خفيف ولا يقنعنى ، بل فى كل الفنادق ، أين مـن الشاى الثقيل المعطر بـالنعناع ، لهذا اعتبر القهـوة هنا بديلاً للشاى .

عـادت بصنيـة الإفطار ، وفى اليـوم التـالى أدركت أنها اتت لى بـوعـاء أكبر للقهوة، وبعلبتين صغيرتين لعسل النحل ، بادرة كرم لما يمكنها القيام به ، كانت تـروح وتجيئ بين النـزلاء ، ثم تعـود لتتـوقف عنـد المنضـدة ، وتحدثنى عن زيارتها السنويـة لمصر ، وقضائها شهر رمضـان كله فى القاهرة وبـورسعيد مسـقط رأس والدهـا ، ولكنهـا فى هــذه السنة ليست متأكـدة من امكانيـة السـفر..

قلت إن رمضـان فى مصر شهر لا مثيل لـه فى أى مكان بالعـالم ، بما فى ذلك العالم العربى .

أومـأت متحمسـة . بعـد تنـاولى افطـارى قمـت إلى ركن صغير أمـام التليفزيون ، كنت فى انتظار عبـد الرزاق السبايتى ، رحت اتابع أخبار الحرب فى الخليج . وبين الحين والحين كـانت الفتاة تظهـر فى مجال رؤيتى فتهز رأسهـا محيية ..

* * *

اغادر الفندق بصحبة عبد الرزاق ، تلك شوارع تقع عيناى عليها لأول مرة ، أحاول تثبيت بعض العلامات البارزة فى ذاكرتى حتى إذا ما اضطررت للعودة بمفردى لا أضل طـريقى ، أهم علامـة فندق الماريـوت الضخم ، كان يطل على شـارع فسيح يجرى فيـه التـزام . إن استيعـاب المدن يتم على مهل ، ومـا من وسيلة للتعرف على النواحى ، والمنحنيات والمعالم مثل المشى . وعند نزولى بلداً لم أبلغه من قبل أجتهد لاستكشاف ملامحه ، وإقامة الصلة به .

نزلنا من السيارة فى شارع فرانس هالتز ، إنه العنوان الذى كنت أكتبه على رسائلى التى أجيب فيها على عبد الرزاق ، لقد تحولت الكلمة إلى مبانى متجاورة، متشابهة ، ومجموعة من المتاجر لا توحى بتخصص الشارع فى نشاط معين ، إنما هى تلبى احتياجات السكان ، بقالة ، حلاق ، محل يعرض أنواعاً مختلفة من الجبن ، تحت المبنى رقم ٥٩ تقع مكتبة الهجرة ، فى وسط هذه اللافتات المكتوبة بالهولندية ، أو الدوينن كما تعرف ، وهى لغة ايقاعها فى الاذن قريب من الألمانية ، ولكن يكثر فى كلماتها حرف الفاء ، وليس الخاء . بين هذه اللافتات نقرأ بالعربية .

«مكتبة الهجرة ..»

تذكرت مكتبات مماثلة فى باريس ، تقع معظمها فى الحى الخامس قرب السوربون ، والمكتبة العربية فى برلين ، النشاط الرئيسى هنا هو تعليم اللغة العربية لأبناء المهاجرين ، المكتبة أيضاً ملتقى لكافة المهتمين بالأدب العربى ، من أساتذة وطلاب ، فى الداخل كانت زوجة عبد الرزاق واسمها سيمون ، هولندية ، حازمة ، واضح أنها تدير شئون العمل ، تجلس دائماً أمام جهاز كمبيوتر ، وتجرى حسابات وتكتب خطابات ، وتعد القهوة بين الحين والحين للضيوف .

كانت هناك أيضاً المستعربة جوكا ، وهى شابة جميلة ، شعرها فاحم السواد ، شديدة الحيوية ، تدخن بعصبية ، وإذ أذكرها أستعيد عينيها الواسعتين السوداوين ، وإمساكها للسيجارة بعد وضعها فى زاوية فمها ، وترفع رأسها ثم سحب النفس بعمق شديد ، كذلك لازمة الكلام عندها عندما تصغى ، إذ تهز رأسها وتقول : أيوه . طبعاً ايوه مصرية صميمة ، إذ أنها قضت عامين متصلين فى مصر .

جوكا كانت زوجة لريتشارد فان ليون وهو أنشط مترجم للأدب العربى فى هولنده ، ترجم عدداً هاماً من الأعمال الهولندية وبعد إنفصالهما احتفظا

بعلاقة صداقة ، وعلى الرغم من الصعوبات التى واجهت جوكا بعد عودتها من مصر ، مثل عدم حصولها على عمل ، فإن ريتشارد كان عوناً لها على الظروف الصعبة ، فى الحادية عشرة جاء الدكتور فام دافن استاذ الأدب العربى بجامعة امستردام الحرة .

يصغرنى بأربعة أعوام ، ومع ذلك يبدو أكبر سناً ، هادئ ، واضح الثقة ، خفيض الصوت ، بعد قليل خرجت بصحبته ، مضيناً تحت الثلج المتساقط ، كنت أتوغل على مهل إلى روح المدينة . دليلى واحد من سكانها ومن عشاقها أيضاً ..

* * *

انها مدينة الضفاف المستمرة ، والجسور المتتابعة .. المياه تتخلل اوصالها وأطرافها ، البيوت تطل واجهاتها العتيقة على القنوات الفسيحة التى تمتد وتتعرج فيتبعها التكوين المعمارى الفريد .

بدأنا فى الثانية عشر ظهراً . وانتهت فى الخامسة مساء ، سيراً على الأقدام . وتحت ثلوج متساقطة كانت تكسو المعطف الأزرق بلون أبيض كأنه ندف القطن ، أما فام دافن فبدا معتاداً على الطقس الثلجى . بدون غطاء رأس ، لكل مدينة أشخاص يعرفونها إلى درجة العشق . يحفظون المعالم الهامة والنواحى المؤدية والميادين الجامعة ، والمبانى التى جرى فيها ذلك الحدث أو ذاك . من خلاله رأيت علاقتى بالقاهرة القديمة التى أعرفها شارعاً شارعاً ، وحارة حارة، وأثراً أثراً .

امستردام تستدعى إلى الذاكرة بطرسبرج القديمة ، ليننجراد الحالية[1]. بما يتخللها من قنوات مياه تحاكى فينسيا ، ولكن لينجراد مدينة ملكية فى الأصل ، ضخمة ، قنواتها صناعية أراد بطرس الأكبر أن ينافس بها مدينة البندقية ،

---

(١) مع التطورات السريعة فى روسيا ، عادت ليننجراد إلى إسمها القديم وقت طبع هذا الكتاب.

ولكن قنوات امستردام شرايين حية متصلة بالبحر الذى يعلو مستواه عن مستوى البر ، فرمضوه بالسدود العديدة ، الأرض هنا منتزعة من البحر ، بحر الشمال القريب . أمستردام انثوية الحضور ، مضمومة على نفسها ، انثى جميلة تبدى الحياء والخفر ، وإن كانت تسفر عن فجورها فى لحظات مرتبطة بأماكن محدودة ، فكأنها نزوة مريضة .

المبانى متجاورة ، متساوية الارتفاع . لا توجد أبراج إلا فى المناطق الحديثة.

لا يوجد تاريخ محدد يمكن ارجاع تأسيس المدينة إليه ، مثل القاهرة التى يحدد التاريخ سنة وشهر ويوم .. بل ولحظة الغروب التى بدأ فيها وضع أساسها المتين . تقول الحكايات المتوارثة هنا أن اثنين صيادين وصلا إلى المكان بصحبة كلبهما بعد أن اضطرا إلى النزول من قاربهما اثر عاصفة عنيفة قطعت رحلة صيدهما فى البحر ، استقرا عند بداية نهر امستل ، أعجبهما المكان . مضيا فى طلب أقاربهما ، وهكذا .. كانوا نواة التجمع البشرى الذى أقام المدينة ، كان لابد من بناء سد لحماية البيوت من البحر والعواصف ، وهكذا تشكل اسم المدينة من النهر (امستل) ومن السد (دام) . والميدان الكبير الذى يطل عليه القصر الملكى الضخم اسمه ميدان السد . كان في البداية امستلدام . اى سد نهر امستل ، ثم تغير مع الزمن ليصبح امستردام . ولأول مرة تذكر المدينة فى وثائق تحصيل الضرائب عام ١٢٧٥ ، بالتحديد فى ٢٧ اكتوبر . وفى القرن السابع عشر أصبحت مركزا تجاريا عالميا . خاصة بعد انطلاق الهولنديين إلى ما وراء البحار واستعمارهم لأندونيسيا (أكثر من ١٥٥ مليون نسمة) وسورنيام فى أمريكا اللاتينية وبعض مقاطعات البرازيل .

من ميدان السد كانت نقطة انطلاق المدينة ، لم يكن هنا فى البداية إلا مجموعة من بيوت الصيادين ، الآن تطل عليه المبانى الحديثة فيما عدا القصر الملكى الذى يتكون من ثلاثة طوابق ضخمة وتعلوه قبة هائلة . بنى فى الفترة من ١٦٤٨ وحتى ١٦٥٥ ، فى الوسط يرتفع نصب تذكارى لتحرير المدينة من

الاحتلال النــازى الذى استمر خمس سنــوات استمرت حتى عــام ١٦٤٥ . ما تزال هناك بيـوت قديمة بنيت فى القرنين الـرابع والخامس عشر بعضها تحول الى متاحف ، والآخر ما زال مسكوناً .

تبدو الشــوارع فى البدايــة متشابهة ، فــالواجهــات كلها تطـل على القنوات العريقــة التى تجمعت فيها الميـاه فتحولت إلى طبقــة سميكة من الثلج . انـدفع الكثيرون ليمارسوا هواية التزحلق ، بينما وضـع أحدهم مقعداً ضـخماً قديماً فى عرض القناة وجلس عليه ، أما المراكب النهرية فتوقفت فى مراسيها لا تستطيع الحركة . ولكن بعضهــا ثابت ، يستخدم كمســاكن ، مثل العوامات التى نـراها عند شاطئ امبــابة، فى امسـتردام أزمة سكن حادة أيضــاً ، والايجارات مرتفعة جداً ، وهنــاك أيضاً مشكلة أمــاكن انتظار السيــارات ، الأرض محددة سواء فى الانبساط أو العمق ، ولا يمكن بناء أماكن لايواء العربات تحت الأرض لأن الماء بعد مسافة قصيرة من الحفر سرعان ما يظهر ، لهذا انتابنى احسـاس أن المدينة كلها تسبح فوق الماء . الطرق المحاذية للقنوات ضيقة جداً ، ومع ذلك قسمت إلى ثلاث شعب ، الأولى للمشــاه والثانيــة للدراجــات ، والثالثــة للعربــات ، ترتفع الطرقــات ارتفاعــاً محدباً طفيفــاً فى بعض المسافــات ، لكن الأرض فى عمــومها منبسطة ، لا توجد فى هولنده كلها ارتفــاعات حادة ولهذا كان غريباً أن نرى فى بعض لــوحات الفن التشكيلى التى رسمت فى القــرنين السادس والســابع عشر مناظـر من الريف الهولندى تتخللهــا جبال مكسوة بــالخضرة ، لقد استحضر الفنانون مشاهد طبيعية من بلاد أخرى .

يصل ضفــاف المدينــة ببعضها أكثــر من مــائتى وخمسين جسراً صغيراً ، نصفها مخصص للمشاة ، وكل منها لا يخلـو من لمسات فنية ، وبعضها خلده الفنان العظيم فــان جوخ والذى تـزهو المدينــة بوجود متحف خــاص لأعماله الشهيرة ، بناء المتحف نفسه اقيم على الطراز الحديث جداً .

فى جولة تــالية زرت بصحبة فام رافن متحف الفنـون الجميلة ، وهو مبنى

ضخم كان فى الأصل مقراً ملكياً ، لقد قرر نابليون بعد احتلاله هولنده أن يجعل من أمستردام عاصمة ثقافية ، ومن هنا كانت بداية هذا المتحف الذى يجمع عدداً كبيراً من أعمال المصورين الهولنديين ، خاصة رمبرادنت أحد عمالقة الفن العالمى ، كما يضم أقساماً أخرى للأثاث ، والتحف المعدنية والخشبية ، ولكننى للأسف لم أجد فيه لوحة واحدة لأعظم فنان انجبته هولندا فى رأيى وهو بيتر بروجل الذى عاش فى القرن السادس عشر ، وقد تنبهت إليه أول مرة عندما كتب الصديق علاء الديب مقالاً نقدياً عن روايتى وقائع حارة الزعفرانى عام ١٩٧٦ ، وأشار فيه إلى وجود شبه بين شخصيات الرواية وبين شخوص بروجل ، وعندما طالعت اللوحات فى الكتب التى حصلت عليها خلال أسفارى أدركت دقة ملاحظة علاء الديب ، ورحت أتعقب لوحاته المتناثرة فى متاحف العالم ، وأقتنى نماذج لها بالحجم الطبيعى مطبوعة على قماش تحاكى الأصول تماماً ، فى بودابست توقفت مطولاً أمام لوحتين نادرتين له فى متحف الفنون الجميلة ، الأولى لصلب المسيح ، والثانية ليوحنا المعمدان يخطب فى الناس ، تخلو كلاهما من القدسية التى تجدها فى سائر اللوحات الاوروبية التى تصور المشاهد الدينية ، فالناس عاديون ، والأحجام بشرية ، والتعبيرات على الوجوه يمكن أن تراها فى أي زمان ومكان . برع بروجل فى تصوير الحياة اليومية للفلاحين والبسطاء والشحاذين والأعياد الشعبية ، فى الارميتاج بلينجراد رأيت عدداً من لوحاته ، وكنت أتوقع أن أجد بعضها فى هولنده لكنها للأسف خرجت كلها إلى البلدان الأخرى ، فى أمستردام لم نجد لوحة واحدة ، وبعد يومين أخبرنى فام رافن أنه توجد لوحتين فى متحف مدينة روتردام ، أحداهما مشهورة ، عن برج بابل ، لوحة هائلة ، عبقرية التكوين ، اقتنيت منذ سنوات كتاباً ضخماً ملوناً عنها بالألمانية .

اخبرنى أيضاً بوجود خمس لوحات اخرى فى بروكسل ، وقال إنه يمكننا الذهاب والعودة فى نفس اليوم ، إذ يقطع القطار المسافة فى حوالى ساعتين ونصف ، لكن للأسف لم يكن هناك وقت كاف .

فـرق هـائل أن يرى الإنسـان أصل اللـوحـة وأن يـرى مستنسخ لها . أو صورتها فى كتاب ، يكفى الاحساس أن الفنان الـذى عاش منذ مئات السنين قد لمس هذه اللوحة ، وأن هـذه الألوان من نتاج ضربات فرشاتـه هو . انه تراجع ليتأمل نتاج عمله وانه اقترب ..

فى المتحف رأيت لوحـات عديـدة لفنانين جاءوا بعـد بروجل وبـدا تأثرهم واضحاً به ، ولكن يظل فنه العظيم قائماً بمفـرده ، مدرسة متكاملة ، وأسلوب متفرد ..

* * *

تستمر جولتنا فى الطريق ، أشعر بالود الذى يبديه رافن ، وأشعر بالاقتراب منه أكثر ، كـان هادئاً جداً ، متأنياً يعمل استاذاً فى الجامعـة ، وله كتاب عن ابن داوود مؤلف كتاب «الـزهرة» وهو أحد كتب التراث العـربى الهامة التى يدور موضعهـا حول العشق . كما كتب عدة دراسـات أخرى عن الفكـر الاسلامى ، وترجم احدى قصص التى ضمتها المجموعة التى صدرت بالهولندية بمناسبة مهرجان الثقافة العربية عن مؤسسة الهجرة . قال لى إنه يقيم بمفرده فى احدى ضواحى المدينة ، وفوق أحد الجسور قـال لى إنه أصيب منذ سنوات باكتئاب ، ويعالج منه ، سألته ..

ـ ألم تتزوج ؟

ـ لا ..

ـ ألا توجد صديقة ؟

ـ لا ..

شـعرت بوحـدته العمـيقة ، واستعـدت اكتشـافى عام ١٩٧٨ أصـابتى بمرض الاكتئاب ، لسنوات طويلـة كنت اعتبر الذهاب إلى طبيب نفسى نوعاً من الميـوعة، ولكن تحت وطأة ظـروف عامـة لم يكن لى قبل بتغييرهـا أو تبديلهـا أدركنى هذا المرض ، وسعيت بقدمى إلى صديقى الطبيب عادل صادق ، اصغى

إلى ما أشـكوه من أعراض كان محورها الانشغال العميق بالموت ، قال ..

ـ كأنك تقـرأ من كتاب طبى أعـراض الاكتئاب .. شعـرت أن صلتى برافن أصبحت أقـوى ، كنت أتأمله إذ يسبقى صـاعداً أونـازلاً السلم فى المتحف ، أو سعيـه بنشـاط ليطلعنى على واجهـة بيت متفـرد . وكنت ألمح مثـالاً متجسـداً للوحدة الإنسانية العميقة ..

* * *

الوجبة الرئيسيـة هي العشاء هنا ، عندما بلغنا الثانيـة ظهراً ، دخلنا متجراً كبيراً ، فى الطابق الأخير منه مطعم يقدم الوجبـات السريعة ، انتظمنا فى الطابور أمام الركن الذى يقـدم مأكولات ايطالية ، كان الطباخ شـاباً ملامحه مصرية ، وعندما حان دورى أشار إلى نوع من المكرونة المحشوة باللحم ، قال :

ـ هذا خنزير ..

تطلعت إليه مستأنسـاً ، شـاكراً ..

ـ أنت من أين ؟

ـ من الزيتون ..

ـ أهلا وسـهلاً .. لك مدة طويلة هنا ؟

ـ ثلاث سنوات ..

ـ خريج أى جامعة ..

تطلع الىّ للحظات ، ثم قال ..

ـ هندسة عين شمس ..

بقـدر مـا ابـدى من ود ، بقـدر مـا بـدا متحفظـاً فى التصريح بإسمـه ، أو الاستجابة لما عرضت عليه من حمل أى رسالة يريد ابلاغها إلى الأهل ، احترمت رغبته ، وانصرفت بعـد أن قدمت إليـه بطاقتى ، وقلت لـه إننى أرحب به فى أي وقت يعود فيه إلى القاهرة .

حملت صينية الطعام، مضيت بصحبة فام رافن إلى منضدة قريبة من نافذة تطل على الشارع الذى تنهمر فيه الثلوج. محطة للترام، والكل يسرع الخطى .

إلى جوارنا ، كانت فتاة شابة تتحدث إلى صاحبها ، قال رافن :

ـ هل تعـرف عن أى شيئً تتحدث ؟ إنها تقول لصديقهـا أنها مسافرة إلى اسرائيل لتشـارك فى اعادة بنـاء هيكل الملك سليمان ، وتقول ان الخطـر قائم هناك ولكنها إرادة الله ..

ثم قال رافن ..

ـ بالمناسبة .. هى ليست يهودية ..

لم أسألـه كيـف عـرف ذلك ؟ ، ولكننى فكـرت فيما سمعتـــه عن النفـوذ الصهيونى الواسـع فى هـولنده ، وتنمية الاحساس بالـذنب لدى الهولنديين لما لاقاه اليهـود من اضطهاد أثنـاء الاحتلال النازي . وهــذا إحساس مـوجود فى ألمانيا أيضاً ، ولكن يتم توجيهه للتعـاطف مع اسرائيل ، وبالطبع .. ضد العرب عامة ، والفلسطينيين خـاصـة ، فما هو ذنب العـرب ، وإذا كان اليهود يعتبرون أنفسهم ضحـايـا العنصريـة النـازية ، فـإن العرب الآن ضحـايـا العنصريـة الصهيونية ، هكذا يسدد العرب فاتورة غيرهم ..

أوشكنا على الانتهـاء من الطعام ، ولمحت الشاب المصرى يقترب منا حـاملاً صينية فوقهـا فنجانى قهوة ، وطبقين صغيرين ، فوق كـل منهما قطعة حلوى كبيرة ، وضعهما أمامنا ، قال مبتسماً ..

ـ هذه تحية منى لكما ..

تطلع فام رافن دهشاً ، صامتاً ، قلت متأثراً ، فخوراً أيضاً ..

ـ هكذا نحن ..

صافحت الشاب ، قال :

ـ لا بد أن أراك مرة أخرى ..

أومأت برأسى ، ولم أكن متأكداً أن لقاءً آخرا سيتم فى هذه الدنيا الفسيحة . الواسعة ، بذلك الشاب الهادئ ، الطيـب الملامح . الذى لم أعرف ظروف عمله ، ولا الظروف التـى جاء فيهـا إلى هنا ، ولا مشاريعـه بالنسبـة للمستقبل .. ولا إسمه حتى !

فى بيت الخالة ..

السـبت

.. يوم إجازة . وان اختلفت الملامح ..

هنـا السبت والأحد تخلـو الشـوارع وتـزدحم الطرق المؤديـة إلى مخارج المدينة، يتجـه الجميع إلى الريف ، ولكننى استعيـد ايقاع يـوم الجمعة الهادئ ، الـرخيم ، حيث تسترد شـوارع القـاهرة حضـورهـا فى الاربعينيـات واوائل الخمسينيـات ، تبلغ ذروة الحركة وقت صـلاة الجمعـة ، خاصـة فى القاهـرة القديمـة ، حيث يفترش الناس الأرض حول مسجـد مولانا وسيـدنا الحسين ، والأزهر الفسيح . وبعد الصـلاة ينتقل الزحام إلى المقاهى القريبة ، عندنا تكون الإجازات فرصـة لالتماس الراحة ، والنوم ساعة أو سـاعتين فى الصباح أزيد من الأيام العادية التى تفيض كدراً ومشقة !

بمجرد خروجنا من امستردام فارقت فراغ المدينة الذى تتكأكأ فيه البيوت وتتجـاور متـلاصقـة مطلـة بـواجهـاتها على القنـوات المائيـة التى تتخللهـا كالشرايين.

تنطلق السيارة على الطريق السريع ، وعلى الجانبين يمتـد الريف الهولندي الفريد ، حقاً .. أن الفن العظيم الحقيقى المعبر عن الواقع يعكس شخصية المكان وجوهر البشر ، ولأننى طالعت كثيراً لوحات بروجل الفنان الذى عاش فى القرن السادس عشر وصور الحيـاة الهولندية اليوميـة بدقة وخصوصيـة ، شعرت أننى لست غريبـاً كما أراه ، صور الشتاء هنا بثلـوجه فى العديد من اللـوحات ، وللجليد هنا حضور مختلف عن أى مكـان آخر ، فالأراضى منبسطة . ممتدة ، تخلو تمامـاً من المرتفعات ، مساحـات لا نهائية من اللـون الأبيض المصقول ،

تتخللها أشجار غامقة ، وبيوت متناثرة ، متباعدة ، أما الأغصان والفروع فتخلو من كل نبات أخضر ، وهناك وهنا فى المدى يمشى رجل فوق الجليد أو امرأة , يبدو كعلامة استفهام بشرية !

* * *

منذ فترة طويلة لم يزر الدكتور بيتر سمور الخاله ، واليوم يمضى بصحبتى ، أول عربى ستراه الخالة فى حياتها ، مقصدنا مدينة البرج القديمة ، عندما اقتربنا منها قال لى أنها لم ينجبا ، أطفالاً ، هذا لمعلوماتى حتى لا أسألهما عن الأطفال ، أن هذا يؤلمهما فى شيخوختها ، الخالة تبلغ حوالى السبعين اما الزوج فتعداها بسنوات .

كنا ثلاثة فى الطريق ، الدكتور بيتر سمور ، وزوجته ، منذ خمسة شهور فقط أنجبا طفلاً صغيراً .

ـ انه الآن عند جدته ..

يتكلم بيتر سمور العربية بطلاقة ، إنه أستاذ بارز للأدب العربى ، وزوجته تلميذته ، طريقة فى التعبير والحديث ذكرتنى بشكل ما بالدكتور لويس عوض ، مع نبرة ساخرة دائمة ، تعكس رؤية للأشياء ، للدكتور سمور ابنة من زوجة أولى تبلغ الآن الثامنة عشر .

نصل إلى المدينة ، البيوت أنيقة ، عتيقة ، أصغر ، وتوحى بحضور قرية كبيرة ، الأشجار كثيفة ، وبعض الشوارع مبلط بالحجر ، يقع البيت فى طريق جانبى ، تتقدمه حديقة صغيرة جميلة ، رفيعة الذوق ، تتوزع فيها النباتات والأزهار ، ولجمالها الفريد فان العديد من العرسان يجيئون إلى هنا لالتقاط صور تذكارية أمامها .

هذا البيت الجميل ، كان فى الأصل حظيرة للأبقار . يحتفظ زوج الخالة بصور عديدة لعملية تحويله الى بيت أنيق ، جميل ، يطل على الطريق بواجهة زجاجية بعرض الصالة الفسيحة ، فكأنها فاترينة للحياة فى وقت ما .

على البـاب استقبلنا الخالـة ، سيـدة متوسطـة الطـول ، ممتلئة ، ذكـرتنى مـلامحهـا بحضور الفـلاحـات المصريـات فى دلتـا النيل ، لا أدرى لماذا راحت ذاكرتي إلى المنصـورة ودمياط ، أمـا الزوج فنحيل ، حـاد الملامح ، قال لى بيتر سمور أنهما يتحدثان بلهجة خاصة تنتشر فى هذه المنطقة ، قد يصعب على ابناء العاصمة فهمها مع أنها نفس اللغة الهولندية .

بمجرد ولوجـى الباب ، عبرت ظلال المدخل الثقيلة ، القديمـة ، شعرت رغم الدفء بالعتاقة وبرودة خاصة ، ليست برودة الأماكن الخلوية ، إنما تلك التى تنطوى على فراغها ، وتصبح ترديداً للحركة الداخلية فيها .

فى الصـــالة الـرئيسيـة كـانت مـدفئـة على الطـراز القـديم تشع الحرارة وبجـوارها مقعـــد وثير واضـــح انـــه اعتـاده للنظـــــر إلى الطريـق عـــبر الواجـهة الـزجاجيـة الفسيحة، أضفى الـزمن على وجهه تقطيبـة دائمة بـأثر التجاعيد ، بينما شفتـاه منفرجتان دائماً كأنه يـوشك باستمرار على الحديث . قـدمنى بيتر سمور إليهما ، حـدثهما عنى ، وحتى تطمئن الخالـة التى سألتـه عندما علمت أنه سيصحب معه صديقاً عربياً ، عما إذا كنت أحمل معى صاروخ سكود أم لا ؟

قدمت إليها كتابى المترجم إلى الهولندية ، مجموعة ثمار الوقت التى ترجمها بيتر سمور وفام دافن ، أشار إلى صـورتى على الغلاف الأخير ، ولكن انفعالها الحقيقى بدأ عندما لمحت توقيعى على الكتاب ، راحت تنقل بصرها الرزين الذى اكتسى وقـار السنين بين التـوقيع وبينى ، ولتـوقيع المؤلف المبـدع هنـا شأن عظيم. فقط لمجرد التـوقيع أما إذا كان مصحـوباً بإهداء رقيق فـالأمر يصبح جللاً ، هزت رأسهـا ، قامت متهـاديـة لتضع الكتاب فى صـدارة المكان . كـان زوجها يتابعها بهدوء ، ثم تناول من جانبه مجموعة من الصـور ، أولها صورة كبيرة فى إطار خشبى ، ورقها أصغر بفعل الزمن ، صورة مرسومة فقد رسمت قبل اختراع آلة التصوير ،. رجل فى المرحلة الأربعينية ، يرتدى ملابس كهنوتية

، ترجع إلى عام ١٨٣٤ ، وإلى جواره صبى صغير فى الثانية عشر . هذا الصبى جد بيتر سمور .

استوقفنى تعبير وجهه ، لا .. بل جذبنى ، وأثار عندى غبار اهتمامى الموغل بالزمن ، كان يرفع رأسه متطلعاً إلى نقطة مجهولة ، لا أدرى فى الوقت أو فى المكان ، نظرة فيها حيرة ما ، لا أدرى فى الوقت أو فى المكان . نظرة فيها حيرة ما ، وهم غامض أكبر من سنة . وكأنها نظرة من يقف على مقدمة سفينة تدنو من ميناء مجهول ، رحت أجهد نفسى محاولاً أن أستنتج أى صور ، أى أفكار كانت تجول بذهنه وقت التقاط ملامحه ، أى يوم ؟ وفى هذه اللحظة أين كان جدى أنا على بعد آلاف الأميال ؟ لا بد أنه كان فى مسقط رأسى جهينة ، لكنه .. ماذا كان يفعل فى هذا اليوم ؟ . أين كان أبى ؟ أين كنت أنا ؟

قال زوج الخالة إن الطفل هاجر إلى إمريكا بعد سنوات من رسم هذه الصورة ، ركب سفينة عبرت به المحيط ، أخبارهغابت هناك ، العائلة هنا لا تعرف عنه شيئاً ، ولكن حدث منذ عدة سنوات أن جاء اثنين من أحفاده ، جاءا إلى المدينة كسياح .

ـ سألوا عنى . جلسا هنا فى هذا المكان ومشوا .. لم أرهما بعد ذلك ..

كان يتدفق بالحديث عن العائلة ، عن أفرادها الذين يعيشون هناك على الطرف الآخر من المحيط .

ـ سمعت أن أحدهم طبيب مشهور الآن ..

أشار إلى مجموعة من الأطباق الخزفية الغالب على زخارفها اللون الأزرق ، كانت مرصوصة داخل صوان مستطيل ، قال إنها تراث تتوارثه العائلة منذ حوالى أربعة قرون ..

قالت زوجته مصححة ..

ـ أكثر .. منذ خمسة قرون ..

قال إنه أرسل عدداً منها فى طرد إلى أمريكا عن طريق البحر حتى يحتفظوا

بها هناك ، لكنها للأسف تحطمت فى الطريق ، توقف لحظات ، بدا خلالها حزيناً. أسفاً .

وكأن الزوجة أرادت أن تنهى انقطاعه ، فأشارت إلى الصور الأخرى ، عندئذ دب فيه النشاط من جديد ، راح يستعرض الصور الصغيرة ، بعضها يرجع عمره إلى أكثر من مائة عام ، هذا فلان ، وهذا ابنه ، هذا مات ، وهذا غابت اخباره ..، كان يشرح لبيتر سمور العلاقات والقرابات ثم أمسك بصورة أخرى لوح بها مبتسماً ..

بيتر سمور عندما كان صبياً . وكان من الصعب علىّ ان أكتشف العلاقة بين الملامح الماثلة أمامى وتلك البادية فى الصورة ، وكيف ..

إذا كنت أتأمل الآن بعض صورى القديمة التى نجت من عوادى الزمن وبغتات الأيام ، فيعثر على اكتشاف الصلة بين ذلك الصبى الذى كنته وذلك الكائن الذى يسعى الآن . كثيراً ما أتطلع دهشاًإلى صورة ملتقطة منذ سنوات بعيدة فأدهش لانقطاع الصلة بينى وبين المطل علىّ من بعد أراه سحيقاً ، حتى لأسأل ذاتى ، أحقاً ينتمى ذلك الطفل إلىّ ؟ ، وماذا بقى منه عندى ؟ ، وأى آثار خلفها فى ؟

أتأمل صور أشخاص أقف إلى جوارهم مبتسماً فى الزمن القديم ، وأجهد ذهنى فى محاولة عسرة لتذكر أسمائهم ، من هم ؟ وأين الآن ؟ ، وتطل علىّ من غيوم ذاكرتى وجوه أخرى لا أعلم شيئاً عن صيرورة أصحابها الآن . منهم زملاء دراسة ، وجيران ، وأصحاب ظننت يوماً أن الصلات ستمتد أبداً .

يستمر زوج الخالة فى عرض ميراثه الوجدانى ، بعض حواف الصور متآكلة .

صورة له وهو يقود عربة نقل محملة بأوانى اللبن ، أسأله عن عدد اللترات التى تدرها البقرة الواحدة هنا ..

ـ حوالى ثلاثين لتراً يومياً ..

إنه يسلم اللبن إلى المصنع الذى يحولها إلى جبن شهير يتم تصديره ، أول ما سمعت عن هولنـده ، كان ذلك فى طفـولتى، عندما كنت أرى فى واجهـة دكاكين البقـالة كـرات الجبن المستديـرة المغطـاة بورق أحمر شفـاف يتوسطـه ختم مستطيل ، إنه الجبن الفلامنك .

من يدرى .. ربما كان اللبن الذى ينتجـه زوج الخالة داخلاً فى تركيب قطعة جبن أكلتها يوماً فى طفولتى بالجمالية !

* * *

تستفسر الخالة عن مصر ، عن الاهرامات ، عن الفراعنة ، ومصر عند العالم الغربى ، تعنى مصر الفـرعونيـة ، وعندما زرت المكسيـك فى العام قبل الماضى كانت معلومات معظم من قابلتهم تتوقف عند مصر اخناتون على أحسن تقدير. حـدثتها عن الأهـرامـات ، وسقـارة ، وأبو سمبل ، ورمسيس الثـانى ، وعبـد الناصر ، والناصر بن قلاوون ، والسلطان حسن .

حدثتهـا عـن آثـار تـوت عنخ آمـون . والقمح الذى مضى عليـه أكثر من أربعـة آلاف عـام ، والمعـروض الآن فى المتحـف المصرى وما زال صـالحاً للأكل .

اتسعت عيناها دهشة ، كان وجهها العجوز المتورد مليئاً بالحيوية .

حدثتها عن أقنعة الفيوم التى تطل على زماننا بوجوه أصحابها الذين رحلوا منذ آلاف السنين ، قمـة فن البورتـريه فى العالم ، والمحفـوظة فى صـوان بأحد ممرات الطابق الثانى من المتحف المصرى بالقاهرة .

مع استمرارى فى الحديث كانت عيناها تتألقان بحيوية ، كانت تعكس نظرة هادئة ، مطمئنة ، مسترخية ، نشطة لسيدة لم تفارق الريف الهولندى فى أقصى الشمال إلا نـادراً . وكـانت تقوم بين الحنين والحين لتصب الشـاى السـاخن باستمـرار فى البراد القديم المعدن ، وتصر على أن نأكل من الكعكـة التى أعدتها بنفسها ، كان إصرارها بألفاظ قليلة ، ولكنها تعكس كرماً ريفياً ذكرنى بالكرم

المصرى الفياض ، عنـدما يصر المضيف على استمرار ضيفـه فى الأكل حتى بعد شبعه ويتبع ذلك بجمل وتعبيرات متوسلة مثل .

«والنبى تأكل ..»

فاذا لم يفلح ذلك .

«والنبى تعدمنى إذا ما أكلت ..»

أى أن المضيف يقدم حياته كلها ويخاطر بها إذا ما استجيب الدعاء فى مقابل أن يأكل الضيف قطعة لحم أكثر . أو بعض ملاعق من الأرز أو قطعة حلوى ..

مبالغة ؟ ربما !

زوج الخالة كـان محملقاً إلى الأرض أو السقـف عاقـداً يديـه أمامـه طوال حديثى ، فجأة يمسك مرة أخرى بالصور ، يتحدث عمن يطلون منها ، يوضح لبيتر سمور الأقارب والعلاقات .

لم تكن الصور مجرد قطع صغيرة من الورق ، إنما كانت لحظات مولية من الزمن المنتقض ثم تثبيت ملامحها بالظـلال والضوء ، من هنا حرص الإنسان على الوقـوف فى مواجهة ريشـة فنان أو عدسـة مصور . عندمـا كنت فى جبهة القتال ، كان الجنود يسرعون لحظة التقـاط صورة ، أحياناً كان التجمع خطراً ولكنه الإحسـاس بمرور الزمن ، والـرغبة فى تثبيت لحظة منـه ، حتى إذا كان تثبيتاً وهمياً ، فاللحظة نفسها لا يمكن ايقـافها ، وفى ظرف القتال بالذات يكون الإحساس بالـوقت أكثر حدة ، فلا أحـد يدرى ماذا سيجرى فى اللحظـة التالية تحت الخطر المحوم .

أتأمل أصابع زوج الخالة الضخمة ، الخشنة ، أصابع فلاح حقيقى بنى هذا المنزل بيديه ،

عندمـا حان الـوقت لإنصرافنا توقف أمـام صوان قـديم ، أمسك بعدد من العملات القديمة ، أبرز أحدها باعتزاز وحرص ، قال :

ـ عمرها مائتى عام .. من الذهب الخالص ..

وتذكر قطعاً من النقود المصرية عمرها آلاف السنين ، فى مدخل البيت عند انصرافنا توقفت أمام قفص كبير يطل منه ببغاء وحيد ، جميل الألوان . كان يطلق صوتاً حاداً طوال فترة مكوثنا . قال زوج الخالة إنه كان يخص أسرة تسكن بجوارهم ، فى البيت التالى ، اعتقلهم الألمان قبل نهاية الحرب الثانية ، وأرسلوهم إلى المانيا ، لم يعودوا . ولم يبق منهم إلا هذا الببغاء ، أخذه هو واحتفظ به ، يقيم فى البيت منذ سبعة وأربعين عاماً . عمره الآن حوالى سبعين سنة . كان أكثر حيوية ونشاطاً وكان يردد كل كلمة يسمعها ، لكنه منذ عامين يبدو مكتئباً ، حزيناً ، ولا يصدر إلا هذا الصوت الوحيد الذى يبدو كالصراخ .

من يدرى .. ربما يشعر الطائر الوحيد باقتراب نهاية ما فى هذا المكان المسكون بالماضى ؟

ارتدى زوج الخالة حذاءً خشبيا، قبقاب هولندى ، ألوانه هنا حمراء وصفراء ، ويعتبر من أشهر الصناعات التقليدية وفي مطار امستردام يقف احدهم ليصنعه أمام السياح والمسافرين الذين يثير دهشتهم أى شىء .

أصر زوج الخالة أن يصحبنا رغم برودة الطقس حتى الشارع الرئيسى حيث تنتظر عربة بيتر سمور . ظلت الخالة بالداخل . عند مرورى أمام نافذة صغيرة جانبية فوجئت بطرقات على الزجاج .

خلفه تماماً أطلت بوجهها الطيب العريض . مبتسمة ، لوحت بيدها ، كانت النافذة المربعة تؤطر وجودها الحى ، فتحيلة إلى ما يشبه الصورة الفريدة ، النادرة . التى تشير أيضاً إلى ماضى غير مرئي ، يغرف فيه وجود البيت كله . أما نظرة ذلك الطفل الذى هاجر قبل أكثر من مائة وخمسين عاما إلى أمريكا ، وغابت أخباره هناك . هذه النظرة القادمة من أغوار العد .. فلم انسها حتى الآن. كذا طلة الخالة عبر النافذة والتى تحولت فى ذهنى إلى صورة أيضاً !

متتاليات سويسرية

همـــوم ســـويسرية

مايـــو ١٩٩١

الجمعة ..

.. ما من مرة خـرجت فيها إلى السفر ، إلا وفكرت فى المكـان الذى سأمضى ليلتى الأولى فى الغربة ، فى أى موضع ؟ فى أي طابق ؟ . ماذا سأرى من النافذة ؟

إذ أنزل مـدينة غريبـة لأول مرة ، ينتابنى حـذر قديم ، فـالغريب ضعيف دائماً، وخاصة إذا كان يجهل المنحنيات والنـواصى ، والشوارع المتفرعة ، أود انتهاء هـذه المرحلة الفاصلة بين نـزولى من قطار أو طائرة ، ورسوى فى غـرفة فندق . ترتيب حاجاتى التى تحتـويها الحقيبة ، طالماً اننى فى الطريق أحملها لا أشعر أبداً باستقرار .

غير أن الأمر اختلف فى بازل . أول محطة اقيم بها فى سويسرا ، عندما نزلت من القطار الطـويل متعدد العربـات تطلعت عبر الرصيف الممتد ، بعـد لحظات رأيته .. صـــديقى جميل عطية ، الأديب الذى أعرفـه منذ اكثر من ثلاثين عـاماً ، وتربطنــى به صلـة حميمة ومودة ، يقـف امام عربـة الأكل .. تمامـاً كما حدد البرنامـج المطبوع لزيـارتى والذى تضمـن كافـة تفاصيل حـركتى بالثـانية والدقيقة .

أخيراً .. ها هو جميل عطية فى بازل !

منذ بداية الستينيات تزوج بسيدة سويسرية ، التقيتهما معاً فى القاهرة على فترات متفاوتة ، ولأن الإنسان لا يغير من مسـار حياته إلا الحوادث العظام أو المـرأة ، فقـد تبـدلت حياة جمـيل واسـتقر فى بازل هنـا منذ حـوالى اثنى عشر

عـاماً. لكم كتبت إليه ، واتصلت به عبر الهاتـف من مدن أخرى كنت أزورها فى أوروبا ، والآن .. أجد نفسى فى المدينة التى كنت أكتب اسمها على المظاريف .

رؤية صـديق عند الوصول إلى ارض غـربية تأنيس ونفى للوحشـة ، كان بصحبـة جميل فنان تشكيلي . جمال عبـد الناصر ، جـاء إلى سويسرا فى منحـة دراسية من مؤسسة بروهيلفسيا شديدة النشاط خلال السنوات الأخيرة .

خرجنا من مبنى المحطة الضخم . أولاً .. إلى الفندق .

* * *

نهر الراين ..

تطل الغـرفة مبـاشرة عليه ، يمكننى أن أرى جسراً قـديماً يمر فـوقه تـرام أخضر اللـون ، على الضفة الأخـرى مبانى عتيقـة يـرجع معظمها إلى القـرون الوسطى ، تراهـا فتحسبها بنيت بالأمس لفرط العنـاية بها ، لا تقع عيناى على مـدينة أوروبيـة قديمـة إلا وتذكـرت قاهـرتنا العـريقة المنكـوبة بـالأهمال ، واللامبالاة ، مـا من مدينة فى العالم مـدججة بالتاريخ مثل عـاصمتنا ، وما من مدينـة تتجاور فيهـا طبقات الأزمنـة المختلفة مثل القـاهرة ، مـن فرعـونية فى الجيزة إلى قبطية فى مصر القـديمة إلى إسلامية فى الجمالية والقلعـة وقايتباى . أقل ما تعانيه ، القذارة .

وهل فى النظافة عبقرية ؟

هل يحتـاج الأمر إلى خطط وتكنـولـوجيـا ؟ أم إلى عزيمـة ووعى فقط . فى طفولتى أذكر أن حوارى الجمالية كانت تكنس وترش مرتين يومياً . من منا لم يجر فى طفولتـه وراء عربـة الرش التى كـانت أمراً مبهـراً ومثيراً للخيال زمن الصبى النائي الآن ؟

استمر فى التطلع إلى الجسر الحجـرى الذى يحمل سمات القـرون الوسطى بأبراجه ، ودعائمه البارزة ، أتذكر أيضاً النوافذ التى تطلعت منها خلال ترحالى ونزولى المدن النائية ، أستعيد ما علق بذهنى . ولكننى أسترجع أيضاً الساعات

التى انقضت منذ وصولى إلى مطار زيوريخ ، الآن لدى وثت انقضى هنا . يمكننى استعادته حتى لو كان سويعات ، ولن يمض وقت طويل إلا وتصبح فيه تلك اللحظات وهذا الواقع المحيط بى مجرد ذكريات ، أعيش المكان على مرحلتين ، الأولى تواجدى فيه ، ومحاولتى استيعابه ، والمرة الثانية بعد مفارقته وبدء استعادتى التفاصيل واللحظات ، والغريب أننى فى هذه المرحلة أرى ما لم أره فى آنيته ، فهل ينطبق ذلك على الحياة أيضاً؟، أذكر جلوسى ذات صباح باكر إلى أستاذنا نجيب محفوظ فى بداية الثمانينيات ، كنت مضرجاً بالحزن بعد رحيل أبى المفاجئ ، المباغت ، قال لى الأستاذ يومئذ :

من يدرى يا جمال .. ربما يبقى الوعى بشكل ما بعد الرحيل ، كما تتحول ذرات المادة التى تشكل الجسد إلى صور أخرى ، عندئذ قد يحدث اللقاء مع الأحبة بصورة ما .

يرى بعض الصوفية أن الحياة حلم ، وأن الناس كالنيام ، إذا ماتوا انتبهوا ، ولكننى أعى جيدا أن الحياة فرصة نادرة وقصيرة جدا ، والسؤال الذى أردده دائماً لنفسى ، لماذا لا نحاول أن نجعلها أجمل وأكثر احتمالاً ، لماذا لا تتوفر الشروط الإنسانية فى حدها الأدنى . أن ذلك باستطاعة الإنسان ، ولكن ما أشد الحماقة الإنسانية أيضاً التى تشتد حينا فتهدر إمكانيات الحياة البشرية ، أن بالحروب ، أو الفقر ، أو التقاعس عن مقاومة المرض !

* * *

يبدو كل شىء هنا جميلاً، منظماً ، مصقولاً ، حتى الطبيعة ، ما هى المشاكل التى يمكن ان يعانى منها الإنسان هنا ؟

فى الطريق من زيوريخ إلى بازل ، كان القطار الفاخر شبه خال ، جلست فى مواجهتى سيدة شابة ، واتصال الحوار بين المسافرين فى القطار أيسر ،

قالت لى إنها تعمل فى زيوريخ . وتسكن مدينة صغيرة فى منتصف الطريق . أنها أم الآن لطفل ، ولذلك تعمل نصف الوقت حتى يمكنها رعاية طفلها .

لم تذكر شيئاً عن الأب ، أعرف أنه فى أوروبا الآن يمكن للمرأة أن تنجب بدون زواج ، وأن تعطى الطفل الاسم الذى تريده ، وتشجع الحكومات الانجاب ، المهم أن يأتى الطفل . وليس مهما الطريقة التى جاء بها ، ويبدو أن ذلك نتيجة لنقص تعداد السكان ، وأذكر أننى منذ سنوات رأيت إعلانات فى محطات المترو الفرنسية تدعو الشعب إلى الانجاب من أجل فرنسا .

على أية حال المجتمع السويسرى محافظا إلى حد ما بالنسبة للمجتمع الأوروبى عامة .

قالت السيدة إن أحد أهم المشاكل الآن ارتفاع الأسعار ، إذن .. هنا فى مجتمع الوفرة توجد مشكلة أسعار أيضاً ؟

نعم .. خلال العامين الأخيرين . زادت أسعار السلع ولم تزد المرتبات بنفس النسبة . أما إيجارات المساكن فترتفع باضطراد . يحتاج الإنسان لكى يعيش حياة معقولة هنا إلى ستة آلاف فرنك سويسرى أى حوالى أربعة عشر ألف جنيه مصرى ، وإيجار المسكن المعقول من الفين إلى ثلاثة آلاف فرنك . طبعاً الأمر نسبى .. فالمشكلة هنا لا تمس الخبز أو الزبد أو اللحوم . فالخبز مثلا معروض منه أنواع شتى ، خبز عادى ، وخبز أسمر ، وخبز بالمكسرات ، وخبز فولكلورى أى فلاحى ، وخبز مستدير ، وخبز مستطيل ، وخبز مغلف ، وخبز غير مغلف .

الأسعار ترتفع فيقل استهلاك الانسان للشيكولاته ، أو للشمبانيا ، الأمر نسبى دائماً ؟

هل يوجد فقراء فى سويسرا ؟

نعم .. انهم الفلاحون فى الجبال ، حيث الزراعة صعبة والمحصول عسر ، ولكن الحكومة تدعم جميع الفلاحين ، الأغنياء فى السهول ، حيث تبدو بيوتهم الأنيقة الفسيحة وأمامها أحدث أنواع السيارات ، أو الفقراء منهم فى الجبال حيث البيوت أنيقة أيضاً ولكن أصغر ، أما السيارات فمن طراز أقدم قليلاً . أيضاً .. الأمر نسبى .

من أهم سمات الإنسان السويسرى ، التحفظ الشديد ، وعدم الادلاء بأى تفاصيل عن حياته ، خاصة ما يتعلق بالثروة ، لا يمكن الاطلاع على الثروة الحقيقة لأى شخص ، إلا إذا كان من أصحاب المليارات ونجوم المجتمع ، فيبدو المستوى ولكن تظل التفاصيل مجهولة .

فى احدى الأمسيات دعيت عند صديق سويسرى إلى العشاء ، والتقيت عنده بعدد من السويسريين . كان من بينهم أستاذ كبير للغة العربية والأدب العربى ، وتلاميذه ، أحدهم يعمل مترجماً فى وزارة مهمة ، سأله أستاذه ..

ـ من رئيسك ..

قال الشاب على الفور وهو تلميذ للأستاذ ..

ـ لن أقول لك .. لسببين أولاً لأنك لا تعرفه وثانيا لأننى لو قلت لك فلن تستفيد من ذلك ..

وسكت الأستاذ .

فى نفس الجلسة كانت هناك سيدة تتحدث العربية ، عادت من الكويت بعد عملها فترة فى الصليب الأحمر الدولى ، وعندما سألها أحد الحاضرين عن الأوضاع هناك ، اعتذرت مبتسمة ، قالت إنها لا يمكنها الادلاء بأى تفاصيل ، لأن ذلك يتناقض مع شروط العمل فى الصليب الأحمر الذى يحظر على أعضائه الحديث فى السياسة ، أو عما يشاهدونه .

قالت السيدة ذلك وكل الجالسين من أصدقائها الحميمين ، واثنان منهما تعلمت على أيديهم اللغة العربية .

طبعاً استدعيت إلى ذهنى عدداً من أهلنا فى الشرق . الذين يحرصون على الظهور كعالمين ببواطن الأمور . وأدق الأسرار ، ويفضون بما يعلمونه حقاً أو زيفاً فى زهو ، وما قصة المطار السرى ببعيدة !

التحفظ سمة أساسية هنا ، كذا الانضباط الشديد ، والنظام الصارم الذى يسرى خفية فى سائر جوانب الحياة ، ولا عجب ، فالاقتصاد السويسرى يقوم

على دعائم عديدة ، من أهمها البنوك ، والبنوك تحتاج إلى استقرار ، إلى انضباط، وهذا أحد أهم المفاتيح لفهم الواقع هنا ، وشهرة البنوك السويسرية طاغية ، وفى لغتنا العامية إذا ما قيل :

«دا فلان عنده حساب فى سويسرا ..»

فان هـذا يعنى الثراء الشديد ، ويعنى أيضـاً اتهاماً ضمنياً باللصـوصية ، واللصوصية تتنوع وتختلف .

ولكن سويسرا ليست بنوكاً فقط !

* * *

لم استقر طويلاً فى الفندق .

غادرتـه بصحبة جميل وجمال ، يقع الفندق فى منطقة جميلـة على الراين . المنطقـة المحيطة بـه مـركز للمخـدرات . على النـواصى كنت أرى المدمنين من الـرجال والنسـاء خاصـة أثناء عـودتى ليلاً ، يقفـون فى جماعات ، ويتحـرك بعضـهم من هنـا إلى هناك فى شكـل تحفه المؤامـرة والأسرار . معظمهم فى سن الشبـاب ، كنت أمضى حـذراً خـاصـة عنـد الاقتراب منهم ، لا أدرى التصرف المفاجئُ الـذى يمكن أن يصدر عنهم . للمخـدرات أيضا أمـاكنها المعـروفة ، فى زيوريخ بجـوار محطة السكك الحديـدية ، ولكن لم يصل الأمـر إلى الحد الذى رأيته فى هولنده ، فى امستردام منطقة حمراء . للدعارة وللمخدرات ، حيث تقف الفتيات العـاهرات فى الفتارين ، تماماً كـأى سلعة ، عبر الزجاج تتم المفـاوضة واذا تم الاتفاق يسـدل الستار على الزجاج ، وسرعـان ما تتحول الفاتـرينة إلى مخدع ، وسمعت أن مثل هذا الوضع فى هـامبورج الألمانية أيضاً ، فى امستردام تباع المخـدرات علناً ، فى فبراير الماضى رأيت بـائعاً متجـولاً يمشى فى الطريق منـادياً على الهيروين والماريجوانـا ، وفى مقاهى خـاصـة تقدم أعتى الأنـواع وكأنها الشاى والقهوة . صورة من مظاهر التفسخ الذى تصل إليه أى حضارة متقدمة فى مراحل تطورها .

أعتقد أن الوحدة والنظام الصارم والـدقة البالغة فى كل شىء تؤدى إلى رد فعل معاكس . ولكنه هنا فى سويسرا محكوم أيضاً ، محدود فى مناطق معينة .

فى الطريق إلى بيت جميل عطية ، ركبنا الترام ، النـاس يجلسون متباعدين ، واضـح المستوى المرتفع للملابس ، للأناقة ، كل منهم ينظر فى نفس الاتجاه ، إذا تحدث أحد بصـوت مرتفع ينظرون إليه بـاستنكار شديـد ، كل منهم ملفوف بوحدة عميقة ، كذلك البيـوت الأنيقة ، والشوارع الممتدة التى كانت فى كثير من الأيام تبدو خالية تماماً على امتداد الـرؤية ، تجولنا قليلاً فى المدينة ، كان جميل من أشـهر رواد مقهى ريش فى الستينيات وكـان دقيق النظام ، منضبط تماماً ، لذلك عندمـا صدرت مجلة ٦٨ ، أسند إليه الأديب والصـديق ابراهيم منصور الشئون الادارية والمالية ، وابراهيم هو النقيض التام لهدوء جميل وانضباطه ، هل هـى صدفة أن يتزوج جميل من سيدة سويسرية ويستقر به المطاف هنا ؟ . ربما .. ولكن الانضبـاط السـويسرى لابد أنـه التقى بشىء مـا داخلـه ، يعمل جميل بالصـحافة ويحظى باحترام واسع هنا ، ورسائله إلى راديـو القاهرة جادة وموضوعية تماماً .

عثر جميل فى بـازل السويسريـة على مقهى يشبه ريش القـاهرى ، يـرتاده المثقفون . وبه بعض الفوضـى ، يجىء إليه وحيدا حيث يمضـى الوقت فى التأمل، أو تدويـن بعض الملاحظات الـلازمة لروايتـه الجديدة ، المقهى محاط بمبـانى قـديمة يمت بعضهـا إلى القـرن الخامس عشر ، قامت مـؤسسـة بروهيلفتيـا بترميمها ، ولأن العناية مستمرة تبدو البيوت محتفظة بالعتاقة والمظهر الجميل بحيث لا يمكن التنبؤ بعمر البيت من مظهره .

مرة أخرى أتذكر آثارنا فى القاهرة القديمة وأتحسر ، فى بازل مبنى قديم عقد فيه المؤتمر الصـهيوني الأول فى القرن التاسع عشر ، فيه تقررت أمور انعكست فيما بعد على عالمنا العربى ، وكم من قرارات تتخذ فى هذه المدن النائية فى اوروبا وأمريكا تمس مصـائرنا ومعاشنا ، ونحن لا ندرى ! فى بازل مبنى آخر ، غامض

المظهر ، لكنه من أخطر المبانى فى العالم كله ، أنه بنك التسويات الدولية ، أو بنك البنوك المركزية فى العالم ، له صلة وثيقة جداً بالعالم الثالث وقروضه ومديونياته ، شرح لى جميل مطولاً ظروفه ولكننى لم أستوعب!

* * *

يسكن جميل فى منطقة هادئة ، جدران بيته مدجج بالكتب . تأثرت جداً بحفاوته ، حقاً .. إن الصداقة فى الغربة وطن ، وكثيراً ما يكتشف البشر بعضهم عند الاغتراب ، ولذلك سمى الرحيل سفرا فى اللغة لأنه يسفر عن الطبائع والأخلاق ، قال لى جميل أنه اكتشف صنع الله ابراهيم إنسانياً عندما جاء إلى سويسرا العام الماضى مع صدور روايته (اللجنة) ونزل بازل ، حدثنى عن هدوئه ورقته وتواضعه ، وقد عرفت هذا فى صنع الله عند سفرنا معاً إلى الجزائر منذ أربعة أعوام ، ولكن اهتمام جميل وحنوه لم يكن مفاجئا لى ، فعلاقتى به عميقة وطويلة .

تناولنا العشاء فى السادسة ، أنه الوجبة الرئيسية هنا ، ويتم تناوله بين السادسة والسابعة ، مضينا بعد ذلك إلى ضاحية المدينة التى تقع فى الطرف الآخر ، حيث الاتيلية الذى يقيم فيه الفنان جمال عبد الناصر .

* * *

يقع المبنى الحديث فى منطقة خصبة الخضرة ، يضم عدداً من الاتيلهات ، يقيم فيها فنانون سويسريون وأجانب تستضيفهم مؤسسة بردهيدلفتيا ، وسنويا تقوم بدعوة اثنين من الفنانين المصريين حيث يقيم كل منهم ستة شهور متفرغ تماماً للعمل الفنى . جمال عبد الناصر نحات ورسام ، أقام أكثر من معرض ، أعماله متميزة ، وفريدة ، جيرانه معظمهم فنانين سويسريين ، جاء فنان سويسرى مقيم فى الاتيليه المجاور . بدا ودوداً رقيقا . قال إن شقيقه مهتم بالأدب العربى ، كتب اسمى باهتمام ، ثم استأذن لعدة دقائق عاد بعدها وقد تغيرت ملامحه تماماً ، قال إنه اتصل بشقيقه ، وإنه يعرفنى من خلال

قراءتـه للروايتين اللتين تـرجمتا إلى الألمانيـة ، الزينى بـركات ووقـائع حارة الزعفرانى التى ترجمت مؤخراً وصدرت فى برلين .

خرجنـا إلى الممر الذى تطل عليـه أبواب المراسم . فوق مسرح صغير بيـانو أسود اللـون ، وكان هنـاك عازف يضبـط أوتار التشيللـو ، وبعد لحظـات بدأ العـزف ، موسيقى حـديثة ، فى بعض اللحظـات اقتنص ملامح جمال خـاص ، ولكنها فى معظمها ضجيج وطـرق يبدو عشوائياً وكأنـه خبط أوانى نحاسية . كنت أصغى إلى هـذه الموسيقى الضـاجـة بالفـوضى وأفكـر فى الهدوء المخيم بالخارج ، والانضباط السويسري فى الساعـات الشهيرة ، فى حركة القطارات ، فى عبور الطـرقات . فى المجتمع ، وكنت أشعـر أن الفن يعبر عن الجانب الآخر ، عن بعض الفـوضى . وعنـدما زرت متحف بـازل فى اليـوم التـالى تأكد لى مـا شعرت به .

انتهت الموسيقى وصفق الحاضرون . وكنت أتطلع إلى ملامحهم وأفكر . فى المكان الذى كنت فيه أمس . فى قاهرتى ، تماما فى مثل هذه اللحظات ، وفى المكان الذى سأبلغه غـداً ، وفى الأرض التى سأحل بها بعد أسبوع ، وفى هـوية هؤلاء الذين لا أعـرفهم ، والذين بـدأ انصرافهم ، ولن تقع عينى عليهم مـرة أخرى ، وستظل كينوناتهم وهوياتهم ومصائرهـم مجهولة لى ..

* * *

بالثـانية .. تماماً ، طبقاً للمـوعد المكتوب على الجدول المعلق فى المحطـة جاء الترام . كان خـالياً تماماً . قلت لجميل إن الليل يبدو مخيفـاً فى ظل هذا الهدوء ، واننى أقرأ كثيرا عن مـوجات العنصرية المعـادية للعرب وللملـونين ، وطبعاً .. نحن هنا ملونون. أومأ بـرأسه نافياً ، قال لى إن الأمن هنا شـديد ، بعد لحظات قلت له على أي حال من الأفضل أن نجلس وراء كـابينة السائق مباشرة ، حتى إذا وقعت الطـوبـة فى المعطوبـة ، أمكننـا أن نستغيث بـه . إزاء الحاحى وافق ، انتقلنـا إلى المقعد الأول . التـالى مباشرة للكـابينة المعـدنية التى يجلس داخلهـا

السائق الذى لم نر ملامحه . عندما نـزلنا فى المحطة القريبة من الفندق . وقفت على الرصيف ، رفعت عيناى لأرى السائق وانفجرت ضاحكاً .

سألنى جميل

ـ لماذا تضحك ؟

أشرت إلى السائق ، تطلع إليه ، وسرعان ما ارتسم على وجهه تعبير ضاحك ، وارتسمت ابتسامته .

كان السائق فتاة جميلة . فى العشرين من العمر ..

القمـــامة الســويسرية ..

الســـــبت ..

أتطلع إلى الراين ، تتدفق مياهه هادئة ، عريض هنا لكنه لا يحاكى النيل ولا يشبهه ، حقـاً .. ان النيل جد الأنهار جميعـاً . برســوخه ، بطـوله ، بعـرضه ، بحكمتـه ، بصبره ، بامتـداده ، بقـدمه . إذا مـا رأيت نهراً هنـا أو هناك ، فهـو المرجع، إليه أقيس .. وبـه أقارن . الجسر يخلو تقـريباً من المادة ، أعلام ملـونة ترفرف لا أدرى مغزاها ومدلولاتها .

الغرفـة تفيض بالضـوء مع أن السماء رمـادية ، طقس فى غير أوانـه ، برد قارس، بينما القاهرة تعبر حراً شديداً الآن ..

أقلب مفتاح الراديو بحثا عن إذاعة عربية ، من الصعب الاصغفاء إلى صوت القاهـرة ، يسـهل التقاط البرنـامج العام ليـلاً على الموجة القصيرة ، لاحظت أن الإذاعات العربيـة عموماً ضعيفة هنـا ، أقوى الإذاعات المسموعـة الموجهة من اوروبا أو امريكا .. لكن مهلا ..

ما هــذا ؟

يتحدث المذيع بلهجة أبناء شمال أفريقيا ، تونس بالتحديد ، أصبحت قادراً على تمييز اللهجـة التونسيـة من المغربيـة من الجزائرية ، بعـد أن زرت البلاد الثلاث ، وارتبطت بصلات حميمة مع الأصدقاء .

المذيع حزين جداً ،

فقيد الأغنية العربية محمد عبد الوهاب ..

ماذا ؟

لا بد اننى مخطئ .

أصغى من جديد ..

يقرن المذيع اسم الفنان العظيم بأوصاف الراحل والفقيد ، ثم يتردد صوت عبد الوهاب ..

حاسبت روحى على الأيام اللى انقضت

فى حبى معاه

لقيتها كلها أوهام ..

أن تسمع أغنية مصرية فى الخارج فذلك يكسبها أبعاداً مختلفة ، مثيرة للحنين وللشجن . فما البال إذا كان صوت عبد الوهاب يتردد مع خبر رحيله ؟

هذا عصر بأكمله يرحل ، تودع مصر رموزها خلال القرن العشرين إذ تدنو من مختتمه ، شعرت بحزن عميق ، وكأن جزءاً منى هوى ، ألم يكن صاحب الصوت وهذه الأنغام جزءاً من صباباتنا ، وهوانا ، وحنيناً ، كم من لحظات أتوقف عندها فى حياتى كعلامات والسبب .. اقترانها بصوت عبد الوهاب . رحت أتطلع إلى النهر ، كان الوقت مبكراً ، ومع ذلك جاءنى صوت جميل عطية عبر الهاتف نشيطاً ، يقظاً ، من الآن يبدأ متابعة الأعلام السويسرى لكى يعد رسالة عن أصداء وفاة عبد الوهاب لإذاعة القاهرة .

* * *

أبرزت بطاقتى الصحفية للسيدة المسئولة عن شباك التذاكر عند مدخل متحف الفنون الجميلة . أومأت برأسها قائلة ..

ـ تفضل ..

تعفينى البطاقة من رسم الدخول ، عشر فرنكات أى حوالى ثلاثة وعشرين جنيهاً ، أنه مبلغ زهيد فى سويسرا ، ولكنه ليس بالقليل بالنسبة لى ، خاصة عندما أحوله فى ذهنى إلى الجنيهات المصرية !

المبنى مهيب ، يتقدمه تمثال لرودان . كنت أسعى إلى رؤية ثلاث لوحات

بالتحديد يضمها المتحف لفنان أحببته جدا ، وأحتفظ فى مكتبتى بمستنسخات عديدة لأعماله ، اتجاه قائم بذاته ، عالم خاص جداً ، أنه هنرى روسو ، هنا لوحتيه المشهورتين عن الغابة ، ولوحة العرس ، وأن ترى الأصل الذى أبدعه الفنان نفسه فهذا أمر وأن ترى الأصل الذى أبدعه الفنان نفسه فهذا أمر مختلف تماماً . طفت المتحف لأقف على محتوياته . ولأطيل التأمل أمام لوحة لبيكاسو أو براك ، أو سيزان ، ولأمر بسرعة أمام لوحات الفن الحديث التى تحوى قدراً من الاستعباط أو الضحك على الذقون ، فهذا أحدهم يدلق الألوان كيفما اتفق على اللوحة فيختلط الأزرق بالأحمر بالأصفر ، ويطلق عليها اسما ، وهنا تجىء المرحلة الثانية من النصب على أيدى النقاد ، أما إذا كان هذا الرسام صاحب حظوة أو منصب فما أكثر المقالات والتعليقات والشروح والاتهامات لمن لم يفهم . مجرد مساحات لونية لاتعنى شيئاً ، وفى رأيى أن اللوحة إذا افتقدت الموضوع ، الرؤية . أصبحت مجرد عبث لونى ، وأعنى بالموضوع ، المفهوم التشكيلي للمضمون وليس المفهوم الأدبى ، فلكل فن لغته ، ومفرداته .

أطوّف بصحبة الفنان المصرى جمال عبدالناصر . وأعود بمفردى إلى لوحات هنرى روسو . أمضى وقتاً واقفاً. ثم أجلس فوق الأريكة المواجهة ، أمعن التأمل . وإذ يمضى الوقت أقوم متأهباً للإنصراف ، ولكن لا تطاوعنى نفسى فأعود لالقاء نظرة أخيرة ، ثم اخرى .. ولكن لا بد من المفارقة فى النهاية، أخرج من القاعة وأتوقف أمام آلة غريبة ، ضخمة ، تحتل البسطة الفسيحة ما بين الطابق الأول والثانى ، آلة موسيقية هائلة ، تم تركيبها من القمامة .

* * *

شاكوش ، بيانو قديم ، غطاء حلة كبيرة ، عجلة قاطرة ، سيوف ، دروع ، تروس . تم توصيل هذه المتنافرات كلها ببعضها ، ومن خلال دائرة كهربائية

تنطلق الطاقــة بعد ضغط ذر صغير ، لتبدأ هذه الآلات والأشيــاء فى الاصطدام ببعضـها ، محدثة أصواتاً متنافرة ، تتردد فى المبنى الضخم الكلاسيكى الطراز ، وكأنها محاولة لإشاعة الفوضى فى البنية المحكمة . ألا يشكل هذا نوع من الرد الفنى على أسلوب حياة شديد الانضباط . وخلال رحيلى عبر المدن السويسرية سوف أرى فيما بعد ما يؤكد رأيى .

الآلة الموسيقيــة الغربيــة تم تركيبها كلهــا من القمامة . وعنــدما ذهبت إلى اتيليه جمال عبــد الناصر وجدتــه يستخدم أشياء عــديدة فى تراكيب فنيــة عثر عليها فى القمامة . بل إنه أشار إلى تليفزيون كبير الحجم ، ملون ، قال لى إنه عثر عليه فى القمامة . ألقــاه أصحابه ربما لأن أحد مفاتيحــة سقطت ، أو لأن خدشاً أصابه .

فى القمـــامة السويسريــة يمكن أن تجد بيــانــو فى حالــة جيــدة جداً ضـــاق أصحابــه به ، أو استبدلوه بــآخر جديــد ، ولأن تكاليف نقلة مرتفعــة ولا أحد يصلح القديم، فأسهل الأمور التخلص منه بالقائه فى القمامة . أو ثلاجة فى حالة جيــدة ، أو كاميرا للفيــديــو ، فى لــوزان زرت نادى يضـــم مسرحاً ، وصـــالات وقاعات عــرض ، كل ما ضمه من أثاث ومعدات تم تجميعهــا من القمامة . هذا هو الحال فى المجتمعات الاستهلاكية المتقدمة ، لا وقت ولا مال لصيانة القديم ، أسهل شىء التخلص منه واستبداله بآخر جديد .

ولكن للقمامة السويسريــة خصوصيتها ، شملها النظــام أيضاً ، فلا يمكن القاء أى شىء كما اتفق وفى أى لحظة .

ثمة يوم للورق ، المجلات ، الصحف ، الكتب ، يقوم المواطن بحزم ما سوف يستغنى عنه ، وترتيبه ، المجــلات بمفردها ، الصحف بمعزل ، الكتب ، الأوراق الأخرى ، ثم يضعها بنظام فى المكان المحدد بالطريق العام .

ثمة يوم مخصص للأشياء المعدنية .

يوم آخر للأطعمة وبقاياها ، حيث توضع فى أكياس من البلاستيك .

كل شىء بنظـام ، ودقـة . القمامـة يتم فـرزهـا مقـدمـاً إذن . ثم يسـهل استغلالها أو إعادة تصنيعها .

* * *

عندمـا وصلنا إلى بيت جميل عطيـة فى المساء شممت رائحـة الطعام قـوية ونحن نصعد درجات السلم ، قلت لجمال عبد الناصر ..

ـ هذا طعام مصرى ..

وبـالفعل ، كان جميل قـد أعد لنـا بنفسه عشـاءً شهياً ، صينيـة سمك على الطريقة البـورسعيدية ، استخدم فيها الثـوم . والكسبرة ومواد أخرى أتى بها من مصر ..

كانت زوجته التى تعمل مدرسة ستتنـاول العشاء الليلة فى المدرسة . تقليد اتبعته منـذ زمن ، فى كل سنة يقيم خريجو عـام سابق حفلاً ، يجيئـون فيه إلى المدرسة التى تلقوا فيها تعليمهم بعد أن خـرجوا إلى الحياة وعملوا هنا وهناك . فى طفـولتهم واثناء دراستهم طلبت منهـم أستاذتهم أن يتحـدث كل منهم عن أمنيـاتـه ، عن العمل الـذى يرغـب الالتحاق بـه ، وبعـد أن يكتب هـذا تحتفظ بالأمنيـات كلها فى ملف . ثم تمضى السنين ، ويتفرق التـلاميذ ، وتتشعب بهم السبل ، وفى ليلـة معينـة يجتمعـون فى المدرسـة وتفـاجئهم الأستـاذة بتعليق أمانيهم القديمة التى كتبوها فى الطفولة .

وبالطبع ، مـا أوسع الفارق بين الأمنيات والواقع . تلميـذة كانت تتمنى أن تصير كاتبة ، هما الآن مساعدة ثالثة فى معمل تحاليل طبية .

أحدهم تمنى أن يصبح طبيباً شهيراً ، وهو الآن ميكانيكى سيارات .

وهكذا تتبدل الخطط ، وتحيد الأمانى ، وهكذا الحياة أيضاً !

* * *

الأحـــــد

.. صحفية ســويسرية تعمل فى الإذاعــة ، هذا موعـدى معها لإجـراء حوار مطـول ، من زيـوريخ جــاء مهاجـر مصرى ابــراهيم الملــوانى ، متخصص فى الكومبيـوتر ، استقــر به المقام هنــا منذ سنوات ، يتقن اللغــة الألمانية بــاللهجة السويسرية إلى حد مذهل ، جاء متطوعاً ليقوم بالترجمة .

فى البداية قدمت إلىّ السيـدة ريجيولا رانشلر علبتين صـغيرتين ملفوفتين فى ورق أنيق وبشرائط ملونة، قالت إنها هدية ، رمزية تقديراً لأدبى ، إذ أنها قرأت الروايتين اللتين ترجمتا إلى الألمانية وأعجبت بهما جداً ، قالت إن هذا أدب غريب عليها تماماً وجديد أيضاً .

سألتها ..

ـ هل قرأت روايتين ؟

أومأت ، سألتها

ـ هـذا يعنى أنك قرأت «وقــائع حارة الزعفــرانى» التى صدرت مـؤخراً فى برلين؟

ابتسمت قائلة إنها قرأت الرواية ،

ـ معى هنا .. فى هذه الحقيبة ..

كانت المرة الأولى التى أرى فيها كتابى الثانى بــاللغة الألمانية ، إذ صدر منذ عدة أسابيع ، ودار النشر فى برلين لم تــرسل إلىّ بعد النسخ الخاصة بى ، كانت مفاجأة سعيدة حقاً ، ورؤية كتاب جديد أمر لا يدركه تماماً إلا أصحاب القلم ، خــاصــة عندمــا يأتى المولـود الجديـد غـريباً ، يحمـل تراثى كلــه ، وعــالمى ، ومكوناتى، ولكن فى لغة أجهلها .

أبـدى جميل عطيــة مــلاحظــة ، وهى ضرورة ان أفتح العلبتين وأن أطلع الحاضرين على محتـويـاتهما ، قال ذلك بــالعـربية ، وأدركـت أن النظام هنــا

مختلف، فالهدية عندنا تخص صاحبها ، أمضيت وقتاً أفك الشرائط الملونة .
فتحت العلبتين ، الأولى تحتوى على شريط حريرى نحيل يحمل علامة مدينة بازل . والثانية تحوى حلوى تختص بها بازل ، قطع مربعة فى حجم شرائح البسكويت ، أصلب ، حلوة المذاق . ذكرتنى بقطع الحلوى التى تباع عندنا فى الموالد الشعبية والتى يحيط الغموض مكوناتها ، تذكرت نوعاً آخر من الحلوى ذقته فى مدينة نورمبرج منذ عامين ، قدمته إلىّ صديقة ألمانية من المدينة باعتزاز شديد ، أنها محاولة تجسيد الخصوصية ، فى نوع حلوى ، فى نقش معين على شرائط حريرية، فى طريقة معينة عند ارتداء الأزياء .

قدمت إلى السيدة نتيجة ملونة جميلة طبعت فى مطابع أخبار اليوم ، لوحات رسمها أوربيون لقاهرة الزمن الجميل فى القرن التاسع عشر ، لم أخف سرورى لانطباع السيدة الإيجابى وإعجابها الشديد بمستوى الطبعة المتقدم .

استغرق الحوار أكثر من ثلاث ساعات ، كانت قرأت «الزينى بركات» و«وقائع حارة الزعفرانى» قراءة دقيقة ، كل منهما تتجاوز صفحاتها فى الألمانية الخمسمائة ، ما من صحفى أجرى معى حواراً فى أوروبا إلا وجاء ملماً بعملى المترجم ، وتذكرت بعض الصحفيين الذين يجيئون لإجراء حوارات معى فى القاهرة ، خاصة أولئك الذين يراسلون المجلات العربية ، يجيء بعضهم وهم لا يعرفون أى شيء عن الأديب الذى سيحاورونه ، ويبدأون بطلب ذكر تفاصيل البطاقة الشخصية ، أى تاريخ الميلاد والوظيفة والحالة الاجتماعية والأعمال التى صدرت .

يعلق الأستاذ مصطفى أمين على ذلك ضاحكاً .

ـ أن من يطلب منى تفاصيل البطاقة الشخصية أقول له إن هذا سؤال مباحثى وليس صحفياً ..

* * *

مال النهار إلى وقت العصر ، وللعصر فى الغربة ثقل خاص ، فهو هن الضوء نذير بإقتراب الليل ، وهنا تهمى الأفكار والاحتمالات ، ومحاولة التنبؤ بما يقوم به الأحباب فى الوطن الآن .

عدت مع الفنان جمال عبد الناصر إلى منطقته الهادئة ، نزلنا من محطة القطار ، مشينا عبر طرقات مرصوفة بالحجر ، صاعدة إلى أعلى ، كان الطريق مرهقاً جداً بالنسبة لى ، فكأننى أرتقى سلماً حاداً .

والمنطقة التى نقصدها اسمها جواتنوم ، المنازل فيها مصممة وفقاً لفلسفة معينة، حيث لا توجد الخطوط الحادة فى المعمار ، ما من سقوف محدبة، إنما الخطوط منحنية تشبه القباب ، كذلك المداخل ، والأبواب ، والنوافذ ، الزوايا الحادة تثير عصبية الإنسان ، خطوط المعمار تشبه مدرسة مهندسنا العبقرى حسن فتحى ، ولكن البناء هنا لا يتم من أجل الفقراء وبهم ، الفقراء الذين يعيشون فى عشش الصفيح ، أو يتكدسون فى بيوت فقيرة مع حيواناتهم . هنا درجة رفيعة المستوى من الرفاهية ، فكل المشاكل حلت ولم يبق إلا الخطوط الحادة فى المعمار التى يجب التخلص منها ، النظرية التى تحكم المكان هنا ليست بهذه البساطة ، إنما هى تدعو أيضاً إلى الإعتماد على المواد الطبيعية ، متاجر الأزياء تعلن أن كل المواد المستخدمة مواد طبيعية ، المطاعم أيضاً . ذروة المكان فى المركز الثقافى الذى كان مصمماً فى الأصل من الخشب ثم احترق وأعيد بناؤه من الخرسانة التى احتفظوا بلوها الطبيعى ، لم يضيفوا إليها أى طلاء . يضم المركز مسرحاً ، وقاعات للاستماع إلى الموسيقى ، ومكتبة تضم عدداً كبيراً من الكتب حول المنطقة ، والفلسفة التى تحكم الحياة فيها ، والتى ترجع إلى فيلسوف ومفكر ألمانى اسمه رودلف شتينر ولد فى ٢٧ فبراير عام ١٨٨١ فى مدينة صغيرة تقع على منطقة الحدود بين النمسا وهنغاريا .

أعترف أننى لم ألم بما فيه الكفاية بلفسة شتاينر ، ولكن المكان جميل جدا ، تتضافر الخضرة الخصبة والأشجار الكثيفة والمبانى ذات الخطوط شبه

الدائرية على إضفاء قراءة خاصة ، ولكننى أتوقف أمام الهدوء العميق ، والعزلة التى تحيط بالمبانى ، كل منها بعيد عن الآخر . النوافذ مغلقة ، الأبواب موحدة . ولولا المظلات الموضوعة فى صناديق أمام الأبواب وأحياناً ترى أحذية ، لظننت المكان خلوا من البشر .

هل هو البرد ؟

أو أنه شىء آخر متصل بالطبيعة الإنسانية المتحفظة هنا ، والتى تنعكس بشكل ما على الجدران ، والحجر ، فما المبانى إلا صورة لساكنيها !

* * *

الاثنين صباحاً ..

يبدأ برنامجى منذ الثامنة صباحاً .

فى الثامنة تماماً جاءت صحفية شابة ، اسمها سيبيل اوتليكر . تعمل فى جريدة أخبار بازل ، اتصل بى أمس أستاذ عربى. فلسطينى الأصل ، يقوم بالتدريس فى جامعة بازل ، اسمه ادوارد بادين ، أخبرنى بالأسئلة التى ستوجه إلىّ فى هذا الحوار ، كلها ذات طابع سياسى ، حول حرب الخليج ، الديموقراطية فى مصر ، حركة الأصوليين الإسلاميين ، تلك الحركة التى يبدون بها اهتماماً كبيراً فى أوروبا .

وفى حواراتى مع الصحفيين الأجانب . أقول رأيى وما أعتقده بوضوح ، بصراحة ، أقول دائماً أنه ليست عندى لغتين ، الأولى محلية والثانية للتصدير . أثق أن الآخر عندما يستشعر نبرة الصدق فى رأيك سوف يحترمك حتى لو كنت تبدى ما يصدمه . أو ما لا يتفق معه .

كان لقائى بادوارد بدين أهم ما فى مناسبة هذا اللقاء ، أنه ذو وجه يفيض بمعاناة قديمة ، ذو لحية كثة . لكنه من هؤلاء الأشخاص الذين التقى بهم لأول مرة فأشعر أننى أعرفهم منذ زمن . يعمل حالياً فى تحقيق الجزء الثانى من كتاب أهتم به كثيرا (كنز الدرر وجامع الغرر) لا يبك الدويدارى ويعتبر أحد

المصـــادر الهـامة للعــصـــر المملوكـى . كمـا يهـتم بالأدب المصرى الحـديث .

صحبنى حتى محطـة القطـار ، لن أمضى أى ليلـة أخـرى فى بـازل ، كـان وجودى قرب جميل يلغى جزءاً كبيراً من شعورى بالغربة ، وتلك الوحشة التى تدهمنى خلال سفرى ، فأين زمان الشوق إلى الرحيل . أين ؟

لوحت بيدى لادوارد بدين الذى وقف فوق الرصيف ، بالضبط فى العاشرة والدقيقة الســابعة والعشرين تحرك القطار السويسري المنضبـط جداً . ضجة العجلات تبدو خـافتة ، النوافذ فسيحــة ، رحت أتطلع إلى المرتفعات الخضراء . والبيوت الصغيرة ، مرة أفكر فى عمل روائى أنهيت مرحلة كتابته الأولى ، ومرة افكر فيمن سوف ألتقى بهم اليوم وغدا ، من لم أعرفهم من قبل .

القطارات السويسرية ..

من بازل .. العاشرة والسابعة والعشرين

وصول زيوريخ . الحادية عشر والثالثة والعشرين ..

أتطلع إلى ساعتى .

بالضبط . ما من ثانية زائدة أو ناقصة ، لماذا الدقيقة السابعة والعشرين؟. لماذا الثالثة والعشرين ؟ لماذا التحديد الصارم ؟ . يرتبط ذلك بالحركة الكثيفة للقاطرات ، وضرورة انضباطها . لكن المثير للإعجاب حقاً هذه الدقة الحادة ، تمضى القطارات كعقارب الساعات المشهورة الدقيقة التى تصنع هنا ، قطارات طويلة ، يتجاوز عدد عرباتها العشرين ، تنتقل من سويسرا إلى الدول المجاورة ، كما يمكن رؤية قطارات فرنسية ، وألمانية ، وإيطالية ، ونمساوية ، ترتبط أوروبا بشبكة واسعة من القطارات التى تجعل القارة وحدة واحدة من الناحية الفعلية . كلها تسير بالطاقة الكهربائية ، القطارات السويسرية التى تعمل بين المدن خضراء اللون تحمل الصليب السويسرى ، ثمة قطارات أخرى أصغر ، ركبت أحدها من مدينة سولوتورن إلى برن ، طلاء العربات برتقالى اللون ، مرسوم داخله لوحات تضفى على العربات جوا مرحاً ، ثمة قطارات قديمة الطراز ، تمشى أيام الأعياد والعطلات فقط ، يمكن لشخص أن يؤجر القطار كله وأن يقيم فيه حفلة عيد ميلاد أوعرس ، أو يدعى أصدقاءه للنزهة والفرجة وتمضية الوقت. ما من وسيلة تشعرنى بالسفر وتثير عندى الحنين وتدفع بى إلى حافة الغربة مثل القطار . ما زلت أتذكر قطار الصعيد الذى كنا نركبه عند السفر إلى مسقط رأسى جهينة فى محافظة سوهاج بالصعيد الأعلى .

كان يتحـرك فى الثامنة صبـاحاً . بالضبط فى الثـامنة تبدأ الحركـة المتمهلة حيث لا يمكن سماع صوت احتكاك العجلات فى البـداية ، تتراجع الأعمدة التى تحمل المظلات ، والواقفون فوق الرصيف ، ثم تتزايد شيئاً فشيئاً ، حتى تكتمل السرعة . مازلت أذكـر عبور القطار للفواصل بين القضبـان ، وانتقاله من خط حديدى إلى آخـر . عبوره القرى الصغيرة . وتكاثف النخيل كلما أمعنـا التوغل جنوبـاً ، مازلت اذكر القـاطرة السوداء ، التى كـانت تعمل بالفحم ثم المازوت وتندفع بقـوة البخار ، صفـارتها الطويلـة الشجية والتى تسمع من مســافات قصية .

قطـار الثـامنة مفتـتح أمـرى مـع الســفر ، يقـف بالمــدن الرئيســية . أو المراكز .

قطار الثانيــة عشر . أو اكسبريس الصعيد ، أو السريع ، لا يقف إلا بعواصم المحافظات ، القطار الذى خلده عمال التراحيل الفقراء فى غربتهم عندما غنوا

ـ يا وابور الساعة اتناشر

يا مقبل على الصعيد

ثمة قطارات أخـرى بطيئة ، يسميها المسافـرون (القشاش) لا تترك محطة على الطريق إلا ووقفت بها .

كان أنسب القطارات لسفر أسرتى قطار الثامنــة صباحاً ، كان يصل مدينة طهطـا فى الثـالثة والنصــف بعد الظهـر ، ومنهـا ننتقل إلى جهينـة فنصل قبل الغروب.

ما زال قطار الثـامنة يتحرك فى موعده الصبـاحى . لم يخلفه أبداً ، لم تتغير مواعيد القطارات المصرية منذ عشرات السنين ثمـة قطارات جديدة تضاف إلى الحركة ولكن المواعيد القديمة ما تزال كما هى . كان حنين والدى يبدو واضحاً إلى القرية، عنـدما يروح يعدد المدن التى يقف بها قطار الثامنـة ، كثيراً ما كان يقول فجأة منهياً تأمله أو صمته ، أن القطار يدخل إلى طهطا الآن .

عرفت مصر القطارات قبل أوروبا كلها ، كانت ثانى دولة فى العالم تمد خطاً حديدياً ، بين القاهرة والإسكندرية ، بعد انجلتره مباشرة . ومنذ عام ١٨٥٦ ما تزال القطارات تسعى . تطلق صفاراتها عبر افق الوادى ،

وما من قطار ركبته فى مصر أو أوروبا إلا وداخلنى الإحساس القديم المستقر داخلى عندما كنت ألج عربة قطار الثامنة صباحاً المتجه إلى الصعيد .

قطار الثامنة هو مرجعى ، إليه انتسب وإليه أقيس كل ما عرفته من قطارات فيما بعد .

* * *

ضجيج احتكاك العجلات بالقضبان خافت جداً . يخرج القطار من مدينة بازل ، دائما عن السفر أفضل المقعد المفرد ، أميل إلى العزلة والتأمل ، وإمعان النظر فيما كان وسيكون ، ومراقبة ما حولى خفية . عدد الركاب قليل جداً ، فى الدرجة الأولى كثيراً ما كنت الراكب الوحيد ، وفى أحد الليالى ركبت القطار من جنيف إلى لوزان ، كان الوقت متأخراً . الحادية عشر ليلاً ، وبدون مبالغة لم يكن عدد الركاب فى القطار كله يتجاوز العشرة ، أى بمعدل راكب واحد لكل عربة ، لا يهم عدد الركاب .لا يؤثر ذلك فى حركة القطارات التى لا تتوقف على مدار الساعات الأربع والعشرين . أحد الأصدقاء السويسريين قال لى ان القطارات الذاهبة إلى زيوريخ أو القادمة منها تكون مزدحمة ، خاصة فى نهاية الاسبوع . ومعنى الزحام هنا أن تمتلئ معظم المقاعد ، زحام سويسرى أيضاً فالأمر نسبى .

المسافات هنا قريبة زمنياً ، فالبلد صغير ، والقطار يقطعه من أوله إلى آخره فى ثلاث ساعات . من بازل إلى زيوريخ أقل من ساعة . للمرة الثانية أنزل محطة زيوريخ الضخمة ، كأنها مكان آخر ، فى المرة الأولى جئتها من المطار بصحبة

السيدة كاسوت التى انتظرتنى . هذه المرة أصل إليها بمفردى . السيدة كاسوت تنتظرنى أيضاً ، وطبقاً للدقة السويسرية فقد حدد البرنامج المطبوع مكان انتظارها ، عند نهاية الرصيف .

المحطات كلها تتشابه فى سائر أنحاء العالم ، الأرصفة المستطيلة ، الفناء الفسيح المسقوف بمظلات حديدية ، حركة المسافرين ، وتطلع رجال الشرطة . واللصوص ، والحائرين ، والباحثين عن مصير ، والاشواق الإنسانية ما بين وداع حار وآخر متحفظ ، واستقبال بارد ولهفة فى عينين حزينتين . ملتقى للمشاعر الانسانية ومعرض لها ، السيدة انتونيا كاسوت تنتظر . ملامحها فيها شىءما من الشرق ، عندما سألتها ، قالت إنها من القسم الإيطالى فى سويسرا ، وإيطاليا تعنى البحر الأبيض ، نفس البحر الذى نطل عليه من الاسكندرية وبورسعيد ومرسى مطروح .

كانت السيدة كاسوت فى انتظارى دائماً عند وصولى إلى زيوريخ ، دائماً فى المكان نفسه والمحدد فى البرنامج ، عند نهاية الرصيف . وكان ذلك يثيرعندى شعوراً بالاطمئنان ، فالوصول دائماً إلى بلد أجنبى يثير عندى الحذر ، خاصة فى البلاد التى أنزلها لأول مرة ، وقد حدد البرنامج المطبوع لزيارتى كل شىء بدقة، فى برن وسولوتورن كان الصديق هارتموت فندريش ينتظرنى امام عربة الطعام، فى جنيف كانت الدكتورة فوزية العشماوى أستاذة الأدب العربى فى جامعة جنيف تنتظرنى أمام عربة الطعام أيضاً ولم يفت البرنامج ذكر لون الرداء الأحمر الذى ترتديه ، بالطبع يمكننى التعرف على أى إنسان مصرى فى الخارج بسهولة شديدة ، ليس فى أوروبا فقط التى تختلف فيها السحن والملامح اختلافاً كبيراً ولكن حتى فى البلاد العربية ، ثمة حضور خاص للملامح المصرية يجعلنى أتعرف على أصحابها فوراً ، الغريب أن البلد الوحيد الذى واجهت فيه صعوبة ، كان بلداً نائياً جدا عن مصر ، وهو المكسيك . هناك تتشابه الوجوه والسحن تشابها عجيباً بالمصريين خاصة والعرب عامة ..

وأعـــود إلى القطـــــارات الســـويسرية .

* * *

شبكة هائلـة من الخطوط الحديدية تصل كافـة المدن السويسرية التى تقع فى اتجاهات مختلفـة ، فى البداية انـزعجت عندما قـرأت برنامج زيـارتى، كان مزدحماً جداً ، ومازلت أذكر هذا اليوم الذى خرجت فيه من مدينة برن صباحاً، لأسافر إلى جنيف وأمضى فيها حوالى عشر سـاعات تنتهى ليلاً بركوب القطار إلى مدينة ليلاً بركوب القطار إلى مدينة لوزان حيث أقضى ليلتى ، ولكننى بعد أن ولجت عـالم القطارات الســويسرية بـدأت أتعجل لحظـات توجهى إليهـا ، فالمقاعـد وثيرة ، والمساحات فسيحة ، والنــوافذ عريضة تتيـح مجالاً للرؤية ، كنت أستعيد علاقتى القديمة بالقطارات ، وفى نفس الوقت أتلمس وقتاً يمكننى التأمل فيه والخلوة مع الذات ، حيـث أستعرض على مهل ما مضى ، وما يمكن أن يأتى. أيضاً أتابع الطبيعة السويسرية بالغة الثراء والجمال ، هذه المساحات الخضراء ، المرتفعـات المكسوة بـالأشجار والنبـاتات المختلفـة ، وحقول عبـاد الشمس بصفرتها الـلاسعة ، وعندما كـانت القطارات تحاذى البحيرات تكتمل عناصر الطبيعـة . الماء ، الجبال ، السـهول ، وعنـدما أعبر المدن الصغيرة الهادئة أطيل التحـديق ، وأحاول تثبيت منظـر مــا من تلك البلاد التى لن أنــزلها، ولن أصل إليها ، إنما أنا مجرد عابر بسرعة تتجاوز مائة كيلومتر وربما أكثر .

مــا بين لوزان وســولـوتورن ، وفـوق منحـدر جبلى بيت أنيق يشرف على بحيرة كانت تفـوض ما بين الضوء والضبــاب ، ما بين الـواقع والحلم ، لحظة عبور القطــار أمام البيت خرجت فتــاة جميلة شابة ، وقفت فى الشرفـة متطلعة صوب البحيرة ، وعلى الرغم من أننى لم أرها إلا جزءاً من الثانية فان وقفتها ، وطلتها ، وحضـورها ، وعبـورها فى مجال بصرى هذا المروق السريع الخاطف ، لن يمحى من ذاكرتى أبداً .

* * *

من لوزان ركبت القطار المتجه إلى بريتانى ، عربات لونها أخضر قاتم ، كان يـوم جمعة ، دعتنى الأستـاذة هيلارى كيلبـاتريك وزوجهـا إلى قضاء اليـوم بصحبتهما . عرفت هيلارى لأول مرة عام ١٩٨٠ فى ندوة دولية عقدت بمدينة روما ، سيـدة رزينة ، محترمـة ذات سمعة علمية ، من ايـرلنده ، متـزوجة من استـاذ هـولندى، هـى متخصصة فى الأدب العـربى . خـاصـة الأدب المصرى الحديث ، وزوجهـا الدكتـور واردنبـورج متخصص فى الإسـلام وله بحـوث عديدة حـوله . كان اليوم عطلـة بسبب أحد الأعياد القوميـة ، ركبنا القطار من لوزان ، لم أكـن بحاجـة الى الوقـوف أمام نافـذة التذاكـر ، زودتنى مـؤسسة بـروهيلفتيـا ببطـاقـة حمراء تتضمن اشتراكـا لمدة أسبـوعين ، أى المدة التى سأمضيهـا فى سويسرا ، هـذا الاشتراك يسمح لى بـركوب أى مـركبـة عامـة متحـركـة فى سـويسرا عـدا الطائرات ، كـافـة القطـارات ، والأوتـوبيسـات ، والتراموبات ، والمراكب النهرية .

كان القطـار يمضى فى اتجاه أقصده لأول مرة ، باتجاه الحدود الفـرنسية ويمضى القطـار محاذيـاً لبحيرة متراميـة الأطـراف . فى وسطهـا يقـوم جبل شاهق، مرتفع، صخرة هائلة ، حادة الحواف ، مكللة بالثلج الذى يعكس صليلاً معدنياً بسبب أشعة الشمس القوية ، ثمة شيئٌ ما فى الجبل جعلنى مشدوداً إليه من خلال نافـذة القطار ، ومع تدقيق البصر ، كان ممكناً رؤية عـربات تتحرك على طرق منحوتة ملتفة تبدو أحياناً وتختفى أحياناً، ثمة بيوت أخرى متناثرة ، بعضها قرب الحافة ، أو تقوم على الهوة ، وتذكرت بعض ما قاله الأصدقاء عن فقر المقيمين فى الجبال ، بالطبع الأمر نسبى كما ذكرت .

وصلنـا مدينـة بـريتانـى ، محطة صغيرة بـالقيـاس إلى محطات لـوزان ، وزيـوريخ ، وجنيـف ، ومثـل هـذه المحطـات تثير عنـدى حنيناً غـامضـاً ، وإحساساً بالإنتقـال ، والإقـامة المؤقـتة . فعـلى الرغـم مـن مـولدى فى قرية صغيرة بأعـالى صعيد مصر ، إلا أننـى عشت عمرى كلـه فى القـاهرة ، المدينـة

الشاسعة ، الضخمة، وما اقامتى بالمدن الصغرى إلا عابرة ، ومؤقتة .

على خط حديدي منعزل كان يقف قطار صغير ، أنيق ، مكون من عربة واحدة ، إنه القطار الذى يتسلق الجبال ، وله شهرة واسعة هنا ، خاصة عند السياح والأجانب .

فارقنا محطة بريتانى ، مدينة صغيرة ، مجلوة . بيوتها غير مرتفعة ، أنيقة ، تقع فى وادى ، إذ تحيط بها القمم المرتفعة من جميع الجهات ، الجبال المكسوة بالخضرة ، وتتناثر فوقها تجمعات من البيوت الصغيرة ، للهواء شفافية خاصة هنا . ربما لارتفاع المنطقة ، لكن ثمة شيء ما كان يذكرنى بالإسكندرية حيث تصفو الصفاء وتعمق الزرقة ، سماء الاسكندرية تبدو واحدة بآفاق أبعد، وشواطئ غير مرئية يمكن الوصل إليها يوماً ، إنه البحر ، والأرض الرملية فى الأصل . والتاريخ الطويل .

لم يكن صعباً الاستدلال على معرض شاجال . فاللافتات معلقة فى كل مكان والأسهم تشير هنا وهناك إلى مكان المعرض الذى أقيم فى متحف المدينة .

المتحف مكان حديث الطراز ، كتل ضخمة من الأسمنت ، رأيته متنافراً مع طبيعة المبانى القديمة فى المدينة الصغيرة الشفافة . كان الزحام شديداً ، طابور طويل من الرجال والأطفال والنساء جاءوا من سائر أنحاء سويسرا وربما من مسافات قصية ، ولكن دقة القطارات وسرعتها تجعل رحلة كهذه ميسورة . وكأن المرء ينتقل من ضاحية إلى أخرى .

طابور طويل من جنود الجيش السويسرى ، شباب فى أعمار متقاربة ، يرتدون البزات العسكرية ، جاءوا أيضاً من أجل شاجال ، الأمر الايجابى هنا هو أنه لا توجد مدينة تستأثر بالنشاط الثقافى فى سويسرا، فالمعارض الهامة تقام فى المدن الصغيرة أو الكبيرة على السواء ، والمؤتمرات الأدبية أيضاً . ومن هنا يسرى النشاط فى معظم أوصال البلاد .

شـاجـال فنـان عظيم ، واحـد من أعظم رسـامى القـرن العشرين يهودى روسى ، ترك الإتحاد السـوفيتى إلى الغرب ، عـالمه غريب فيه رؤيـة الأطفال ، وكـوابيس الشـيوخ ، وتحـرر المخيلة وانفـلاتها من عقاـلها . اللوحات التى كانت معـروضـة هنا من مقتنيات متحف الارميتـاج فى لينجراد ، وتنتمى إلى العشرينيات ، ويبدو انـه لم يكن مسموحا بعرضـهـا فى الإتحاد السوفيتى ، وأظن ان هنا موقفاً ضد شاجال ، ربما لأسباب عنصرية أو أيديولوجية ، وأذكر أن الشـاعر اليهـودى يفتيشنكو أعلن على المسرح خـلال فبراير ١٩٨٧ ، أثنـاء حضورى مـؤتمر ضخم عقد تحت شعـار «من أجل بقـاء البشرية» كـان ضد الأسلحة النووية ، ولكنه كان فى جوهره أول مؤتمر هائل الحجم من حيث عدد المشاركين ونوعياتهم . كان موجها إلى الغرب معلناً المنعطف الجديد فى سياسة الاتحاد السوفيتى الداخلية والخارجية . وبدء تصفية التجربة الاشتراكية الأم ومـا ترتب عليهـا . أذكر أن يفتشنكـو أعلن عن البدء فى إعـداد معرض خـاص لشاجال كبادرة للإنفتاح ودليل على التقرب إلى الغرب .

لا شك ان شاجال فنان عظيم ، ولا شـك أننى ضد اضطهاد أى فنان بسبب دينـه أوعنصره أو معتقداتـه السياسيـة . لكن هذا الاهتمام أيضـاً المكثف غير طبيعى . أن آلة الدعاية الغربية الجبارة غير نزيهة فى كل ما تقوم به ، وكثيراً ما يكون التركيز على فنـان بعينه لأسباب سياسية أو عنصرية ، دينيـة أو عرقية ، والمشتغلون بـالثقافة فى العـالم العربى يلمسـون هذه الحقيقة عنـد الاحتكاك بالغرب ، وهذا موضوع يطـول الحديث فيه. أذكر أننى التقيت فى موسكو ذات أصيل هـادئ بفنـان أوزبكـى ، لـوحـاتـه على درجـة رائعـة من الجمال والخصوصيـة أيضاً ، قابلتـه فى مرسمه الـذى حصل عليه منذ أسـابيع ، كان مكانـاً فسيحاً يفيـض بالضوء ، تبـدو من خـلاله مبانـى موسكـو المرتفعة . الشهيرة التى شيـدت فى العصر الستـالينى ، كـان الفنـان الأوزبكى يعيش فى ظروف حيـاتية سيئة جداً ، إلى أن تـدخل اتحاد الفنانين وسـاعـده فى الحصـول

على هذا المرسم ، تحدثنا طويلاً عن الـزمن ، والفن ، والعلاقات الإنسانية ، ولا أدرى مسار الحديث الذى قال فيه :

«لـو اننى كنت يهوديـاً لسعى اليهـود لـلاهتمام بى . وللحصـول على لوحـاتى ، والدعـاية لها وتبنيهـا .. لو أننى كنت منهم لبحثـوا عنى فى أقاصى اوزبكستان..»

أن أى مبالغة فى الـدعاية لفنان أو أديب على أسس عنصريـة تؤدى إلى نفس الموقع الخاطئ الذى كـان فيه الآخـرون يصادرون رواية أو يمنعـون عرض لوحة لأسبـاب أيديولوجيـة أو سياسية أو عنصرية ، إن ذلك يـولد الإحساس بالظلم عند الموهوبين ، كما يعد خداعاً للنـاس ، أقول هذا وأنا لا أقصد شاجال بالتحديد ، فعندما أتـوجه بنظرى إلى لوحة ، أو كتاب . لا يعنينى دين المؤلف أو موقفه السياسى ، أنما ما يعنينى فى المقام الأول فنه وإنسانيته . فارقنا المعرض بعد حوالى أربع ساعات ، توقفت مطولاً أمام لوحات شاجال المبكرة ، ولوحاته التى رسمها بين ١٩١٤ و١٩١٨ ، أى مرحلة الحرب العالمية الأولى والغريب أنه لا توج أصداء فى أعمال هذه الفترة للحرب ولا لـلأحداث المضطربة التى سادت الواقع الروسى وأدت إلى ثورة ١٩١٧ . ويبدو ان العـالم الداخلى لشاجال كان يستغرقـه إلى درجة كبرى ، الجذور الثقافيـة اليهودية ، رغبتـه فى الانطلاق ، معاناة الضغوط . لن أنسى أبداً لوحة ضخمة عدداً كبيراً من لوحات الجرافيك ، يبدو من خلالها منحى كاريكاتيرى . واحساس قوى بالسخرية ، وحب شديد للحيـاة ، فى أحد أقســام المتحف اصطفت عربـات قـديمة تمثل تطـور المراحل المختلفة لتطـور صناعة السيـارات منذ بدايـة القرن . قلت للدكتـورة هيلارى ضـاحكاً .

ـ بـرغم ثبات معـرض السيارات واستمراره لكنـه يكمل معرض شـاجال بطريقة ما ..

أومأت مبتسمة . وعندما نظر زوجها إلى ســاعته قال إن الوقت أزف ، وإننا

لا بد من الاتجاه بسرعة إلى المحطة لنلحق بالقطار . عندما خرجنا من المتحف كان طابور القادمين على نفس درجة الكثافة ، أطفال مدارس ينتظمون واحدا وراء الآخر ، أعداد اخرى من الجنود ، لكن .. لم يكن هناك وقت للتأمل . قطعنا المدينة بخطى سريعة متجهين إلى المحطة،كنت أتذكر حكمة أجدادى القدماء ،

ـ انتظر القطار فان القطارات لن تنتظرك ..

* * *

السبت :

.. حتى الساعة الرابعة أعتبر نفسى حراً .

إنه اليوم الوحيد الذى يخلو فيه البرنامج الدقيق من لقاء أو محاضرة لعدة ساعات .

هل أبقى فى لوزان ؟

أخشى مضى الوقت ، وملازمتى الفندق ، أمامى فرصة لأزور معرض لبروجل العظيم فى جنيف ، لقد قاموا بتجميع كافة اللوحات التى رسمها بالأبيض والأسود من متاحف العالم المختلفة ، ولمدة شهر سوف تعرض هذه اللوحات فى المعرض الكبير القريب من مطار جنيف الدولى . هل من المعقول أن أكون فى سويسرا ، وأن يكون هناك معرض يضم أعمال بروجل ولا أزوره ؟

تلك فرصتى إذن ..

بروجل ، إنه الفنان الذى اهتم به إهتماماً شديداً ، إنهُ الأقرب إلىّ ، لا أجد كتاباً عنه إلا وأسارع باقتنائه إلى درجة أننى أمتلك كتابين الأول بالمجرية التى لا أعرف عنها حرفاً ، ولكنه يضم لوحات نادرة طبعت بشكل جيد ، وعندى أيضاً كتاب آخر بالبولندية . وثالث بالبلغارية ، وكتاب عن لوحة واحدة فقط هى «برج بابل» بالألمانية ، والعديد من الكتب باللغتين الانجليزية والفرنسية .

إضافة إلى مستنسخات اقتنيتها خلال رحلاتى إلى أوروبا ، من باريس ، من بودابست ، أننى دائم التأمل فى عالمه ، فى قدرته الفذة على خلق عالم خاص ، عالم فيه أدق عناصر الواقع ، ولكن أعيد تشكيلها وفقاً لرؤيته هو . لوحاته تعكس نظرة شاملة وخصبة للحياة ، وقدرة فذة على الإلمام بعناصرها اليومية والتعبير عن جوهر الإنسان .

بيتر بروجل الذى عاش فى القرن السادس عشر ، والذى نبهنى صديق إليه عندما أشار إلى أوجه تشابه بين شخصيات لوحاته وبين شخصيات وعالم روايتى «وقائع حارة الزعفرانى» ، لم أكن رأيت لوحة واحدة له حتى ذلك الحين ، ولكننى بدأت أهتم به. وأبحث عن لوحاته ، حتى وقفت ذات يوم فى متحف الفنون الجميلة ببودابست أمام لوحتين أصليتين لبروجل ، الأولى عن صلب المسيح ولكن من وجهة نظر بروجل الواقعية الخاصة جداً ، والثانية ليوحنا المعمدان وهو يخطب فى الناس ، والغريب أن لوحة صلب المسيح لم أجد لها صورة واحدة فى العديد من الكتب التى أقتنيتها عن بروجل ،

تعلقت به ، واعتبرته مع تولوز لوتريك من أصدقائى الحميمين . أسعى دائماً إلى أعمالهما . واقتنى ما كتب عنهما ، وأفضل المستنسخات عن لوحاتهم .

إذن .. لا بد من الذهاب إلى جنيف . ومما شجعنى انتظام ودقة القطارات . وسهولة التعامل معها . الفندق يقع على بعد حوالى مائة متر من المحطة الرئيسية لمدينة لوزان .

تذكرت عندما وصلتها من جنيف أول أمس متأخراً ، كانت الساعة حوالى الحادية عشر والنصف ، وبرغم الحاح الدكتورة هيلارى على انتظارى فى المحطة ولكننى رفضت ، فالوقت متأخر ، وأنا حريص على ألا أزعج أصدقائى .

نزلت لوزان ليلاً ، حاملاً حقيبتى التى تضم أغراضى كافة ، وحقيبة يد

أخرى أصغر فيها كتبى وأوراقى ، أمـا جواز سفرى ونقودى فاحتفظ بهما فى جيب سحيق تحت قميصى . فى مثل هـذه اللحظات يصـل شعورى بـالوحـدة والضياع إلى ذروتـه . مدينة غـريبة أبلغهـا لأول مرة ، لا أعرف شـوارعها أو علاماتها المميزة ، كل ما أنا مزود بـه عنوان فندق أجهل موقعه ، طبقاً للبرنامج محجوز لى غرفة فيه . وعلى الـرغم من أن هيلارى قالت لى فى الهاتف إن الفندق قـريب جدا من المحطـة ، إلا أننى أحـرص دائما على إنهاء وضع الغـربة هـذا ، اتجهت إلى التاكسى ، قلت باختصار ..

ـ فندق الفا ..

كان السـائق مرحاً ، سألنى عـن مصر ، وعن رغبته فى السفر إليهـا ، وبعد دقائق لاحظت أننـا نرجع فى شـارع مواز للشارع الـذى انطلقنا منـه ، توقفت السيارة فى شارع منحدر أمام الفندق ، فى الصباح وعندما خرجت لأمشى قليلاً قبل الافطار اكتشفت أن محطة السكك الحديدية على مرأى البصر ، يبدو مبناها من أمام الفنـدق فى نهاية الطـريق المنحدر ، ابتسمت ، حقـاً .. إن الغريب أعمى ولوكان مبصراً .

* * *

بمجـرد ركوبى القطـار ، اختيـارى للمقعد الـذى سـوف أجلس إليه يبـدأ إدراكى على الفور للسفر ، إحساس خاص بـالرحيل ، ببدء السعى ، لا يواتينى مثلـه عند دخـولى الطائرة ، مع أنها وسيلـة انتقال أسرع ، ربما لأن القطـارات تمرق فى سفرهـا عبر المدن والقرى والجسور والانفاق الجبليـة تمر القطارات خلال عـالم أرضى محسوس ، ولـذلك يتجسد الـرحيل أكثر ، أمـا الطائرات فتمرق عبر فراغـات وفضاءات عُلا، واذا ذكر الطيار اسم مـوضـع نحلق فوقه فـانـه مجرد وهم ، رمـز ، عـلامـة ، لكننـا لا نـرى ولا نتحقق ولا نقف على التفاصيل.

والقطارات السويسرية بـانضباطها الشديد، باتساع فراغـاتها ونوافذها ،

وجمال الأماكن التى تعبرها تزيد الإحساس بالسفر وسهولة فى الوقت نفسه . كما أنها تلغى المسافة إلى حد ما .

فى برن، فى مساء اليوم الأول لوصولى . مضيت إلى منزل السفير المصرى ، الذى علم بوصولى فطلب من مؤسسة بروهيلفتيا الداعية إدراج موعد لتناول العشاء معه . وصلت سيارة السفير إلى الفندق ، يقودها سائق نوبى مخضرم ، من العاملين القدامى بوزارة الداخلية ، فى الطريق مررنا بالأحياء الراقية من برن ، برن العاصمة السياسية لسويسرا ، ذات حضور تاريخى قوى ، ولكنه تاريخ النبلاء والملوك ، القصور الضخمة ، المبانى العتيقة .

فى الظهر استقبلنى صديقى هارتموت فندريش على رصيف المحطة ، كانت المرة الأولى التى نلتقى فيها منذ وصولى إلى سويسرا . قال لى إن الفندق قريب . مشيت إلى جواره نحمل حقائبى . وبعد أن تكرر موقف تسجيل اسمى فى استمارة الوصول ، وتدوينى تاريخ ميلادى ، رقم جوازى ، عنوانى ، المدة التى سوف أمكثها ، خرجت بصحبته إلى مطعم أنيق . كانت زوجته فى انتظارنا ، سيدة لطيفة ، حدثنى عنها هارتموت ، تعمل محامية ، أثناء تناولنا الغذاء حدثتنا عن إحدى عميلاتها اتصلت بها صباح اليوم وأخبرتها أنها اشترت مسدساً . وسوف تقتل زوجها كان الموقف غريباً ، وتحدثت زوجة هارتموت عن محاولتها اقناع السيدة بالعدول عن فكرتها . ولكن يبدو أنها مصممة ، موقف غريب كنت أفكر فيه بعقلية الروائى وكانت تتحدث عنه بهدوء قانونى !

مشيت مع هارتموت عبر شوارع برن المغطاة ، أقواس متتابعة ، ذكرتنى بشارع ريفولى فى باريس ، وشارك محمد على الذى بنى فى القرن التاسع عشر على نمط شارع ريفولى . ولكن الأقواس السويسرية فى برن ذات تكوين خاص ، كان ثمة شىء ما فيها يذكرنى بمدن المغرب وتونس ، شىء ما يستعصى على الرصد، أقرب إلى الشعور منه إلى الوعى . ولكن بمجرد الخروج من هذه

الممرات المغطاة تفاجأ بالحضور القوى للمبانى الحكومية الاتحادية ..

قلت للسائق النوبى إننى صديق لسفير مصرى جاء إلى برن فى بداية السبعينيات ، ودعانى لزيارته ، لكننى لم ألب الدعوة وقتئذ ، إنه حسين ذو الفقار صبرى الطيار القديم ، والثائر ضد الملكية . والأديب ذو الأسلوب الخاص . لن أنسى أبداً كتابه «يانفس لا تراعى» الذى صدر بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ .

بعد عشرين سنة من دعوته أجىء إلى برن وأسعى هذه المرة للقاء سفير آخر أراه لأول مرة ، ولكن تربطنى به صلة روحية قوية ، أنه ممدوح عبد الرازق ، ابن الشيخ مصطفى عبد الرازق . المفكر الإسلامى العظيم ، وأستاذ الفلسفة البارز ، وشيخ الأزهر . منذ سنوات أعددت صفحة خاصة من أخبار الادب التى أشرف عليها عنه ، وذلك لأذكر الجيل الجديد بدوره الفكرى المستنير فى حياتنا الثقافية والفكرية .

الأصدقاء السويسريون مثل هارتموت فندريش ، قالوا لى إن والده كان أستاذاً لنجيب محفوظ . هكذا يعرفونه هنا ، إذ كان نجيب محفوظ تلميذاً فى قسم الفلسفة في بداية الثلاثينيات عندما كان الشيخ أحد أساتذته .

كان موعد العشاء فى الثامنة ، ولكن خلال اتصالى بالسفير اقترح أن أحضر فى السابعة حتى يمكننا تبادل الحديث بشكل خاص . كان العشاء سيضم أيضاً عدد من أعضاء السفارة المصرية ، وأصدقاء سويسريين ، وصلت إلى المبنى الأنيق ، داخله يفيض بالذوق ، الجدران مغطاة بلوحات رائعة من الفن التشكيلى المصرى . السفير شخصية قوية الحضور ، والملامح ، أهم ملامحه شارب كث كثيف ، مرح التكوين ولكنه كان يخفى ألماً عميقاً ، إذ توفيت زوجته منذ شهور قريبة ، قال انه حرص على دفنها فى قرية (أبو جرج) بمحافظة اسيوط ، انها بلدته ، يحرص على زيارتها ، هناك الأقارب ، ومرقد والده وأقاربه أيضاً . كانت زوجته إبنة عمه الشيخ علي عبدالرازق صاحب الكتاب

الشهير الذى أثار ضجة كبرى خلال العشرينيات ، «الاسلام وأصول الحكم» .

تحدثنا عن الماضى ، وعن الفكر المصرى ، وعن الصعيد ، عن (ابو جرج) وعن جهينة مسقط رأسى ، وعن الحاضر .

فى الثامنة بدأ المدعوون يفدون ، فوجئت بالسيدة انتونيا كاسوت وزميل لها من بروهيلفثيا ، سألتهما أين سيقضيان الليلة فى برن ؟

قالت السيدة كاسوت انهما سيعودان إلى زيوريخ الليلة .

مسافة تعادل المسافة بين القاهرة والإسكندرية ومع ذلك يمكن للمرء أن يخرج مرتدياً ثياب السهرة .

وأن يركب لمدة ساعة ، ويتناول العشاء ، ثم يرجع فى نفس الليلة ، وينام فى داره ، والفضل يرجع إلى دقة ، وراحة ، وانضباط .. القطارات السويسرية .

* * *

عندما عدت إلى برن فى المرة التالية ، نزلت نفس الفندق ، فندق بارن أو الدب، ولكن ، فى غرفة مختلفة ، لم أفرد محتويات حقيبتى ، إنما هى ليلة وغدا صباحاً سوف أتجه إلى ألمانيا الغربية .

فى السادسة مساء خرجت بمفردى متجها إلى بيت هارتموت فندريش ، كنت مزوداً بعنوانه فقط . ركبت عربة أجرة ، خرجت من المدينة ، للخضرة هنا رواء عجيب ، خضرة مصقولة ، مشذبة ، مهذبة . بعد حوالى خمس عشر دقيقة توقفت السيارة أمام مدخل عمارة ضخمة على الطراز الحديث . منطقة متكاملة، لا وجود للمبانى التاريخية أو القدم هنا . مبانى ضخمة متشابهة . تذكرنى بالمساكن الشعبية فى القاهرة ، ولكن هذه مساكن شعبية سويسرية ، أضخم ، أكثر ارتفاعاً ، شقق من طابقين ، مثل بيت صغير ، لكن الخرسانة الضخمة ، ولونها الرمادى ، والخطوط الصارمة تقف ما بينى وبين هذا النوع من البناء الحديث .

فوجئ هارتموت فندريش بـى أقف أمام الباب بعد أن ضغطت الجرس ، إذ أننى لم أضغط الهاتف الداخلى للمبنى والسبب هو أننى دخلت من الباب الرئيسى مع إحدى السيدات ، وفى المصعد سألتها عن شقة السيد هارتموت فندريش ، أبدت حماساً لمساعدتى وصحبتنى حتى باب الشقة .

يبدو السويسريون متحفظون جداً من الخارج ، منضبطون تماماً ، يميلون إلى العزلة ، ولكن إذا طرقت عالمهم الداخلى سوف تجدهم قوماً لطافاً جداً، يبدون وداً فياضاً ، ما من مرة سألت فيها عن عنوان ما فى الطريق إلا ولاقيت مساعدة حقيقية . لم أقابل بتجهم أو رفض مبطن . لكننى مجرد عابر . ولا أعرف كيف يكون الأمر إذا ما اتصلت العلاقة واستمرت .

كنت أول الواصلين إلى بيت فندريش ، قبل وصول الآخرين المدعوين للعشاء على شرفى . يتكون البيت من طابقين ، فى الأول صالة استقبال ومكتب زوجته الذى تمارس من خلاله عمل المحاماة . فى الطابق الثانى مكتب فندريش، البيت كله مدجج بالكتب ، وفى كل مكان تحفه من الشرق ، إما سجادة ، أو آنية من خزف ، أو صندوق مطعم ، أو نسيج إيران دقيق . أو مشربية خشبية كاملة من خان الخليلي ، أرفف مكتبته تضم المصادر الرئيسية فى الأدب العربى ، عرفت هارتموت فى منتصف الثمانينيات ، وهو عالم بمعنى الكلمة ، دقيق جداً ، بل صارم الدقة ، يتمتع بروح مرحة رغم جديته الشديدة ، ترجم لى (الزينى بركات) وعدداً من القصص القصيرة ، لكنه ترجم عدداً كبيراً من الروايات والقصص العربية ، بدأ بترجمة نماذج من أدب الشهيد الفلسطينى غسان كنفنانى ، وإليه الفضل فى معرفة الأدب العربى خاصة فى سويسرا الناطقة بالألمانية . وفى ألمانيا الغربية . أنه أستاذ للأدب العربى فى الجامعات السويسرية، حصل على الدكتوراه من امريكا ، وكان موضوعها دراسة لفن ترجمة الشخصيات فى كتاب «وفيات الأعيان» لابن خلكان ..

أشرت بأصبعى إلى المجلدات الثمانية فوق الرف ، قلت :

ـ كان لك الفضل فى تنبيهى إلى أهميــة وتفرد طريقة تقــديم الشخصية عند ابن خلكان ..

فابتسم وأشــار بدوره إلى كتاب (منــامات الوهــرانى) الذى حقق وطبع فى مصر خلال الستينيات .

ـ وانت نبهتنى إلى تفرد وأهمية هذا المؤلف الفريد ..

تــرجم فندريش عــدداً من تــرجمات (وفيان الأعيــان) وصدرت فى كتــاب بالألمانية عنوانه «أبناء الزمان» ، كما حقق وترجم نصوصاً طبية نادرة للأطباء العرب . إلى جانب ترجماته لــلأدب العربى الحديث . شاركت معه فى مؤتمرات عديدة ، مؤتمر انترليت فى ألمانيا الغربية عام ١٩٨٨ ، ومؤتمر الأدب العربى فى برلين عام ١٩٨٨ . ونــدوة الرواية العربية فى بــاريس ، وخلال زيارتى تلك فى المهرجان السنوى للأدب السويسرى الذى عقد فى سولوتورن .

دعــا فنــدريش إلى العشــاء بعض تــلاميــذه فى الجامعــة من دارسى الأدب العربى ، والــدكتور بيــورجل أستاذ الأدب العــربى بجامعــة برن . والــدكتور ادوارد بــدين الفلسطينى الأصل والــذى لاقيتـــه فى بــازل حيث يعيش ويعمل بالجامعة ، كان بين التلاميذ انتيــا موللر ، تلميذة فندريش ، وتسكن زيوريخ ، كانت راجعة من الكويت التو ، حيث عملت لفترة فى الصليب الأحمر ، كمترجمة ، وعنما سألنــاها عن الأوضـــاع هناك اعتــذرت بحزم ، فــالعاملــون فى الصليب الأحمر يجب أن يحتفظوا بما سمعوه أو شاهدوه .

فى هذه الليلة تناولنــا عشاءً سويسرياً تقليدياً ، خضروات طــازجة ، وأنواع فاخرة متنوعــة من الجبن ، والخبز ، والبطاطس المسلوقة . كانــت أنغام عربية تتردد فى خلفية المكان ، موسيقى أندلسية الأصل ما تال تعزف فى مديد ، حوالى الحادية عشر تأهبنــا للانصراف . صحبنى أحــد تلاميذ فنــدريش إلى الفندق ، يعمل فى وزارة الدفاع مترجماً ، وبالطبع سرعان ما يلتزم الصمت عند الحديث فى الأمور العامة . إنه هو صاحب ذلك الجواب الحاد القاطع عندما سأله دكتور

بيورجل عن رئيسه فقال له بحزم إنه لن يذكر اسمه ، وحتى لو ذكره فان ذلك غير مفيد له ، لأن لا يعرفه .

انيتا موللر اتجهت مع ادوارد بديـن إلى المحطة الرئيسية ، هى إلى زيوريخ . وهو إلى بازل ، أبعد قليلاً .. الوقت متأخر ؟

لا يهم ، فالقطارات السويسرية تعمل طوال الليل ..

* * *

الاثنـــــين

بعد أن تناولت إفطارى فى الفندق قرأت مرة أخرى البرنامج .

الثامنة وخمسون دقيقة : الرحيل من برن

العاشرة : الوصول إلى بازل ، تغيير القطار .

العاشرة و١٧ دقيقة : الرحيل من بازل ، رصيف رقم ٨

العاشرة و٥٦ دقيقة : الوصول إلى فرايبورج بألمانيا الغربية .

الساعة ١٢ : محاضرة فى جامعة فرايبورج .

هذا هو برنامجى اليوم ، مرة أخرى أقف أمام مكتب الاستعلامات فى فندق بـارن (الـدب) لأنهى إجراءات إقـامتى . أثنـاء تنـاولى الإفطـار لاحظت اثنين ملامحهما عربية ، كانا يتناولان طعام الإفطار صامتين ، كان أحدهما يبدو أهم من الآخر . لم نتبـادل كلمة ، لكننى عندمـا وجدتهما قد انتقلا للجلـوس قرب المدخل .

ـ صباح الخير

قاما ليردا التحية ، سألتهما عن بلدهما ، قال الأكثر أهمية .

ـ من ليبيا ..

ابتسمت مرحباً ، وقلت اننى من مصر ، فقال ..

ـ واضح طبعاً ..

انحنيت لأمسك بحقيبتى ، عندئذ قال الرجل الذى يبدو أقل أهمية .

ـ بالتوفيق إن شاء الله .

أحنيت رأسى .

ـ السلام عليكم ..

مضيت متأثراً هذا رجل من بنى قومى ، لا يعرفنى شخصياً ، ولم يلتق بى، ولن يلتقى بى فى الأغلب ، لا يعلم عنى شيئاً . ومع ذلك ينطق بلهجة طيبة متمنياً لى التوفيق ، حقاً .. ما أجمل الإنسانية ، لقد تخللت هذه العبارة يومى كله .

* * *

الاثنين : الثامنة وخمسون دقيقة :

الجو ضبابى . يبح القطار فى بحر من الضباب كاللبن الأبيض يختلط باللون الأخضر للأشجار والأعشاب . يخرج من برن ، لن أنسى أبداً هذه القنطرة أو ذلك الجسر الحديدى الهائل الذى يقوم فوق هوة هائلة يجرى فى قاعها نهر ، جسر يعد من معالم برن ، رأيته من بعيد عندما صحبنى الصديق فندريش ، ولكن المرور فوقه بالقطار ، والتطلع إلى الفراغ أمر مثير ، وما من شىء فى السفر يثير عندى الحنين مثل عبور القناطر والجسور خاصة تلك المحتفظة بطابع القدم والعتاقة ، الجسر يعنى همزة الوصل بين عالمين ، بين ضفتين ، يعنى الاستئناف ، الاستمرار ، المضى إلى الأمام .

من برن إلى بازل ، طريق شديد الخضرة . يمر بمناطق ريفية ومدن صغيرة مغطاة بضباب وكلما مضى القطار . انطوى الوقت . وخف الضباب قليلاً .

استعيد بعضا من ملامح رحلتى ، اليوم أمضيت حوالى عشرة أيام ، أصبح جزءاً من تراثى مرتبطاً بالمكان ، فى القطار أستعيد التفاصيل على مهل ، بينما تمضى العربات مشدودة إلى بعضها ، كالأيام ، كالساعات ، كالثوانى ، وأحياناً ترتجف إذ تعبر فواصل ما بين القضبان ، هذه الارتجفات التى تنبهك إلى أن الطريق لا يمضى مستوياً تماماً ، وأن ما تطويه منه لا يتكرر .

الجمعة الماضى ، ركبت القطار لأول مرة فى رحلتى بدون البرنامج ، كنت أمتلك - كما ذكرت - حوالى ثمانية ساعات خلت من برنامج محدد ، كان ذلك فى لوزان ، قررت أن أذهب إلى جنيف لأشاهد لوحات بروجل وأعود قبل الثالثة ظهراً .

تحركت فى التاسعة والنصف ، ركبت القطار الذى خلا تقريباً من الركاب، كنت سعيداً لأننى أقوم برحلة خارج النظام الصارم لبرنامج زيارتى.

نزلت محطة المطار ، لم أبذل جهداً كبيراً فى الاستفسار عن مكان أرض المعارض التى ذكرتنى إلى حد ما بمعرض مدينة نصر فى القاهرة ، ولكن المكان كله هنا مغطى ، والقاعات عديدة .

مضيت لرؤية لوحات بروجل ، وعندى تلك الرهبة التى تنتابنى كلما تأهبت لرؤية لوحات أصلية لفنانين عظام رحلوا ، اللوحات المعروضة كلها بالأبيض والأسود ، على مهل شديد مررت بالمعروض متوقفاً أمام كل منها ، متأملاً ، متفحصاً ، لقد أحضرت هذه اللوحات من معارض ومتاحف عديدة فى كافة أنحاء العالم ، فرصة نادرة لن تتكرر بالنسبة لى ، كما أن فكرة تجميع أعمال فنان واحد من مختلف أنحاء العالم من أنبل الأنشطة الثقافية . وخلال رحلتى السويسرية رأيت ثلاثة معارض هامة .

- معرض أعمال مارك شاجال فى بريتانى
- معرض أعمال بروجل فى جنيف .
- معرض أعمال مودليانى فى زيوريخ .

بالنسبة لى كانت لوحات بروجل أهم ما توقفت عنده للعلاقة الطويلة الوثيقة التى تربطنى بالفنان العظيم ، كان عدد الزائرين أقل بكثير من زوار معرض شاجال اومودليانى ، أتاح لى ذلك فرصة متأنية لرؤية أعمال هذا الفنان العظيم ، ثلاث ساعات كاملة توقفت خلالها مطولاً ، تأملت واقتربت وخلعت نظارتى الطبية لأحدق متمهلاً ، وعندما حانت الساعة التى يجب أن

أمضى فيها ، تراجعت بظهرى مودعاً المكان كله فتلك لوحات لن اراها بعد ذلك إلا فى الكتب .

خرجت إلى الفراغ السويسرى الرحب المحيط بالمطار ، كانت الطائرات تقلع بانتظام مبددة الهدوء ، وكنت أمضى عائداً إلى محطة القطارات مشبعاً بفن بروجل ، وقد ظهر عندى أفق جديد !

قبل الثالثة بقائق ، توقف القطار فى محطة لوزان ، لم أحتج إلى ركوب تاكسى هذه المرة ، الآن .. أعرف الطريق ، إلى الفندق .

ويمضى القطار إلى بازل ، فى المرة الأولى وصلت إليها من زيوريخ . وهذه المرة أجيئها من برن .

أغفو قليلاً .. تختلط علىّ الصور والأفكار ، يخيل الىّ أننى أستمع إلى صوت الصحفى الكبير محمد حسنين هيكل ، لماذا هيكل بالذات ؟ . لا أدرى منطقاً محدداً بحكم قانون التداعى عندما ينتقل العقل من اليقظة إلى النوم .

أفيق لأجد القطار يهدئ من سرعته ، يدخل إلى محطة بازل المسقوفة بغطاء حديدي ضخم. أنزل من القطار ، الآن أعرف ملامح المكان إلى حد ما ، الأرصفة العديدة المتجاورة ، القطارات المنتظرة وتلك الموشكة على الرحيل ، مفاجأة سارة بالنسبة لى .

جميل عطية يقف فوق الرصيف متطلعاً ، باحثاً عنى ..

يعرف أننى سوف أصل فى العاشرة ، وأننى سوف أمضى سبعة عشر دقيقة ، فارق الوقت بين وصول القطار من برن ، وتحركه إلى ألمانيا الغربية . تأثرت حقاً ، فالوقت مبكر ، ومنزله بعيد نسبياً ومع ذلك جاء من أجل هذه الدقائق القليلة . فى مثل هذه المواقف أخفى تأثرى الشديد بالحديث بصوت مرتفع وفى موضوعات أخرى . بسرعة اتجهنا إلى خزانات حفظ الحقائب فى المحطة ، وضعت حقيبتى الكبيرة وأغلقت الباب الضخم بعد أن وضعت فرنكين سويسريين معدنيين ، من حقى إذن الاحتفاظ بالحقيبة لمدة أربع وعشرين

ساعـة ، المفروض أن أصل غـداً إلى نفس المحطة فى التـاسعة وثـلاثة وأربعين دقيقة . ولم أكن قلقاً ، فالقطارات السويسرية أثبتت لى دقتها الصارمة ، حملت حقيبة جلـدية صممتهـا فى القاهـرة خصيصاً لأضع فيهـا الكتب عنـد سفرى بالطائرة وأحملها فى يدى ، إذ أن أثقل الأشيـاء هى الكتب ، خاصة عند السفر ، فى الحقيبة وضعت ما احتاجه لمدة ليلة واحـدة ، غيار داخلى ، فوطة وجه . عدة حـلاقـة . مصحف ، ديـوان الحماسة للبحترى الـذى صحبتـه معى لأقـرأه . وترجمة عربية لمنطق الطير ، كتاب فريد الدين العطار .

لا أطمئن خـلال ترحـالى إلا بصحبـة أكثر من كتـاب للقـراءة ، خوفـاً من انتهـائى فجأة من قراءة كتـاب واحـد فأجد نفســى فى فراغ ، مع أننى خـلال السفـر قـد لا أجـد الـوقت الكـافى لاتمام كتــاب ، ولكن لا تكتمل ألفتى ويتم اطمئنانى إلا برفقة عدد من المؤلفات الحميمة إلى قلبى . كنت أصحب أيضاً ستة نسخ من الترجمة الألمانية لروايتى (الزينى بركات) . مرسلة إلى الدكتور أسعد خير الله أستاذ الأدب العـربى فى جامعة فرايبـورج ليوزعهم على الطلبة ، حتى تحرك القطار لم أكف عن تبادل الحوار مع جميل عطية ، أغلق الباب ، لوحت له بيــدى ، واتجهت إلى الـداخل ، حيـث جلست فى مقصـورة بها شــاب كثيف الشارب، لا أعرف جنسيته ، احتفظت بصمتى ورحت أتأمل الأماكن التى نمرق خلالها.

* * *

القطار ألمانى ، متجـه إلى نقطة أبعد فى ألمانيا الغربيـة . لم أسأل عنها ، وعلى الرغم من قصر المســافة بين بـازل وفرايبورج أربعين دقيقـة فقط ، فان مجرد الإحساس بالانتقـال من دولة إلى أخرى يضيف بعدا جـديداً للسفر . أنها المرة الأولى التى أنتقل فيهـا من بلد إلى بلـد بالقطـار . استفسرت من أصدقـائى عن الطـريقة التي يتم بها مراجــعة الجـوازات . وهل هنـاك حدود يقف عنـدها القطار ؟

القطار بين سويسرا وألمانيا لا يتوقف عند نقطة محدودة تمثل الحدود ، انه يمضى بنفس السرعة . ويمر رجال الشرطة داخل القطار نفسه لمراجعة التأشيرات .

لم تمض دقائق إلا رأيت رجل الشرطة الألمانى فى زيه الأخضر يقف بباب المقصورة ، كان مسلحاً برشاش قصير ، فتاك المظهر ، وجهاز لاسلكى صغير للاتصال . تطلع إلىّ . وقدمت إليه جواز سفرى على الفور ، راح يقلبه بعناية وبين الحين والآخر يتطلع إلىّ . علمتنى تجربة السفر إلا اهتز ولو لثانية ، إلا يختلج لى طرف أمام رجال البوليس والجوازات فى أى مطار أو ميناء ، طالما أننى لا أحمل أى ممنوعات ، وأوراقى سليمة تماماً . كنت مهيأ أيضاً لأى سخافات ، فكثيراً ما سمعت خلال الفترة الأخيرة عن مضايقات تعرض لها مصريون أو عرب خاصة بعد حرب الخليج .

ـ هل لديك شيء يب الاعلان عنه ؟

ـ لا

ـ اين حقائبك ؟

أشرت إلى حقيبتى الصغيرة ..

ـ أفتحها

فتحتها .

راح يقلب محتوياتها بعناية ، أشار إلى النسخ الست من الزينى بركات .

ـ هل تتاجر فى الكتب ؟

ـ وهل الكتب ممنوعة ؟

ـ لكنك تحمل ستة نسخ من كتاب واحد ..

امسكت بنسخة من الترجمة الألمانية ، فتحت المجلد على الصفحة الأخيرة . حيث صورتى والتعريف بالمؤلف .

تطلع إلى الصورة بعناية ، وبسرعة تغيرت ملامحه .

ـ أهلا بك فى ألمانيا ..

وضعت جواز سفرى فى جيبى ، وعدت أتطلع من النافذة ، كان القطار يتمهل قليلاً . انها فرايبورج ..

* * *

فرايبورج ..

على الرغم من أننا لم نلتق من قبل ، لكننى تعرفت فوراً على الدكتور أسعد خير الله الذى كان ينتظرنى فوق الرصيف ، على الفور شعرت أننى استأنف الحديث معه ولا أبدأه . فكأننا نعرف بعضنا منذ سنوات ، أنه أستاذ للأدب العربى والإسلامى فى جامعة فرايبورج ، ثالث أقدم جامعة فى ألمانيا الغربية بعد جامعتى هايدلبرج وتيبومبخن ، هنا درس الفيلسوفان لألمانيا ، هايدجر وهوسر .

ومنذ سنوات طويلة يعيش أسعد مع أسرته هنا ، يدرس الأدب العربى ، والإسلاميات ، يتقن الفارسية أيضاً ، وكما شعرت بالألفة بسرعة تجاهه ، سرعان ما شعرت بألفة أخرى تجاه المدينة . والمدن فيها شىء غامض تماماً كالبشر يجعلك تقبلها بسرعة أو تنفر منها ، وحتى أكون دقيقاً أقول إننى أحببت فرايبدرج ، ولكم تمنيت أن أقضى وقتاً أطول بها .

ثمة شىء ما ذكرنى بمدينة فاس المغربية رغم اختلاف الطابع بينهما ، فرايبورج مدينة أوروبية ، ألمانية جداً ، قديمة ، وفاس مدينة ، عربية ، عريقة ، ربما القدم هو ما جمع بينهما ، وكذلك قنوات المياه . فى فاس يتدفق الماء عبر قنوات صغيرة بحذاء الطرق الضيقة وكذلك فرايبورج ، حركة دائمة لا تتوقف فى القنوات الضيقة تضفى حيوية وطابعاً خاصاً .

فى الجامعة القيت محاضرة عن عناصر الاستمرارية فى الثقافة المصرية ، وقرأت قصتى «الثلاثون من فبراير» التى ترجمها هارتموت فندريش إلى الألمانية منذ سنوات ، ثم جرت مناقشة مفتوحة مع الطلبة والأساتذة الذين

جلسوا فى مقاعد الطلبة ، محاور عديدة تضمنت الأدب العربى وخصوصيته ، وحرب الخليج ، والتاريخ المملوكى لمصر ، كان بين الحاضرين أستاذ كبير سررت جداً للتعرف عليه ، البروفيسور أولريش هارمان ، متخصص فى التاريخ المملوكى لمصر ، وفى المساء ، فى بيت الدكتور أسعد خير الله جرى حوار خصب بينى وبينه ، لم يكن مجرد دارس للتاريخ المملوكى ولكنه عاشق له أيضاً ، حقق عددا هاماً من مصادره ، أخبرنى عن كتاب قديم حول الأهرامات يعمل فى تحقيقه الآن ، وسوف يطبع قريباً ، زوجته تتقن العربية ، عاشت فى مصر سنوات من عمرها ، سكنت المناطق الشعبية وتجيد الحديث باللغة العامية، متخصصة فى المجتمع المصرى .

فى ساعة متأخرة عدت إلى الفندق الصغير . القديم ، الذى حوفظ على أصالته، آويت إلى غرفتى الصغيرة المطلة على طريق ضيق مبلط بالحجارة ، وكنت أصغى إلى خرير الماء المتدفق فى الطريق عبر القناة الصغيرة .

* * *

الثلاثاء

استيقظت مبكراً . خرجت لأجول فى الشوارع المحيطة بالفندق حتى أتزود بأقصى قدر من زوايا المدينة لذاكرتى ، هذه أرض ربما لن أبلغها مرة أخرى .

بعد تناولى الإفطار اتجهت إلى محطة القطار ، لحقنى الدكتور أسعد الذى أصر على أن يصحبنى حتى آخر لحيظاتى فى فرايبورج .

وقفنا على الرصيف ، القطار قادم من هامبورج . أقصى الشمال . متجه إلى روما ، موعده التاسعة ودقيقة واحدة .

التاسعة ودقيقة

التاسعة ودقيقتان .

التاسعة وثلاث دقائق .

لم يأت القطار . كنت متحفزاً وقلقاً . تحفزى لأننى لأول مرة اضبط

القطارات السويسرية متأخرة ، وقلقى لأننى لن أقضى إلا حوالى عشر دقائق فى محطة بازل حيث يجب أن آخذ حقيبتى التى حفظتها هناك ، ثم اتجه مسرعاً إلى القطـار السويسرى الـذى سيتحـرك فى التاسعـة وثـلاثة وأربعين دقيقـة إلى زيوريخ . احتاج إلى الدقة الصارمة هنا ، ولكن القطار تأخر خمس دقائق .

ودعت الـدكتـور أسعد وداعـاً حـاراً . جلست على المقعـد متأهباً لـرجـال الجوازات ، ربما يكون الموقف أصعب ، بسبب قيود الهجـرة والتدقيق الشديد الذى تفرضه سويسرا على دخول الأجانب إليها .

الغريب .. أننى لم يسألنى أحـد عن الجواز أو التأشيرة حتى دخول القطار إلى مدينة بازل ، تطلعت إلى الساعة ، وصل القطار متأخراً دقيقتين ، إذن .. لا بد من إسراعى إلى الحقيبة . إلى القطـار الآخر. لأول مرة يتأخر قطـار أركبه هنا ، صحيح أنه تأخير دقيقتين . لكنه خلل بالدقة التى أعجبت بها ولفتت نظرى .

عندمـا اقترب القطار من محطة بـازل أعلنت سيدة فى الإذاعة الـداخلية عن وصول القطار إلى بازل السويسرية ، كانت تتحدث الإيطالية .

سألت جارى الذى كان يقرأ أوراقاً فيها جداول وعلامات شتى ،

ـ هل يتجه القطار إلى روما ؟

أومأ برأسه مجيباً

ـ نعم ..

ـ هل القطار سويسرى ؟

قال

ـ لا .. إنه إيطالى ..

وكان علىّ أن أسرع ، لألحق بالقطار السويسرى الذى سيتحرك فى التاسعة وستة وخمسين دقيقة من الرصيف رقم ٦ .

* * *

وجوه من الرحلة

ثابـــت

صباح السبت . أول أيام الاسبوع الذى سوف أسافر فى نهايته إلى سويسرا، ينتظرنى يـوم مشحون بالعمل ، أزحت الستـائر لتمتلئ بالضوء . يـرن جرس الهاتف ، أرفع السماعـة ، أصغى إلى تلـك الأصـوات الغـامضـة المصـاحبـة للمكالمات القادمة من الخارج .

قال محدثى أن اسمه ثابت . وأنه يعيش فى زيوريخ ، علم بقدومى فى زيارة ، يرغب فى مقابلتى ، وترتيب زيارة إلى الجامعة .

قلت لـه اننى مرتبط ببرنـامج أعدتـه لى مؤسســة بروهيلفثيـا ، والاستاذ هارتموت فنـدريش . وأرجو منه الاتصـال به ، ليتفق معـه ، حتى لا تتعارض المواعيد ببعضها .

صمت لحظة ، وقال إن علاقته ليست على مـا يرام بالاستاذ فندريش، وإنه اتصل بعدة شخصيـات ترغب فى لقـائى . كررت مـا قلته عن البرنـامج المحدد الموضـــوع . لاحظت أنــه يتكلم متمهــلاً ، عكس حـرص على إنهاء المكـــالمات الخارجية حرصاً على ألا اكلف من يطلبنى قدراً من المال .

سألته ، هل هو طالب . أو يعيش فى سويسرا ؟

قال إنه هنا منذ عدة سنوات ، يدرس ويعمل فى الوقت نفسه .

أبديت أسفى ، لا يمكننـى الارتباط بأى موعـد إلا من خلال البرنـامج المعد للزيارة .

قـال إنه سـوف يتصل بى عند وصـولى إلى زيوريخ . انتهت المكـالمة ، ولم

اشغل نفسى كثيراً بما قاله ، وان كان ثمة شىء ما غامض لفت نظرى فى طريقة حديثه .

عند وصولى إلى بـازل ، فوجئت بموظفة الاستقبـال تقدم إلىّ ورقة بها اسم ثابت ورقم هاتفه ، اتصل بى قبل وصولى .

فى اليومين الأول والثـاني لم اتصل به لانشغالى مع الصـديق جميل عطية ، والفنان جمال عبـد الناصر . صبـاح الاثنين ، قبل مغادرتى الغـرفة إلى المطعم لتناول افطارى رن الهاتف مرةأخرى .

ـ أنا ثابت ..

خيل إلىّ أنه يتكلم مبتسماً ، كان واضحا أن لديه نسخة من برنامج رحلتى، الذى يحدد مواعيدي بدقة سويسرية صارمة .

سألته عن المدة التى أمضاها هنا .

قال إنها حوالى عشر سنوات .

سألته عن بلدته فى مصر ، وهذا سـؤال يفتتح به المصريون الأحاديث دائما عندما يكونوا راغبين فى معرفة معلومات او تفاصيل عن شخص يجهلونه .

قال إنه من القاهرة .

من أين فى القاهرة ؟

تحدث عن منطقة منشيـة البكرى ، وكيف أن منزل اسرتـه كان أول بيت فى المنطقة .

رحـت أسـأله أسـئلة أدق تفصيـلاً ، منتـبهاً إلى لهجـته لرصـد أى لكـنة غـريبة .

كـانت اجابـاتـه عـامة ، غير محددة ، كـررت ضرورة اتصـاله بـالمنظمين لرحلتى، وانتهت المكالمة بأنه سوف يحاول الإتصال بى فى زيوريخ . قلت إننى سوف أكون اليوم فى ندوة عامة بأكاديمية باولوس ويمكنه أن يأتى .

قال إنه يعرف ، يعرف ..

فى المساء ، بدأت ندوتى فى مقر الأكاديمية بزيوريخ ، غصت القاعة بجمهور سويسرى ، وكان فى القاعة مصريون وعرب أيضاً ، بعد انتهاء الندوة بدأ نقاش خاص استمر حتى الثانية صباحاً ، ولكن .. لم يظهر ثابت .

عدت إلى زيوريخ فى نهاية رحلتى ، أمضيت بها ليلتين . ولم يتصل بى ثابت.

سافرت من سويسرا إلى القاهرة ولم ألتق بثابت ولم يلتق بى .

* * *

هوجـــو

إلتقيت به فى مقر المؤسسة الثقافية بروهيلفثيا ، حيث تحدد فى البرنامج موعداً لتناول الغذاء معه . انه هوجو لوتشر أحد أشهر الأدباء السويسريين المعاصرين . يكتب بالألمانية ، متوسط القامة ، ممتلئ قليلاً ، مرتفع الصوت، مرح الحضور ، شرقى المودة .

يعرف القراء العرب من أدباء سويسرا الناطقة بالألمانية أديبين شهيرين ، هما فريدريك دورينمات . وماكس فريش ، تأتى شهرتهما من ترجمة بعض اعمالهما المسرحية التى ترجمت خلال الستينيات ، خاصة ، زيارة السيدة العجوز لدورينمات . وسور الصين العظيم لماكس فريش ، لكن تظل أعمال أخرى هامة مجهولة لهما فى العالم العربى ، لم تترجم بعد ، فيما عداهما يمكن القول أن الأدباء السويسريين الآخرين مجهولين تماماً للقراء العرب . والسبب ضعف حركة الترجمة إلى العربية ، نبهنى الصديق جميل عطية إلى أهميته ، وإلى روايته «ظل الفراشة (Die fliege and die suppe) ، تدور فصولها حول عالم الحيوانات والفراشات والحشرات ، قصص لاتتناولها بشكل رمزى مثل كليلة ودمنة فى الأدب العربى ، لكنه يغوص إلى عالمها . ويقص من وجهه نظرها .

قال لي هوجو لوتشر إنه كان يلاحظ الحيوانات دائما ، إن حركتها

وأنشطتها كانت توصف دائماً من خلال الإنسان ولكن ترى من خلالها الإنسان ، من هنا بدا ملاحظة دقيقة لسلوكياتها . اعتبر نفسه مثل الجاسوس الذى ولج عالماً غريباً عليه وراح يرصد كل التفاصيل، وهناك كتب مجموعته القصصية تلك .

أثناء تناولنا الغذاء معاً ، صمت لوتشر لحظة ثم قال :

ـ هناك كتاب شهير فى الأدب الفارسى يتحدث عن الطيور .

قلت على الفور

ـ إنه منطق الطير لفريد الدين العطار

قال إنه قرأ أجزاء منه . إنه عمل أدبى مدهش ، قلت له إن الكتاب مترجم بأكمله إلى الفرنسية ، وإننى أمتلك نسخة من الترجمة العربية التى قام بها الدكتور ناجى القيسى وتتضمن مقدمتها قائمة بجميع طبعات الكتاب فى مختلف اللغات ، وعدته بارسال عنوان الناشر بالفرنسية . سألنى لوتشر باهتمام عن كليلة ودمنة لإبن المقفع . حدثته عن ابن المقفع ، عن أدبه ، عن ظروف قتله ، قلت له إننى اعتقد أن حكايات كليلة ودمنة كلها مؤلفة ، أى أنه ابداع وليس ترجمة ، وحتى الآن لم يثبت وجود نص هندى نقل عنه ابن المقفع، إنما ادعى الترجمة لاسباب سياسية تتعلق بمضمون الكتاب وظروف العصر.

سألنى لوتشر عن كتاب لابن مسكويه عن الحيوان ، قلت إننى اعرف كتاباً له عن الأخلاق . وعدته بالاستفسار عما إذا كان لابن مسكويه كتاب عن الحيوان أم لا ؟ بالطبع كنت سعيداً بهذا الحوار الذى يعكس تفاعلاً ثقافياً حقيقاً .

هوجو لوتشر معروف باهتمامه الخاص بأمريكا اللاتينية ، قال لى أن روايته الأولى عادت عليه بعائد مالى جيد مكنه من الذهاب إلى البرتغال ، وهناك كتب مؤلفاً عن الدكتاتور البرتغالى سالازار . ثم رحل إلى البرازيل وكوبا وكولومبيا .

سـألته عما إذا كان يعيش من الأدب ؟

قال بسرعة : نعم ولا ..

لا يمكنـه الاكتفاء بـدخل كتبه الأدبيـة فقط ، لكنه يكسب جيـداً من كتابـة المقالات الصحفية والتحقيقات التى يعدها أثناء أسفاره ، لكنه غير مرتبط بعمل ثابت . سألنى عما إذا كان الأديب العربى يعيش من أدبه قلت بسرعة :

ـ لا .. إننى بعـد خمسة وثلاثين عـاماً من الكتابـة مازلت انفق على الأدب ، لكننى أعيش من الصحافة .. إننى صحفى محترف أيضاً ..

قال لـوتشر إن الصحافة تمتلك خـاصية مميزة ، ان تبرر نفسـهـا بنفسـها ، إنها مصدر للـرزق ، وهذا لا يتوافر بشكل كـاف فى الأدب ، لكن تحقيق ذاته لا يتم إلا من خلال الأدب .

أخيراً سألته عن موقفه بالنسبة لدورينمات وماكس فريش . قال لوتشر أن فريش كان يطرح دائماً مشكلة الهوية السـويسرية ، لكن هوية بازاء أى شىء؟ قال لـوتشر إنه يكتب بالألمانيـة مثل الألمان أو النمساويين . إن زيوريخ مـركز ثقافى هـام مثل فـرانكفورت وبرلين ، إنـه يسافـر دائماً لهذا يرى الأشيـاء من داخلها وخارجها ، لهذا يقارن دائماً شعبـه بالشعوب الأخرى ، لهذا هو معنى بتصوير التجربة الحياتية للناس ، لتناقضات المجتمع .

نفارق المطعم السويسرى ، الذى لفت نظرى فيـه مدفأة هائلة من الخزف ، كـانت تشـــع حـرارة هـادئة ، دافئة ، خـرجنا إلى الشـارع البارد . ومضينـا بخطى حميمة ، بينـــما يرتفع صوت لوتشر بعكس معظم السـويسريين الذين قابلتهم .

حـــنة ..

حنة جويفل ، سيـدة رقيقة ، دقيقة الملامح ارستقراطيـة الحضور . احدى المسئـولات فى مؤسسـة بروهيلفتيـا ، هادئة ، تنتقى كلماتها ، وتنطقهـا بدقـة وأناقة . فى عينيها ظل لحزن ما .

قبل سفرى زرتها مودعاً ، لفت نظرى عـدة لوحات جميلة معلقة بمكتبها . أشرت إليها مبدياً تقديرى ، تطلعت إليها متمهلة ، قالت ..

ـ إنه زوجى الأول .. كان فناناً حقيقياً .. مات شاباً ..

واحترمت صمتها الذى بدأ ..

الاسـتاذة ..

فى برنـامجى المطبوع ، كـانت السطور تحدد بوضـوح المرحلة التـالية من الرحلة .

«الثانية عشر . وصول جنيف ، تستقبلكم الـدكتورة فوزية العشماوى على الرصيف امام عربة الأكل ، سوف تكون مرتدية جاكت أحمر ..»

لم يكن عسيراً علىّ التعرف عليها ، ملامح مصرية أصيلة وكأنها خرجت من جدار معبد فـرعونى قديم ، صافحتها وعندمـا أحطت بملامحها داخلنى يقين أنها سيدة وحيدة !

جاءت إلى سـويسرا منذ عشرين سـنة تقريبـاً مرافـقة لزوجهـا الـذى حصل على منحة لدراسة الدكتوراه . لأسباب لم اعرفها لم يتم الزوج دراسته ، بينما اتمت هى دراستها وحصلت على الدكتوراه عـام ١٩٨٣ ، كان موضوعها «المرأة فى أدب نجيب محفـوظ» كـان ذلك عـام ١٩٨٣ ، فى ذلك الـوقت لم يكن السويسريـون يعرفـون نجيب محفوظ ، ولكنهـا أصرت وبالفعل حصلت على الـدكتـوراه ، كما حصلت من قبل على الماجستير من جـامعـة جنيف وكـان موضوعها «شخصية النبى محمـد فى الأدب الفرنسى» ، ترجمت إلى الفرنسية ميرامار لنجيب محفوظ وبداية ونهاية ، وكتاب «دور اليهود فى قاعدة الاسلام بـالمدينة المنـورة» للدكتـور عبد العـزيز كـامل . كما نشرت عدة دراسـات عن الاسلام والأدب العربى بالفرنسية . سيدة جادة . قوية الشخصية ، وانه لأمر مثير للـراحة أن تلتقى بـاستـاذ أو استاذة مصريـة فى جـامعة أجنبيـة ، تصل الدكتورة فوزيه مع الروائى الفرنسى الشهير ميشيل بوتور .

أمضيت فى جنيف عشر ساعات تقريباً ، رافقتنى خلالهم ، فى البداية تجولنا فى المدينة الهادئة المحيطة ببحيرة ليمان الشهيرة والراقـدة عند سفح مرتفعات جبلية مغطاة بالأشجار ومنازل أثرياء العالم .

تتوسط البحيرة نافورة تدفع الميـاه إلى ارتفاع ضخم شقيقة لنافورة النيل التى بـدأت تعمل فى الستينيات ، ولكن الاهتمام والـدعايـة هنا جعل للنـافورة شهرة تدفع بـالسياح إلى المجىء من أجلها ، والتقاط الصور على مقـربة منها . تحيط البحيرة أرصفة عريضة تتخللها أحـواض الزهور المنسقة ، الجميلة ، أما المبـانى فتـذكرنى بمناطـــق بـاريس الراقـية ، الواجـــهات ، النوافـذ ، تقع جنيف فى الجزء الناطق بالفرنسية مـن سويسرا . فى الشوارع يمكن رؤية عدد أكبر من الجنسيات ، أفارقة ، عرب ، هنـود ، هنا المقر الأوروبى للأمم المتحدة ، وكثير من منظماتها ، بـرغم ذلك فقد صـوت الشعب السويسرى ضـد دخول الامم المتحدة حفـاظاً على الحياد التاريخى القـديم . هذا الحياد الذى يبـدو أنه يقترب الآن من منعطف حـاد خـاصـة بعد التطـورات الحاسمـة فى المعسكـر الاشتراكى ، وبعـد الاسراع باجـراءات تـوحيد اوروبـا . حتى الآن لم تـدخل سـويسرا السوق الأوروبيـــة المشـــتركة ، ولكـــن يبدو ان السنـوات القادمة سوف تشهـد تطورات هـامة تنهى الحيـاد التاريخى والعـزلة والقـوقعة عن الآخرين.

مضينا إلى مقر الأمم المتحدة . كنت متلهفاً لـرؤية الصديق بهاء طاهر ، أحد أدباء الستينيات البارزين ، والذى لعب دوراً هاماً فى الحياة الثقافية المصرية من خـلال البرنـامج الثانـى الإذاعى الذى كـان يشرف على ادارتـه . ثم خـرج من الإذاعـــة بعـــد إحـــكام أنـور السادات قبضتـه على السلطة فى عام ١٩٧١ . جاء بهاء إلى جنيف ليعمل فى الأمم المتحدة كمترجم .

فى الطـريق إلى المقر الأوروبى كنت اتأمل المبـانى الفخمة للفنـادق الكبرى . وقصور الأثـرياء ، ربما كان يوجـد أماكن أجمل فى العالم ، ولكن طبقـاً لاتفاق

غير مرئى جاء الأثرياء إلى هنا . وقصدوا أماكن اعدت لهم خصيصاً، أسعارها لا تمكن غيرهم من ارتيادها . هكذا أصبحت ملكاً لهم ، فنادق ، مطاعم ، كازينوهات القمار . قلت لفوزيه العشماوى مشيراً إلى الجبل

ـ هل تعرفين أن بعض المصريين يمتلكون بيوتاً هنا ؟

قالت إنها لا تعرف أحدًا منهم .

قلت لها إنها لن تعرفهم . فهؤلاء ليسوا علماء ولا اساتذة جامعة . بعضهم اثرى ثراءً فاحشاً من طرق شتى ، وأحدهم اسمه تردد فى مجلس الشعب عندما قدم النائب علوى حافظ إستجواباً عن الفساد .

هنا فى سويسرا مأوى آمن لكبار اللصوص من العالم الثالث ، سياسيين ، رجال أعمال ، تجار فقط ، تجار سلاح ، النظام الصارم للبنوك الشهيرة يوفر الأمان لأرصدتهم الهائلة ، والتى غالبا ما تؤول إلى البنوك نفسها بعد أن يدركهم الموت بدون أن يمنحوا ذويهم حق التوقيع .

ما من مرة رأيت فيها بناء هائلاً لبنك هنا إلا وفكرت فى نقود العالم الثالث المنهوبة ،

آه لو تتاح لى الفرصة كى أعرف !

لكن مستحيل هذا . يظل عالم البنوك سرياً ، مستقل مشعاً على الحياة اليومية بما يتطلبه من استقرار وانضباط صارم ، رهيب . ولذلك فان أى حركة ولو صغيرة للخروج عن النظام تقمع بشدة . فى زيوريخ وفى يوم ماطر سمعت أصواتاً مرتفعة عبر مكبرات الصوت . قيل لى أنها مظاهرة نسائية . مضيت إلى محطة الترام التى وقف المتظاهرات إلى جوارها . كان تعدادهن حوالى مائة امرأة، بعضهن يخطبن باللغة الألمانية . وكانت أصواتهن غاضبة . سألت مرافقى ، قال إنها مظاهرة ضد الرجال .

ـ وماذا فعل الرجال ؟

مط شفتيه

ـ لا أعرف .. لكن يبدو انهن فيمنست

ما لفت نظرى عدد سيارات البوليس السويسرى الذى أحاط بالمظاهرة لتأمينها ، ولضمان عدم خروجها عن أهدافها ، حوالى ست عربات مدججة بالجنود والسلاح .

إنها ديموقراطية الصراخ .

والصراخ لا بد أن يكون بحساب أيضاً ، قبل موت دورينمات ألقى خطاباً أمام فاكلاف هافيل رئيس تشيكوسلوفاكيا قال فيها إن سويسرا سجن بلا جدران ، يشعر داخله السويسريون إنهم أحرار لأنهم يتصرفون على هواهم ويمارسون العمل مع العالم ، ولكنهم سجناء غير قادرين على الإنضمام إلى الأمم المتحدة التى صوتوا ضدها عام ١٩٨٦ .

وأياً كان الرأى فيما قاله دورينمات ، فاننى شعرت خلال أيامى القليلة فى سويسرا أن ما يحدث فى العالم من هزات ضخمة بدأ يطال سويسرا ، ولهذا سوف تكون الأعوام القادمة حاسمة جداً .

* * *

أعود إلى جولتى مع الدكتورة فوزية ، نتجه إلى المقر الأوروبى للأمم المتحدة، لقاء حار مع بهاء طاهر ، ومحمد مستجير المترجم بمنظمة العمل الدولية . دعانى بهاء إلى جولة فى المبنى الذى كان مقراً لعصبة الأمم حتى عام ١٩٤٤ . دخلت قاعة الاجتماعات الرئيسية ، التقطنا صوراً تذكارية ، لكننى لم انفعل بها كثيراً .

انفعالى كان كبيراً عندما دخلت مبنى حقوق الملكية الفردية ، فى البهو الضخم ، هدايا من دول العالم المختلفة ، هدية معينة توقفت أمامها طويلاً .

مجرد قطعة صغيرة من الصخر .

ولكنها قطعة صخرية غير عادية . قطعة لونها زيتى يميل إلى الخضرة ،

تبـــدو فيها بللـــورات زجـاجية ، ولكن فرادتهـــا وغرابتهـا تجـىء من مصـدرها .

إنها من القمر .

القمـر السابح فى ليـالينا الأرضيـة ، أحضرها الإنســان ، وهذا سبب آخـر لتأثرى الخاص .

بـالجهد الإنسـانى ، وبعلم البشر اتت هذه الصخـرة الصغيرة التى لا تملأ قبضة اليد ، انتزعهـا رواد الفضـــاء الامريكيون أثناء رحـــلة مركبة الفضاء أبوللــو .

القطعة داخل صـوان زجاجى ، والصخرة نفسها داخل مثلث من الـزجاج البللورى ملتصق بسقف الصندوق . توقفـت أكثر من عشر دقائق . درت حول الدولاب . وانحنيت ، تأملت وفكرت ، ثم انصرفت ، فالوقت محدود . والبرنامج صـــارم . بعـــد القـائى محاضرتى فى جـامعـة جنيف عن «الـروايـة والتراث العربى» ، مضـيناً إلى مقهـى شـــهير كـان يجلس فيه لينين خلال فترة إقامته فى ســويسرا . كـانت هـناك منضدة اعتاد الجلوس إليها وحفر اسمه بالروسية فى سطـحها الخشـــبى ، اخـبرنى بهـاء طاهـر أنه رأى المنضـدة ، ولكن منذ عامين اشترت المقهـى شركة فنادق شهيرة وحـولته إلى مقهى حـديث ، وأزالت المنضدة .

نزل الليل على جنيف ، فى الطـريق إلى بيت الدكتورة فوزية لألتقـى بأبنائها الثلاثة مررنا بمبنى عتيق ، فـوقه. مدخنة حمراء اللون متصلة بمعمل كيمائى قـديم . قـالت أنهم أرادوا ازالتها ، ولكـن لا يمكن أن تتم هذه الخطـوة بـدون استفتاء عـام يقرر فيـه الشعب الأمر . وجـاءت نتيجة الاستفتـاء بالـرفض ، وبقيت المدخنة ، وتذكـرت عشرات المعالم التاريخية فى بلادنـا التى تزال بقرار ادارى صادر عن مـوظف قد يكـون بدرجـة محافظ أو وكيل وزارة ، وما زال مقهى الفيشاوى القديم فى ذاكرتى ، أزالوه فى عام ١٩٦٩ بقرار غشيم ! فى بيت

الاستاذة فوزية الهادئ ، التقيت بابنها وابنتها ، فى العشرينات ، أما الثالث فكان يقضى مدة الخدمة فى الجيش السويسري ، انهم يحملون الجنسية الآن ، وستظل ملامحهم العربية الأصيلة ولغتهم المتعثرة ماثلة فى ذهنى !

رمضان

فى آخر مقعد كان يجلس فى المدرج ، بعد أن انتهيت من محاضرتى ، رفع يده، كان صوته عميقاً ، يتحدث العربية الفصحى برزانة ، ملامحه اوروبية ، سألنى عن القرآن الكريم ، اخرجت من جيب جاكتتى نسخة صغيرة احتفظ بها دائماً فى حلى وترحالى . قلت إننى أعتبر القرآن الكريم سماء اللغة العربية وسقفها ، والمرجع الأول لى ، أقرأ فيه دائماً باعتباره نص العربية الأول والمطلق. واحمله معى ليس باعتباره حلية أو تميمة ، ولكن كضرورة لصقل لغتى وفهم حقيقة الكون الإنسانى .

هز رأسه شاكراً بعد أن انتهيت ، ظننته سويسرياً يتعلم الأدب العربى ، ولكننى علمت انه ابن الشيخ سعيد رمضان أحد زعماء حركة الاخوان المسلمين فى مصر ، خرج من مصر فى الخمسينيات ، واستقر به المقام فى سويسرا حيث أسس مسجداً فى جنيف ، ومركزاً للدعوة الإسلامية . كثيراً ما قرأت إسمه فى المراجع التاريخية . والمصحف عندما كنت صبياً ، وشاباً ، وتمر الأيام ، والتقى بابنه فى جامعة جنيف .

مررت بالمسجد أثناء مغادرتى جنيف ، كان يحمل لافتة باللغة العربية ، ورأيت مبانى الأمم المتحدة فى المساء والتى زرتها ظهراً ، وكنت أفكر فى الثرى السويسرى صاحب الأرض الشاسعة التى أهداها إلى الأمم المتحدة لتبنى فوقها منشآتها بشرط واحد ، وهو الحفاظ على حياة طيور الطاووس التى كان يقتنيها فى حدائق المكان ، كنت أتساءل ، هل ما تزال الطيور موجودة ؟ وإذا كانت ، فهل يعتنون بها ؟

كنت أفكر فى سويعاتى التى أمضيتها فى جنيف والتى انقضت بسرعة ، تماماً كالأيام. كالشهور، كالسنين ،

عبد العزيز ..

مغربى ، من طنجة ، بعد أن انتهيت من محاضرتى عن «ظروف النشر وحرية الإبداع فى مصر» التى نظمتها الجمعية السويسرية المغربية فى جامعة لوزان ، وأشرفت عليها الدكتورة هيلارى كيلباتريك ، دعانى إلى جولة في ليل لوزان كانت الساعة العاشرة ليلاً ، قبلت ، فلم أعتد النوم مبكراً ، وما من شىء أقوم به فى الفندق إلا الفرجة على التليفزيون ، عبد العزيز متخصص فى الكومبيوتر ، يعيش منذ سنوات عديدة هنا ، يبدو ميسور الحال ، يدخن السيجار الكوبى ، ويقود سيارته الأمريكية الصنع ، كان بصحبته شقيقته الصغرى ذات الملامح العربية الجميلة .

تحدثنا عن المغرب ، وعن الأماكن التى أعرفها هناك ، والحق أن ولعى بالمغرب عظيم ، ولكم كنت مسروراً ونحن نصغى إلى صوت المغني المغربى محمد باجدوب المتخصص فى الغناء الأندلسى ، صوت عميق ، ذهبى ، عريض ، احتفظ بعدة ساعات مسجلة فى مكتبتى أصغى إليها دائماً ، ولكن سماعه فى لوزن السويسرية له وقع آخر . أن يسمع المرء أغانى وطنه فى الغربة أمر له بعد آخر . فى زيوريخ زرت مصرياً يمتلك نادياً لتأجير شرائط الفيديو ، وكان صوت أم كلثوم يتردد باستمرار .

مصر التى فى خاطرى وفى فمي

وكان الانفعال قوياً جارفاً ، هكذا رحت أصغى إلى صوت باجدوب ، مضيت مع عبد العزيز وشقيقته إلى نادى ثقافى سويسرى إسمه (طاحونة الرقص) ، مدخل النادى ضيق ، تحيط الباب رسومات حديثة ، ولكن داخله يعج بالفوضى والسريالية ، يضم مسرحاً ، وقاعة استماع موسيقى ، وأماكن

المجلوس . حجرة الاستقبال الرئيسية تضم مقاعد متنافرة الطرز جمعت كلها من القمامة السويسرية ومذياع لا يعمل ، وكاميرا سينمائية معلقة فى السقف ، بلا وظيفة ، وقطع من نسيج مختلف ملصقة بالجدران . وفى وسط القاعة سرير ضخم .

سرير فى قاعة إستقبال ؟

الجدران معظمها مطلى باللون الأسود ، شعرت أن هذه الفوضى نوع من الرد الفنى على الانضباط الصارم الذى يميز الحياة السويسرية ، أتذكر على الفور تلك الآلة الموسيقية الضخمة المصنوعة أيضاً من القمامة فى متحف بازل . نخرج من طاحونة الرقص إلى ناد آخر اسمه «الأنف المستعار» إنه أشبه بمقهى اوروبى ، يقع تحت الأرض ، يشبه الكهف ، المكان ضيق ، به مناضد متجاورة ، ومسرح كان فوقه أربعة عازفين . زحام شديد ، دخان السجائر يملأ المكان ، معظم الجلوس يتحدثون أو يصغون إلى الموسيقى ، الزحام الشديد نقيض للشوارع شبه الخالية فى الخارج ، تكدس البشر وتلاصق اكتافهم وتجاورهم نقيض للعزلة التى ألحظ عليها الناس فى الترامويات ، فى القطارات ، فى المطاعم فى المقهى، تحدثنا بصعوبة ، أخبرنى عبد العزيز بوصوله إلى سويسرا منذ أربعة عشر سنة ، فكر يوماً أن يدرس الذرة ، فكر فى السفر إلى العراق ، لكنه درس الكمبيوتر وعمل به ، إنه مشغول جداً ببلده المغرب ، وفى رأيه انه سيرجع إلى هناك مهما طالت به المدة هنا ، يفكر فى مشروع لاعداد مصنع ينتج وسائل جيدة لتغليف البضاعة ، تغليف البضاعة الجيد حل لكل المشاكل الإقتصادية!!

أصغيت إلى حديثه عن مشروعه ، ولم أعلق ، لكننى بعد قليل بدأت أشعر بالإرهاق لكثافة الدخان فى المكان ، خرجنا إلى الليل اللوزانى ، الشارع القديم مزدحم ، غداً سبت ، كثيرون يمضون قاصدين مقهى (الأنف المستعار) تحت الأرض بحثاً عن الاتصال بالآخرين ، عن الحميمية . نعود مرة أخرى إلى

السيارة ، إلى صوت محمد باجدوب

الحب قاسى والغرام اهاننى

والوجد باق ، والهيام أساءنى

وجوه عديدة

.. عندما تسلمت الكتيب الصغير الذى يتضمن برنامج أيام الأدب السويسرى فى مدينة سولوتورن السويسرية ، فوجئت بصورتى تتصدر صور أكثر من خمسين كاتباً بالألمانية ، من سويسرا ، ألمانيا ، النمسا ، كنت الأديب الوحيد الذى يمثل ثقافة مغايرة . رحت أتطلع إلى وجوه الأدباء الذين لا أعرفهم ، والمقرر أن اشاركهم مهرجانهم السنوى الذى يعقد فى الاسبوع الثانى من مايو .

فى الصباح الباكر ، وصلت إلى مدينة سولوتورن القديمة الجميلة ، المطلة على الراين . هارتموت فندريش وزوجته فى إنتظارى ، اتجهنا إلى فندق عتيق ، من الأماكن التى نزلتها وسأظل اتذكرها دائما .

فندق كورون .

يقف على الناحية فى مواجهة الكاتدرائية الضخمة كمنطقة من الزمن المنصرم ، بناء جميل ، شعرت أننى أدخل إلى عصر مضى ، وليس إلى مجرد فندق للإقامة العابرة .

فى الممر المؤدى إلى الغرف يحتفظ الفندق على الجدار بالعديد من اللوحات والصور التذكارية . أهمها لوحة تقول إن الفندق كان مستعداً لإستقبال نابليون ، لكنه لم يتوقف إلا لحظات أمام الفندق عند مروره بمدينة سولوتورن، وطلب أن يشرب كوب ماء ، دفع مرافقه قطعة ذهبية إلى مدير الفندق ، كان ذلك عام ١٧٩٧ ، فى نوفمبر . لوحة أخرى تضم فاتورة لطعام وشرب الخيول لمدة خمسة أيام فى القرن التاسع عشر ، ٣٥ حصاناً كانت تتكلف يومياً ٢٣٥ فرنكاً سويسرياً .

صـور أخرى تطـالعنى منهـا وجـوه شتى لا أعـرف أصحابها ، ضبـاط . أثرياء، أطباء ،

لو أن جدران الفندق تتكلم عما رأيت وسمعت !

إتجهت مع هـارتموت فنـدريش إلى المركز الثقـافى الـذى سـوف يقام فيـه المهرجان . قوبلت بترحاب مـن المشرفين عليه ، أكدوا لى حرصـهم على الاحتكاك بالآداب الأخـرى . في المدن السويسرية ، فى محطات القطـارات ، فى المتاحف ، فى المراكـز الثقـافية علقت اللافتـات التى تـدعـو إلى المهرجـان وكـذلك صـور المشـاركين.

فى اليـــوم الأول للمهـرجان دخـلـت إلى القـــاعة الرئيسـية فى تمــام الرابعة والنصـف . كنت بصـحبة هـارتموت فندريش الذى سـيتولى تقديمى والترجمـة .

بمجرد ولـوجنا القاعـة الكبرى أعترف أننى فوجئت . كـان عدد الحاضرين يتجـاوز الألف فى تقديـرى ، جـاءوا من المدن البعيدة ، المقـاعـد كلها ممتلئـة ، الواقفـون فى الممرات عدد كبير ، كلهم سـويسريون عـدا ثلاثة وجـوه مصرية صميمة ، أب وأم وطفلـة جلسوا فى المقـدمة ، استاذ مصرى مقيـم مع اسرته فى مدينة قريبة . جاءوا للاستماع إلى أديب من وطنهم .

بدأ اللقاء بقـراءتى لنص من روايتى «الزينى بركات» باللغـة العربية ، إنها المرة الأولى التى يتردد فيها إيقاع لغتنا الجميلة فى هذا المكان . الهدف هو إصغاء الجمهور إلى جـرس اللغة ، وتكـريم الأدب الذى أمثلـه . ثم قدمنـى هارتموت فندريش معرفـاً بى ، ثم قرأ النص من الزينى بـركات المترجمة إلى الألمانية . ثم فتح باب الحوار .

كانت أسئلة ذكيـة ، خلو من أى محاولة للإستعـراض أو الإحراج . وكانت تتركز حول عدة محاور .

- ظروف حياة المبدعين المصريين ،
- هل يتمتع المبدعون المصريين بحرية كاملة فى التعبير ؟
- إهتمام خاص بالإستفسار عن الإستاذ نجيب محفوظ عن إبداعه الجديد، وعن حياته اليومية . إنهم يعرفونه جيداً بعد نوبل .
- استفسارات عديدة حول مصادرة أولاد حارتنا .

أجبت على ما طرح موضحاً إنه ما من أديب عربى يمكنه أن يعيش من إيراد كتبه فقط .

تمتعنا فى مصر بتقاليد ثقافية قديمة تمكن المبدعين من الكتابة بحرية إلى حد كبير .

أصغى الحاضرون باهتمام كبير إلى ما ذكرته عن نجيب محفوظ ، ولكننى قلت أننى ضد مصادرة (أولاد حارتنا) وأدعو دائماً إلى الإفراج عنها ، وفى رأيى ان مصادرتها تحد من حرية التعبير .

* * *

بعد انتهاء هارتموت فندريش من قراءة آخر نص من الزينى بركات ، بعد إنتهاء الساعتين المخصصين لنا ، فوجئت بتصفيق حار استمر طويلاً ، وقفت أرد التحية الصادقة ، منحنياً ، واضعاً يدى على قلبى كعادتنا العربية ، مرتبكاً إلى حد ما ، فالعواطف الحقيقية تجعلنى متأثراً جداً .

* * *

ليلة سفرى ، رحت أتجول مع الصديق إبراهيم الملوانى ، متخصص فى الكمبيوتر ، يحتل مكانة مرموقة فى إحدى الشركات هنا ، متزوج من سويسرية، وأب لثلاثة أطفال ، كانت المنطقة القديمة تفيض بالحيوية ، خاصة المقاهى ، دخلنا مقهى أسبانى مزدحم بالحركة ، لم يكن هناك مكان لجلوسنا .

فوجئت بشاب سويسرى يتقدم منا مبتسماً ، محيياً ، قال لى بالانجليزية إنه

استمع إلىّ فى سولوتورن . وإنه كان معجباً جداً بما سمع ، وإنه اقتنى نسخة من روايتى (الزينى بركات) بدأ فى قراءتها على الفور .

شكرته مبتسماً ، بعد إنصرافنا قال إبراهيم الملوانى

ـ جميل .. رائع ..

كان الشاب السويسرى أحد الوجوه العديدة التى إزدحمت بها القاعة فى سولوتورن . وكنت أتأمل ملامحها وتعبيراتها أثناء قراءة هارتموت فندريش لصفحات من روايتى المترجمة إلى الألمانية . هذه الوجوه التى إلتقيت بها ذلك المساء من يوم السبت الحادى عشر من مايو ، عام ١٩٩١ ، خلال رحلتى السويسرية . تلك الوجوه التى لن أنسى ملامحها التى تداخلت وتشابكت بحيث أصبحت تشكل ملمحاً واحداً قوامه التفاهم ، والرغبة فى التواصل الإنسانى ، رغم إختلاف الثقافات ، واللغات .

١٩٩١

متتاليات تونسية ..

يوليو ١٩٩٠

أفـــق.

السماء تطوق كافة المدن ، لكن حضورها يختلف هنا وهناك ، أتتبع الفروق من السفل أم من العُلـو ؟ ، بمجرد الوصـــول أدرك قربها ودنـوها وانفتـاحها اللانهائى ، البيـوت ناصعة البيـاض، البحر القريب حضـــوره الطاغى ، المدرك حتى فى الأزقة الضيقـة للقصبة العتيقة ، أينما وليـت الوجه تـدركه حتى وإن صـــدت البصر الجدران وشـهـوق العمارة عـربيـة القسمات فى معظمهـا عـدا استثناءات محدودة فى الامتدادات الحديثة ، يقع الفنـــدق عند الحد الفاصل بين الجزئين ، القديم والحديث ، إنها المرة الثانية التـــى أبلغ فيها تونس ، الأولى منذ خمسة أعوام عنـدما جئنا لنلتقى بأبوعمار . فى هذه المرة ، تـونس نقطة انتظار قبل بدء الرحلة إلى الجنوب ، إلى قابس ، لا نمكث فى الغرفة إلا دقائق ، مازلت مع صاحبى نذكر قسمات المدينة ، نسعى إلى الشارع . هدفنا أصبح انتقال الكتاب العربى محفوظاً بالقيود والعقبات والحجج الاقتصادية والأمنية .

سحنون

إذن .. لم تهن الـذاكرة ، نجـد أنفسنا أمـام البنـاية ذاتها . الطـلاء الأبيض والنوافذ ذات اللـــون الأزرق الذى جمع بين زرقة البحر وزرقـة السماء ، هكذا المعمار التونسى العتيق ، عـرفوا كيف يـوحدوا ملامحه ، ويحافظـون عليه فى صرامة تامة . منذ خمس سنوات جئنـا إلى هذه المكتبة ، كنا نبحث عن ألف ليلة وليلـة . طبعة بـريل ، أقدم دار نشر هـولنـدية اوروبيـة للتراث العربى ، كـان

الدكتور محسن مهدى قد أصدر أقدم مخطوط لألف ليلة ، وخطر لنا أنه من الممكن العثور عليها فى تونس ، ومن مكتبة إلى أخرى دلونا على مكتبة سحنون ، عدة طوابق ، الأرضى منها خصص للقرطاسية ، الأقلام ، والأحبار ، والكراسات ، مصدر ربح أكثر من الكتب ، فى الثانى تصطف الكتب ، الأرفف مدججة . رائحة الورق ، وإصطفاف المجلدات توحى بغنى وتنوع خاصة فى مجال التراث العربى ، رحنا نستعرض العناوين .

لا أدرى هل كان حامد العلوينى صاحب المكتبة يقف عند دخولنا أو بعدنا ، لمحته وسط الكتب مرتدياً العباءة التونسية المحفوفة بخيوط ذهبية مطرزة ، لباس تقليدى جميل نراه كثيراً فى الأسواق القديمة ، السعى فيها عبر الطرقات يضفى بعداً خفياً على المكان والوقت معاً .

تعرفنا إليه وتعرف إلينا ، صحبنا عبر سلالم ضيقة وطرقات تفوح برائحة الظل إلى مكتبه حيث يحتفظ بكتبه النادرة ، ومخطوطات لاتباع ، ومجموعات من مطبوعات التراث العربى الصادرة فى اوروبا . ترددنا على المكتبة مرات ، فى كل مرة يراجع قائمة الكتب التى اشتريناها ، يدقق فى الأرقام ، يشطب بعضها ، يضيف أرقاماً أخرى ، يبدو حريصاً ، حذقاً ، ولكنه فى النهاية يبدى كرماً . وودأ .

داران للنشر فى تونس تنفردان بنوعية من الكتب لا يتعامل معها الناشرون ، كتب الفن ، الضخمة ، الملونة ، مرتفعة التكاليف ، معظم ما أقتنيته عن الكتب التى تؤرخ للعمارة الإسلامية العربية ، أو فن التصوير العربى . والفارسى . والهندى والمغولى ، هذه الكتب اشتريتها من العواصم الأوروبية ، ثمة استثناءات محدودة جداً ، فى المشرق ، منها كتب الدكتور ثروت عكاشة عن تاريخ الفن ، وبعض كتب صدرت فى بغداد ودمشق . بشكل عام يظل إقبال الناشرين على هذه النوعية قليل وحذر .

دار الجنوب للنشر التى يديرها رجل مثقف . واعى ، سى محمد المصمودى،

أصدرت عدداً هاماً من هـذه الكتب ، مجلد ضخم عن العلوم فى الإسلام ، وآخر عن الحج بالفـرنسية ، وسلسلة هـامة عن المدن ، صفـاقس ، دمشق ، تونس ، مجلـد عن الفن الحديث فى البـلاد العربيـة ، وآخـر عن مسجـد قرطبـة وقصر الحمراء ، كل كتاب بمثابة متحـف صغير ، أما المجلد الذى صحبته ودائماً أقلب صفحاته . متأملاً ما حواه من صور ولوحات . مصغياً إلى النص الذى تترجمه لى زوجتى من الفرنسيـة ، فموضـوعه مولانـا ، وكلمة مولانـا ، خاصـة عند العارفين ، المهتمين بـالتصوف الاسلامي تعنى شخص واحد فقط ، إنـه جلال الديـن الرومى ، صـاحب المثنوى . الكتـاب الذى أصـدرته دار الجنـوب رحلة روحية ، معرفية ، فى حياة مولانا ، ويحتاج إلى وقفة أطول .

دار سحـــنون أصـدرت مجلداً عن السـلاطين العثمانيين ، وآخرا عن الخط التركى بالتعاون مع بعض المؤسسات الثقافية التركية .

تلك نوعية من النشر تزدهر فى تـونس ، وقد لمحت فى المكتبات مجلداً ضخماً عن الملابس التونسية ، ولكن نقودى كانت قد نفـدت تقريباً خاصة بعد شرائى لمصحفين نادرين ، الأول بالـخط الأندلسـى ، وهو اى بهذا الخط قديم ، لجماله وتفرده . وغنائيـة خطوطه ، كتبه العبد الفقير الحاج زهير الحنفى مـذهباً سنة ١٣٧٥ هـجريـة ، هذا الخطـاط الذى يصف نفســه بهذا التواضــع الجم ، فنان كبير، لا أدرى كيف أمكنه أن يحدث هذا التقابل المدهش بين الكلمات المتشابهة ، إذا ذكر لفظ الجلالة مثلاً فى سطر من آية كـريمة، يكتبه بلون أحمر مغاير ، إذا ورد فى الصفحة المقابلـة فانه يكتبه فى مـوضـع يحقق مع اللفظ المذكور من قبل بحيث يتطابقـان تماماً عند تـلامس الصفحات ، المصحف الثانى كتبـه خطاط تركى شـهير هو أحمد خسرو .

الخطاط التـونسى ، الخطاط التركى ، كلاهما لم يقـدما على نسخ المصحف مدفـوعين ببراعة فنيـة وموهبة فـذة فقط ، ولكن .. بحس إيمانى عميق ، فكأن الكتابة ذاتها صلاة مصاحبة لتتابع السور والآيات .

سيدى محرز وسيدى الشبعان .

مع الغروب سعينا إلى سيدى بوسعيد . المنطقة الجميلة التى أصبحت نقطة جذب للأجانب نهاراً ، وللأهالى ليلاً . البيوت القديمة ، الأقبية ، الزنقات . المنحنيات المفاجئة كبغتات المقادير ، الدرج الصاعد إلى اسراد نجهلها ، النوافذ المغطاة بأغصان من حديد . المقاهى الغاصة بروادها ، أحدها فى أعلى نقطة من المرتفع ، مشرف من عل على البحر ، يتدرج على سفح الجبل حيث تتوالى المصاطب الحجرية المفروشة بالحصر ، والموائد الخشبية المستديرة الصغيرة ، فى وسط المقهى يقوم ضريح سيدى الشبعان ، شيخ من الصالحين ، دفن هنا ، حقاً .. عرف كيف يختار المكان الذى يرقد فيه إلى الأبد ، حيث يعتلى الذروة ، ويشرف على البحر قوى الحضور ، حيث يسرى المشهد شيئاً فشيئاً إلى الروح ، فيقع التآخى المستحيل مع الزمن ، يبلغ الاستشراف مداه عند تسلل الليل شيئاً فشيئاً، تتغير الألوان الأبدية ، ومن ضفة الخليج الأخرى تبرز الأنوار ، نقاط من ضوء تبدو ثابتة ولكنها فى الحقيقة راحلة . مع اشتداد لمعانها ندرك تقدم الليل.

تتعاقب أكواب الشاى الأخضر المعطر بالنعناع ، يجىء محمد بالنرجيلة ، أنها عوامل أنسى . ما من مقهى يقدمها فى البلاد العربية التى زرتها إلا وأقمت به ساعات للتأمل بصحبة هذا الصديق الصامت الذى لا يمل ولا يكل ولا يشكو ، وإذا علا صوته ، فانما قرقرة تستعصى على الفهم ، لذلك لا تلزم المجاوبة !!

تعرف إلينا محمد ، تجاوز العشرين بقليل ، متوسط القامة ، قوى البنية ، مختص هو بتقديم النرجيلة ، جاء ليجلس إلى جوارنا مختلساً بعض الدقائق من سعيه الحثيث عبرارجاء المقهى .

إنه وحيد تماماً ، يتيم فى هذا العالم . توفى والده وهو ابن شهور عدة ، وبعد اسبوع رحلت امه ، وبعد شهر لحقت بهما شقيقته . فى شهر واحد فقد كل ذى

رحم . كان هشاً ، ضعيفاً ، نائياً ألحقه أحد الصالحين بمؤسسة لرعاية الأيتام .

كان محمد يتحدث عن حياته ببساطة ،عن المؤسسة التي يشعر بدين لها ، عن عمله فى المقهى ، عن بيعه للسجائر حتى يحصل على بعض دخل يتم به المنحة التى يحصل عليها شهرياً وقدرها أربعين ديناراً ، كان بسيطاً ، عميقاً ، غير خجل ، تحدث عن دراسته لعلم الإجتماع فى كلية الآداب ، وعن إساتذته ، وعمن يقرأ لهم ، الطاهر لبيب ، توفيق بكاء ، الجابرى وآراؤه فى التراث ، والدكتور زكى نجيب محمود .

كان الحديث يتوقف عندما يستدعيه البعض لتلبية طلبات مدخن النرجيلة ، عاد إلينا بزجاجة ماء هدية منه لنا ، وللماء فى المعتقد الشعبى منزلة عظيمة ، فالماء إذا قدم هدية للضيف يعنى ذلك إشهار الأمان ، وإذا نام الطفل بمفرده تمسى الأم مطمئنة طالما انها وضعت كوب ماء إلى جواره ، ليس هذا بغريب فى مجتمع ضنت عليه الطبيعة بالمياه منذ القدم .

ثمة عين ماء شهيرة بجوار ضريح سيدى محرز ، أو لنقل إن سيدى محرز دفن بجوارها ، العين المباركة تروى كل زائر . كذلك يزورها الأطفال يوم ختانهم ، والعذارى قبل زفافهن .

عاش سيدى محرز فى العصر الفاطمى ، توفى عام ١٠٢٢ ميلادية ، وكان عمره وقتئذ الثالثة والسبعين ، إن مقامه وضريحه يعد من أهم المزارات فى المدينة ، وقديما ذكر الهوّارى الجغرافى المتوفى فى حلب سنة ١٢١٥ ، فى دليله عن أمكنة الحج ، ضريح سيدى محرز ، وقال إن البحارة يستغيثون به كلما ثار البحر ، كما ينذرون له النذر ، ويتبركون بحمل حفنة من تراب قبره .

عندما احتل الأوروبيون تونس فى بداية القرن السادس عشر ، زار سيدى محرز السلطان العثمانى فى استامبول أثناء نومه .

سأله السلطان : من أنت ؟

فأجابه الولى الصالح : أنا محرز

ثم طالبه بانقاذ البلاد من المغتصب الأجنبى ..»

عندما استيقظ السلطان سأل عن بلاد الشيخ محرز ، فقيل له ، إنها تونس ، عندئذ جهز أسطولاً كبيراً ، قوياً ، بقيادة سنان باشا ، واستطاع أن يسترجع تونس من الأوروبيين .

محمد يروح ويجىء ، ملبياً طلبات القادمين ، مختلساً الوقت لاستكمال الحوار والتواصل ، فى لحظات الصمت كنت أحملق إلى البحر ، أطيل النظر إلى الأفق ، التاريخ العميق يتناثر فى الأفق ، فى الصور التى تزحم المخيلة ، القصبة ، الشوارع الرئيسية ، تتابع المتاجر العتيقة ، وزحام المارة ، وسريان حسناء تونسية ناشرة عبقها الأنوثى ، فى المركز جامع الزيتونة ، تحدق المبانى به ، ولكن عند اجتياز مدخله . المفضى إلى الساحة المكشوفة يبدأ التوازن النفسى . والتهيؤ للشفافية ، يكشف عن معماره وتكوينه من الداخل ، إنه ذات الاحساس الذى يواتينى عند الوقوف فى باحة الأزهر ، أو الصحن الداخلى لجامع ومدرسة القرويين بفاس ، وأيضاً بالمسجد الكبير بصنعاء ، وحدة التكوين . والعناصر المرئية والخفية ، توحد القصد ، وزخم الدراسة ، واتصال الصفو .

الزيتونة مركز من مراكز العالم الإسلامى ، ولذلك ليس غريباً أن يكون قلب المدينة القديمة ، بل المركز الروحى الرئيسى لتونس العاصمة والبلد ، إليها تؤدى كافة الطرق ومنها تتفرع . يتشابه تكوين المدينة العربية ، وهنا فى زيارتى الأولى عام ١٩٨٥ ، بزغت عندى الصلة بين معمار المدينة ، ومعمار قصص ألف ليلة وليلة ، والصلة أيضاً بالفن التشكيلى العربى .

مقر مجلس الوزراء التونسى فى القصبة القديمة . أى فكرة عبقرية ، وأى قرار يستحق الجدارة ؟

لنتخيل لو أن مجلس الوزراء المصرى فى الجمالية ، فى قصر المسافرخانة

مثلاً ، أى عنايــة كانت ستلحق بالأزقة والحوارى والشــوارع ، ألا يعبرها كبار المسئولين يومياً إلى مقارهم ؟

كنت أفكر فى هذا الحضور العربى القوى ، فى العمارة ، فى المدينة ، فى الأزياء، فى العادات ، فى الوقت ، ويتصـاعد عجبى من غلبة اللسان الأجنبى عند كثير ممن قابلتهم ؟

ينبهنى صــاحبى إلى ضرورة إستيقاظنــا مبكرين ، القطـار الذى ينقلنـا إلى صفاقس ، ثم قابس مقصـدنا فى هذه الرحلة ، سيتحرك فى الســادسة صباحاً ، نصافح محمد .

أتطلع إلى المكان ، محاولاً إستيعــابه فى الذاكـرة الواهنة ، موقنـاً إن ملامحه سوف تعاودنى كثيراً بعد النأى عنه .

انظـر إلى ضريح سيـدى الشبعـان ، وسط الضجــة ، وصخب الحضــور ، والونســة التى لا تنقطع ، خيل الىّ اننى أرى ملامحه ، وعنـدما رددت فى إتجاه ضريحة .

ــ السلام عليكم ..

خيل إلىّ أننى أصغيت إلى صوتــه قادماً من عمق الضريح ، مجيبـاً السلام ، ولكننى صرت .. لماذا أيقنت أن فى نبرة مساً من سخرية وحزن ؟

* * *

متتاليات ألمانية

١٩٨٧
١٩٨٨
١٩٩٠

غرائب الاتفاق ..

١٩٨٧

برلين ..

جئت إليها بالقطار من مدينة هالة ، بعد أسبوع قضيته ضيفاً على جامعة مارتين لوثر ، صحبتني المستشرقة الدكتورة فيبكه فالتر ، هنا يرتب لى إتحاد الكتاب عدداً من اللقاءات بالروائيين الألمان ، ودور النشر المهتمة بالأدب العربى، انها المرة الأولى التى أزور فيها المدينة ، خواطر عديدة ، الحرب التى جرت ، هتلر ، الهزيمة ، الجنود الذين زحموا يوماً هذه الأرصفة ، سوق الوداع الهائلة التى تنصب كل يوم ، غيرما جعل ظلاً رمادياً يخيم على خواطرى ، افتقارى لصاحبى الذى كان ، فنان بحق من جيلى ، عرفنا بعضنا فى القاهرة القديمة ، وكان دقيقاً ، هادئاً ، غزير الموهبة ، ومنذ ستة عشر عاماً جاء إلى هذه البلاد بعد أن تزوج سيدة ألمانية ، لم أعرفها ، لم ألتق بها ، مع أنى صحبته إلى خان الخليلي يوم أن ذهب ليختار خاتمى الزواج ، كانت علاقتنا محورها الأدب والفن ، منذ ستة عشر عاماً جاء وأقام فى هذه البلاد ، ومنذ شهور قليلة رحل إلى الأبد ، وهو بعد فى الخامسة والأربعين ، هكذا وجدوه مبتسماً ، يداه خلف رأسه، جالساً ، فى بيته باحدى الدول العربية التى سافر ليعمل بها ، كانت ملامحه فى مخيلتى ، لو أنه هنا لكانت الزيارة غير الزيارة ، لسرى دفأ ، ولرأيت المدينة من خلاله ... نزلت من القطار وعندى ظلال حزن ، وقفنا على الرصيف فى إنتظار المترجم الذى سيرافقنى ، تقدم منا رجل طويل القامة ، فى الأربعينيات، عندما تكلم بدا صوته وكأنه يجىء من خارج حنجرته ، رحب بى،

وامتـدت يده إلى حقيبـة سفـرى ، خجلت ، لا أحب ذلك ، لكنـه أصر ، وعندمـا وصلنـا إلى السيارة بـادر بفتح الباب ، رفعـت يدى شـاكراً ، راح يتحـدث مع الدكتـورة فيبكه ، بينما كنت أصـوب بصرى إلى المدينة التى أنـزلها أول مرة ، أحاول اكتشـاف خصوصيـة الملامح ، ولكن ذكرى صديقى كانت تضـغط علىّ ، خطر لى أن أسأل المترجم عنـه ، بما أنه يجيد العربيـة ، فربما يعرفه ، وعنـدما أخبرنى انه عمـل فى مصر أربع سنوات تشـجعت أكثر ، فى نفس الـوقت كنت فى حاجة إلى أن أتحدث عن صـاحبى مع أى إنسـان ..

سألته ، هل كان يعرفه ؟

صمت لثوان ، ثم إلتفت إلى ، قال ..

ـ أنا الزوج الأول لزوجته ..

* * *

الأربعـــاء :

مـازلت أفكر فى مفـاجأة الأمس ، لم أكن أعرف شيئـاً عن امرأة صــاحبى ، هكذا شاء القـدر أن يكون مرافقى فى أيامى هنا ، زوجهـا الأول ، جاءنى صباح اليوم ليصحبنى إلى مكتبـة الدولة كى أطلع على المخطـوطات العربيـة ، بالطبع اتصل الحديث بيننـا ، قـال لى أنـه أنجب منهـا ثلاثـة ، أكبرهم عنـده خمســة وعشرين ســنة الآن ، أمـــا البنت ، وهى أصــغرهم ، فلهـا عشرون سنة الآن ، قـــال لى..

ـ أظن أنها تزوجت .

قلت بدهشة ..

ـ تظن ؟ ألا تعرف إذا كانت ابنتك متزوجة أم لا ؟

قال لى إنه بعد إنفصاله عنها عزلت الأولاد عنه ، وراحت تشوه صورته فى نظرهم ، حتى إنهم إنعزلوا عنه تماماً ، ولم يسع أحد للقائه ، وهو من ناحيته لم

يحاول ، لماذا ؟ .. لأنه وجد أن الأولاد لو تمزقوا بين الأب والأم سيلحق بهم هذا الضرر النفسى ، الأفضل لهم أن يعيشوا مع الأم مادامت رغبت هى فى ذلك ، لكنه لو تدخل ، وأصر على أن تقوم بينه وبينهم علاقة سيتمزقون ، كان الأفضل لهم أن يبتعد عنهم ، ألا يحاول رؤيتهم ، ألا يعانوا التمزق ، وليظنوا أن أبيهم سيئ ..

قال لى ..

ـ ويوما ما ربما يعرفون أن والدهم رجل طيب ..

صمت قليلاً ثم قال :

ـ ربما ..

* * *

الخميس :

قلت لمرافقى إننى سأتحدث تليفونياً اليوم إلى زوجته ، معى رقم هاتفها ، وفى مدينة ليبزج قابلت أحد الأصدقاء الذى أخبرنى أنها ربما تريد ارسال خطابات إلى أسرة زوجها الراحل ـ صديقى ـ قال لى مرافقى ..

ـ أرجو منك ألا تخبرها بأننى مترجمك ..

وعدته بذلك ، فى نفس الوقت كنت مدفوعاً للبحث عن الظلال التى تركها صاحبى ، متعجباً من الصدف التى وجدت نفسى فيها والتى تفوق أى دراما ممكنة ، فى المساء إتصلت بها ، إنها تتقن العربية ، قالت لى أنها مشغولة حتى نهاية الأسبوع ، ويمكن أن ترانى يوم الأحد ، فقلت إننى سأنتظر تليفوناً منها..

فى المساء ، صحبنى مرافقى إلى قاعة موسيقى هائلة الفخامة ، وكانت فرقة برلين السيمفونية تقدم عملاً أوبرالياً لمندلسون، ولأننى لا أتذوق الأوبرا ، ولا

أفهمها ، رحت أتفرج على قائد الأوركسترا ، كنت معجباً بأدائه ومبهوراً بالمجهود الذى يبذله ، واشاراته التى يعقبها إنطلاق الأنغام ، بعد إنتهاء العرض خرجت مع مرافقى إلى الليل البارد ، والحق أننى أصبحت قريباً منه إنسانياً ، إنه مهذب جداً ، فى داخله إنكسار ، أخبرنى أن امرأته الأولى حاولت تحطيمه ، وضيقت عليه فى عمله ، ولكنه غالب الظروف ، ومنذ ثلاث سنوات أصبح زوجاً ، كان يحدثنى أنه أرسل إليها خطاباً ، وصباح اليوم عندما جاءنى بدأ مبتهجاً فقد تلقى خطاباً منها كان يتحدث عنها بود ، وعشق ، وعلى الرغم من أننى لم ألتق بها ، إلا أننى أكاد أكون رأيتها لدقة وصفه ، وحديثه الدائم عنها ، كان يصر أن يوصلنى حتى الفندق الذى أقيم فيه ، وكان بعيداً عن مركز المدينة ، وعند عودتنا فى الليل ، قال لى ونحن نخترق الغابة ، انه كان يعرف صديقى الراحل ، وإنه إنسان لطيف جداً ، ولكنه يعرف إلى أى مدى عانى ، إلتفت الىّ قائلاً ..

ــ أنا الإنسان الوحيد فى العالم الذى يفهم إلى أى مدى عانى وتحمل صديقك..

* * *

الأحـــــد :

إتصلت بى .

قالت إن طالباً مصرياً يدرس هنا فى الطريق الىّ ، وإنه سيصحبنى إلى البيت ، قلت إننى بالإنتظار ، فى الوقت المحدد جاءنى شاب مصرى ، هادئ يعد رسالة الدكتوراه ، وكان على صلة وثيقة بصاحبى الراحل ، ركبنا سيارة أجرة ، كان البيت بعيداً فى الطرف الآخر من برلين ، فى منطقة شبه ريفية .

ـ كان يسميها طوخ ..

فى الطريق حكى لى عن أيامه الأخيرة ، قال لى انه كان يخطط للعودة إلى

مصر، وأنه اشترى شقة بالفعل ، وكان فى حاجة إلى قدر كبير من المال ، لهذا ذهب إلى ذلك البلد النفطى ، وإن أتعس لحظاته تلك التى كانت تسبق سفره ، حدثنى عن المجلات الألمانية التى كتبت المراثى فيه ، وعن بعض أعماله التى أصبحت شعبية هنا . أخفيت عن الطالب المصرى هوية مرافقى الألمانى ، وأصغيت صامتاً إليه وهو يقول ..

ـ كانت زوجة الفقيد متزوجة من رجل ألمانى يعتبر من أفضل المترجمين إلى العربية هنا ..

ولم أقل له أن هذا المترجم يصحبنى منذ وصولى هنا .

* * *

الأحد ظهرا :

هنا كان !

بيت صديقى الذى رحل ، شقة من عدة غرف ، صافحت زوجته ، سيدة تجاوزت منتصف العمر ، تبدو حديدية الشخصية ، كانت ملامحى جامدة ، لاتفصح عما يدور داخلى ، كنت أبحث عن ظلال صاحبى فى البيت ، جلست فى حجرته التى كان بها اثنين من معارف الأسرة ، هذا مكتبه ، أزيح إلى الخلف ، هذه دواليب الكتب ، كتب ألمانية ، قليل باللغة العربية .

أين صاحبى ؟

لم أر له أى صورة معلقة ، أو تطل من الأركان ، جاء أولاد السيدة ، شاب طويل ، إنه ابن زوجها الأول ، مترجمى ، وحاولت أن أجد الشبه ، كان صعباً ، لكن عندما دخلت ابنته كأنى رأيت نموذج أنثوى لوجه مرافقى ، القامة ، الانحناءة ، كانت تحمل طفلة صغيرة ، لم يخبرنى أن إبنته أنجبت ، إنه أصبح جداً ، ربما لا يعلم ، جاء زوج الإبنة ، تذكرت والدها وهو يقول لى ببساطة مؤلمة ، أظن أنها تزوجت .

عدت أبحث عن صاحبى ، الفنان ، الراحل ، كان الجميع يضحكون ، ويتحدثون ويداعبون الطفلة الصغيرة ، ويتحدثون فى كل شىء إلا عن .. صاحبى ..

رأيت ابنته ، فقد أنجبت طفلة واحدة ، هى فى الرابعة عشر الآن ، ملامحها منحوتة من وجه أبيها ، شعرها أسود ، ولكن للأسف لا تتقن كلمة عربية واحدة ، وتخيلتها بعد سنوات ، عندما يقول لها أحدهم هنا ..

ـ ملامحك شرقية ..

فتقول له ان أبوها كان مصريا ؟

أين صاحبى ؟ . أيقنت من غيابه التام ، لم أجده لم ألق ظلاله ، وهنا غمرنى حزن عميق ، وكبحت زمام دمعى ، ولكن عندما أصر الطالب المصرى الذى صحبنى على أن يسمعنى شيئاً شرقياً ، وأدار اسطوانة فيروز ، وراح صوتها يسرى شجياً ، حزيناً ، هنا تفجرت داخلى أحزان لا قبل لى بمقاومتها ، هرعت إلى دورة المياه ، وعندما أحكمت إغلاق الباب ، بكيت ، لم أشأ أن أبكيه أمامهم ، وعندما حان وقت إنصرافى كنت كأنى أيقنت تماماً من غيابه الأبدى ، قال إبنها أنه ماض إلى مركز المدينة ، وإنه يمكن أن يوصلنى ..

ركبت إلى جواره ، وكنت صامتاً ، ينظر إلى ناحيتى فأنظر إليه ، ولاأتكلم ، كنت حريصاً ألا يصل بى إلى مدخل الفندق ، ربما لقى أبيه ، وهذا مالا أريده ..

* * *

الأحد : بعد الظهر :

صافحت الإبن شاكراً ، واستدار بسرعة ، اجتزت الباب إلى داخل الفندق ، كان والده ـ مترجمى ـ يجلس فى إنتظارى ، سألته ..

ـ هل تعرف من أوصلنى إلى هنا ؟

تطلع الىّ صامتاً ، قلت :

ـ ابنك .

سألنى أيهما ؟ رحت أصفه له ، لم أكن أعرف إسمه ، قال إنه الأوسط ، ثم راح يستفسر منى عن أخبار ابنه هذا ، كان يسأل بهدوء ، ولكن بتأثر ..

ـ قبل أن أحكى لك أخبار إبنك عندى لك خبر أهم ..

تطلع إلى صامتاً ، لم أشأ اطالة تعذيب الرجل النفسى ..

ـ لقد أصبحت جداً ..

صاح ..

ـ أنا ؟

قلت نعم ، إن حفيدته عندها الآن ثمانية شهور، قال :

ـ إذن .. أنا جد ..

ثم سكت ، وسكت أنا .. تطلع ناحيتي .. قال :

ـ أنت أول من يخبرنى بهذا ..

لم أدر ما أقول ، راح يردد :

ـ إذن .. أصبحت جدا ..

وفجأة ، انحنى الرجل الطويل القامة ، الهادئ جداً ، المهذب ، الذى يبدو بارداً أحياناً ، رسمياً جداً أحياناً أخرى .. وراح يبكى بهدوء أليم !

* * *

فى رحاب الملكة

١٩٨٨

برلين الغربية ..

عام بـالضبط مضى على زيارتى لبرلين الشرقية ، بإمكـانى أن أرى من هنا برج التليفزيون الشاهق الذى يقـوم فى ميدان الكسندربلاتز . هناك فى الشرق ، هناك كنت منـذ عام ، هنا نظام وهناك نظـام ، الشوارع لا تستقيم ، إنما تنتهى فجأة بالجدار الشهير ، مبـانى متجاورة ، ولكن كل منهـا يقع فى عالم مختلف عن الآخـر ، يبدو الأمر فى جـانب منه عبثيـاً ، ولكنه ليـس أكثر عبثية مـن هذه الحرب الرهيبة التى راح ضحيتها عشرات الملايين ، وكـان من نتائجها انقسام المدينة الـواحدة إلى مدينتين ، والبلد الـواحد إلى بلدين ، بـرلين ليست المدينة فى العالم المقسمة ، هناك مدينتين اخريين ، وقد رأيتهما ، نيقوسيا عاصمة قبرص، ومدينة أخرى عندنـا هنا فى مصر ، أقصد رفح التى يمر خط الحدود بين مصر وفلسطين فى قلب بيوتها !!

اليوم يصحبنى فى جـولتى أديب وشاعـر ألمانى ، أولاف مونـزبرج ، محب لمصر وعاشق لها ، زار بـلادنا وكتب عنهـا ، هادئ ، متأمل ، أصر أن يصحبنى اليوم ، كان برلينيا صميماً ، ولكل مدينة رجال يعرفون أسرارها ، وأولاف أحد الذين يحبون مدنهم ، أطلعنى على جوانب عديـدة لايراها الزائرون العابرون ، توقفت معه طويلاً أمام جبل صنـاعى ، يطلقون عليه هنا «جبل الشيطان» ، لقد جمعوا كل ركـام البيوت التى دمـرت فى الحرب ، وأتوا بها إلى منطقـة خلاء فى المدينة ، هكذا نشأ هذا المرتفع الهائل ، ومع سقوط الأمطار نبت العشب وأطلت

الحشائش من أطلال المبانى التى حفلت وضجت بحيوانات لا حصر لها زمن ما، ثم دمرها الحمق الإنسانى .

كان من الواضح أن جولتنا فى المدينة قد قاربت نهايتها ، وكنت قد أدخرت رغبتى إلى النهاية ، فمنذ مجيئى أول أمس لحضور أيام الأدب العربى المعاصر ، ذلك المؤتمر الكبير الذى نظمته المكتبة العربية وجمعية الأدب الجديد هنا ، وأنا أفكر انه فى موضع ما فى هذه المدينة يوجد تمثال الملكة الجميلة «نفرتيتى» ، وقد عشقته من صوره ، وتمنيت رؤيته زمناً طويلاً ، وها أنذا على بعد خطوات منه..

إذن ... إلى المتحف المصرى ..

* * *

الفن الفرعونى القديم ، إنه الفن الوحيد الذى خصصوا له بناء مستقلاً ، قصر قديم فسيح ، ولجته برهبة ، فهنا سأقف وجها لوجه أمام الملكة .. الجدران كلها مغطاة بمساحات من السواد ، تبرز الفتارين البلورية الشفافة ، المضاءة وفقاً لنظام خاص ، صفت فيها القطع القديمة المنتزعة من بلادى فى نظام بديع ، توقفت طويلا أمام تابوت خشبى يحوى مومياء امرأة ، كشفوا شرائط الكتاب التى تحيط برأسها فلاح لى شعرها المضفر الأسود ، ترى من هى؟ هل من صلة تربطنى بها ؟ فوق أى أرض سعت قرب نيلنا الخالد ؟ ، عندما كانت تعيش وعند وفاتها ، هل خطرلها مجرد الخاطر إنها ستنقل يوماً إلى بلاد غريبة بلاد لم تكن موجودة فى عصرها ، إنما هذه الشعوب الأوروبية كلها محدثة ، لم يكن لها ذكر فى الدكر الفرعوني القديم ، نفس هذا الخاطر راودنى فى متاحف اللوفر ، وبوادبست ، والمتحف البريطانى فى لندن .

حقاً ، لا تدرى نفس أين يكون مستقرها ومثواها ..

الآن ، إلى الطابق الثـانى ، كانت هناك رحلـة مدرسية تلـتف حـول الملكـة ، أبيت ألا أن أقترب منها وحيداً ، ألا يشاركنى فى النظر إليها آخر ..هكذا سعيت ..

* * *

لاجـــت لى ..

تتوسط قـاعة خصصت لها ، منهـا ينبعث رسوخ ، وبهاء ، وجمال لم يغن توالى الأزمنة حسنه وملامحه ، وعندما أصبحت قريباً ، أبطأت خطاى ، اقتربت ممسكاً أنفـاسى ، حتى واجهتها تمامـاً ، فعقدت يدى أمـام صدرى ، وتطلعت إليها من زمن يفصلها عنى ، يقترب من الأربعين قرناً، فما أبعد الشقة ، وأفسح البراح ، لكنها ها هى أمامى ، متطلعة فى شمم غريب .

يعلو رأسهـا التاج الملكى ، مـن لونين أزرق فيروزى ، يعلو الجبهـة شريط ذهبى ، يتعامد عليه مفتاح الحياة الفرعونى ، ومنتصف التاج يلفه شريط تتوالى ألوانه ، الحمراء ، والزرقاء ، والصفـراء ، ومن لهم دراية بعلم الألوان يعرفون ان الثلاثة أصل الألوان ، منهم تتفرع سائر الألوان والدرجات .

على مهل أصـافح بعينى الوجـه غريب الجمال ، عميق الكنـه ، مستطيل فى جملته ، نحيلة الوجنتين ، ومنه ينبعث سر الأبـدية ، الذى يستغلق على الافهام ، ويحار الإدراك فى مواجهتـه ، ثلاثـة مراكز تتبـادل التأثير مكونـة هذا الجمال البديع ، عينان واسعتان ، مكحولتـان ، فى إحداهما إنسانها الأسود ، أما إنسان العين الأخرى فلم يـوضـع أصلاً ، فالتمثال ناقـص ، عثر عليه العلماء الألمان فى ايتيليه المثال الفرعونى عام ١٩١٢ ، فى تل العمارنة ، عاصمة اخناتون زوجها ، نقص عين وتمام أخرى لم يؤد إلى تشويه ، إنما ترك إنطباعاً غريباً غامضاً على الوجه ، لذلك يسـأل الألمان بعد زيارتها ، «هل غفرت لك الملكة» ؟

عينان ساهمتان ، ودودتان ، فيهما غيم الأزمنة المتعاقبة ، وحضور الجمال البشرى الـزائل ، الذى حـاول الفن الإنسانـى الإمساك بـه ، وقد نجح .. فهـذا

التمثال لـرأس الملكة يخبرنا عن المرأة الجميلة التـى كانت ، بقدر ما يصـون لنا مضمونها ، وبعض من سرها ، تحت العينين يمضى الأنف المستطيل متناسق ، يـؤدى فى يسر ونعـومـة إلى غمازتين غائرتين تصـلاه بـالشفتين العـريضتين الممتلئتين ، الخصبتين ، المرتويتين ، الـواعدتين ، الممتنعتين أيضـاً ، شفاه ملكـة جميلة ، ما بينى وبينهما أربعين قرناً .. فكيف أقطعها ، وكيف أشرع إذا رغبت ، وإذا واتتنى القدرة والشجاعة ، لم يكن باستطـاعتى إلا أن أتعلق برمز .. وهذا قدرى !!

ذقن أشم ، بارز ، رقيق ، به يتم كون وجهها ، وعنده تتحدد مجرة جمالها..

ولكن هـذا الوجـه الذى لا يفـارقه النظـر إلا مرغماً يـؤدى إلى عنق نحيل، طـويل، هو أجمل عنق امـرأة أطلعت عليـه أو وقعت عليه عينـاى ، إنه مقيـاس ومـرجعى فى تحديـد الجمال الأنثوى ، منـذ أن وقعت عينى على صـورة هـذا التمثـال والنماذج العـديـدة المتقدة التى أعـدتـه لتحـاكيـه ، ولكن اكتشف فى مواجهته انه ما من واحد منها دنا منه واقترب ليحاكيه .

عنق مسرح ، لا يماثله فى ليـونته وإنسيـابه إلا انسياب أشجـار السيسبان المصريـة ، إذن .. هو عنق سيسبـانى ، تـؤطره وتحدده مجمـوعة من العقـود الفرعونية الملونة ، أرى زهرة اللوتس الملكية .. المصرية ، أعود لأصافح بنظرى العنق، ما أمهـر الفنان ، حتى عروق رقبتهـا مجسدة مع أن اللون واحـد ، لون الوجـه والرقبة ، قمحى فى غير جدال ، لـون أعرف مثيله فى الكثير من الـوجوه الأنثوية خاصة فى صعيد مصر ..

الاذنان الرقيقان تهشمت أطرافهما .

كم وقفت ؟

يبـــدو أننى أطـــلت ، لمحت صـديقى الأديب الألمانى يجلس بعيداً ، لكنـه يرقبه بفضول ، يبدو أن حجم إنفعالاتى كان كبيراً حتى ظهر على ملامحى ، لم أعبأ ..

على مهل تحركت ، واجهت المشهد الجانبى ، حيث تتضح خطوط الوجه والعنق أكثر ، وحيث يتغير معنى النظرة فى العينين ، بحيث يتجاوز فيهما الاسترخاء والاستنفار ..

كان بامكاني أن أرى الجانب الآخر من كوكب وجهها ، لقد وضع الألمان نظاماً خاصاً للإضاءة ، بحيث ترى الأبعاد الثلاثة منعكسة على جدران الفترينة الزجاجية ، وهكذا يمكن للناظر الإحاطة بها كلها مع أنه لا يقف إلا فى مواجهة جهة واحدة منها ..

درت دورتى ، حتى عدت لأواجه هذا الجمال الإنسانى البديع ، البعيد ، وقبل ابتعادى أفضيت صامتاً بنجواى ، وأديت مراسمى ، وبحت بمكنونى ، تذكرت وأنا أتراجع صوب الباب بقدمى ، فلم أشأ أن أمضى موليا لها ظهرى ، تذكرت ما قاله استاذنا يحيى حقى ، عن عشقه لتمثال أميرة تجلس فى متحفنا المصرى بجوار زوجها الأمير ، مرتدية ثوباً أبيض يكشف بضاضة وجودها الذى كان ..

حتى وصولى خارج القاعة كانت تتبعنى ، تتعبنى ، تودعنى ، وعندما حال بينى وبينها الجدار ، كان يمكننى عندئذ أن أقوم وضعى ، أن أولى السلم وجهى ، وعندما انتبهت إلى الصديق الألمانى أولاف ، كان يتطلع الىّ متسائلاً فى صمت ، فلم أجبه إلا بهزة من رأسى ، واشارة تعجب من يدى .. فماذا أقول ؟

* * *

الملكة نفرتيتى ..

زوجة الفرعون الذى يحتل مكانة خاصة فى تاريخ الإنسانية ، زوجة أخناتون ، أول إنسان يدعو إلى التوحيد ، إلى عبادة إله واحد ، قاد ثورة روحية كبرى لفترة قصيرة ، ولكنها أحدثت زلزالاً روحياً هائلا فى مصر الفرعونية ، وفى تاريخ الإنسانية . نقل عاصمة البلاد من طيبة إلى تل العمارنة شمالاً ، كان

النقل بمثابة هجرة وتأسيس قاعدة لدعوته الجديدة ، ولست فى مجال الحديث المفصل عن دعوة أخناتون وثورته فـالمقام لايسمح ، وكتب التاريخ الفرعونى فيهـا الكثير ، لكننى أشير إلى ثورة التجـديـد التى شملت عصره ، والتى واكبت دعوته ، هذه الثورة طالت الفن ، الفن الفـرعونى الذى كان يمضى وفقاً لتقاليد قديمة ثابتة .

لقد انطلقت أيـدى المبدعين حـرة من قيود الماضى ، مضت تصـور حقائق الحيـاة ، وطبيعـة الأشياء كما هـي ، حتى تصل إلينا تماثيـل اخناتـون وقـد صورته فى صورته الطبيعية ، بما فيه من تشوه جسدى ، بل إن فن الكاريكاتير عرف لأول مـرة فى تاريخ الإنسانيـة خلال هـذه الحقبة ، وفى المتحف المصرى مساحـات مما تبقى من أرضيـة القصر الملكى فى تل العمارنة حيـث يمكننا أن نرى صور البط والأوز والنبات فى شكل قريب جداً من الطبيعة ، وهذا مخالف لتقاليد الفن الفرعونى القديم .

وفيما خلفه لنا من لوحات ، نـراه بجوار زوجته الجميلة «نفرتيتى» دائماً ، فهى إلى جـواره أثنـاء الصـلاة ، ومعـه فى شرفـات القصر تطل على الجمـوع المحتشدة ، وهى إلى جواره عنـد تقليد كبار رجال الدولة الأوسمـة ، ومعه عند الخروج إلى النـزهة ، وهما معـاً يقفـان فى ساحـة القصر يـداعبان أطفـالهما ، فالفرعون لا يجد حرجاً فى التصوير أثنـاء مداعبته لابنه فى حجره ، أو تصوير حزنـه وحزن زوجته على احـدى صغيراتهما . يبدو فى اللـوحة باكيـاً ، وتبدو نفرتيتى نادبة ، مولولة ، بينما جثمان الصغيرة ممدداً .

للأسف ، لم تحفظ لنـا مصادر الفترة تفاصيـل عديدة عن الملكـة الجميلة ، ويبدو أنها انتهت نهاية غير طبيعية ، وان مأساة جرت خلال حياة زوجها .

ما طبيعتها ، ماذا جرى لها ؟

هذا مجرد سر من الأسرار التى يوحى بها تمثالها ولا يبوح بها ، لا يفسر ..

* * *

فى فرانكفورت مضيت إلى نيل العبد مدير مكتب مصر للطيران ، أوصانى الأستاذ جلال دويدار بالمرور عليه إذا ما واجهت أى مشكلة فى حجز عودتى ، لم تكن هناك أى مشكلة، ولكننى مررت على الرجل لتحيته والتعرف عليه ، مكتب أنيق ، يضج بالنشاط فى قلب مدينة المال الألمانية .

وفى الموعد المحدد لوصول الطائرة حطت ، وفى موعد القيام قامت ، ولكم أشعر بالفخر الداخلى وأنا أجد المستوى المتقدم لطائراتنا الوطنية ، ولكم يحز فى نفسى أن معظم الركاب من الأجانب ، مستوى الخدمة رائع ، أما الطيارون فهم من أمهر طيارى العالم .

أما ما سرنى أكثر ، فهو مفاجأتى بصورة ضخمة لنفرتيتى تتصدر صالون الجلوس ، صورة التمثال مكبرة .

كانت الطائرة إسمها نفرتيتى .

أربع ساعات كاملة قضيتها محملقاً إلى صورة التمثال ، ولكن هل أدرك من الصورة ما لم يقله لي الأصل ؟

عبثاً أحاول !!

* * *

ابادة الاشتراكية

١٩٩٠

.. من برلين الغـربية ركبنـا الحافلة المخصصـة لجولة سياحيـة تمر بأهم معالم برلين الغربيـة والشرقية ، إقتربنا من نقطة عبور ، بـوابة إسمها شارلى ، إحدى نقـاط العبور القـديمة ، التى تتخلل سـور برلين الشهير والـذى ما زال قائماً ، ولكن تم فتح أكثر من اثنين وعشرين نقطة عبور جديدة خلاله ، وخلال الشهور القـادمة ، وبعد إعـلان الدولـة الألمانية الموحدة سـوف تذوب الحدود تماماً . وتصبح برلين الكبرى عاصمة الدولـة القوية الجديدة التى سوف يغير ظهورها كثير من موازين القوى فى العالم . على حافة البوابة يقوم متحف يضم الوسـائل التى كان يتبعها الألمان الشرقيـون للهرب إلى الغرب ، بـدءا من حفر الأنفاق ، أو استـخدام المناطيد الطائرة والبالونات ، ويضم قوائم بأسماء الألمان الذين قتلـوا أثناء محاولاتهم الهرب، نصل إلى البـوابة . يقف رجـال البوليس الألمانى الشرقى ، يتنقلـون بين العـربـات بخفة ، وعلى وجـوهـهم ابتسـامـات ودودة، يقول العارفون إنها لم تكن موجودة من قبل .

طبقاً للأوضاع الجديدة ، فـان مواطنى شطرى برلين يمكنهم العبور سيراً على الأقدام . أو بالسيارات ، كل المطلوب منهم ابراز بطاقة تحقيق الشخصية . أما الأجنبى القاصد برلين الشرقية فيـدفع خمس ماركات غربية للحصول على تأشيرة مؤقتة تسمح له بالإقامة لمدة أربع وعشرين ساعة فى المدينة ، ولكن إذا خرج منها وأمضى وقتا أطول فلابد من تأشيرة عادية .

حـواجز عـديدة تتخلل المسـاحـة المخصصة للعبـور ، أدوات الكشف عن

الهاربين والتفتيش ما يـزال بعضـها موجوداً ، منهـا مرايا كـانت توضـع تحت العربات بحثاً عمن يكون قد تعلق بها . طوابير العربات طويلة فى الاتجاهين ، أما العابرون على أقدامهم فيروحون ويجيئون بلا توقف أو انقطاع . أحياناً يوقف البوليس عربة ويبدأ فى تفتيشـها ، لم نتوقف طويلاً ، استأنفت الحافلة سيرها ، أصبحنا فى بـرلين الشرقية ، جئتهـا قبل أربع سنوات ضيفـا على اتحاد الكتاب وجامعة مارتن لوثر فى هــالة . كنت مهتماً برصد التفاصيل الصغيرة فى الحياة اليومية ، أيضــاً مظاهر التغيير فى مجتمع كان يحكمه نظام صــارم ، يبدو ثابت الدعائم ، ولكنه إنهار فى ساعات .

كيف ، ولماذا ؟

أسئلــة عديـدة ، لكن إهتمامى بـرصد مظـاهـر الواقع طغى على فضــولى ، وعندما وصلت السيارة إلى بداية شــارع ماركس ، أحد أهم الطرق الرئيسية فى المدينة ، تـوقفت ، قال المرافق السياحــى إنه يمكننا التجـول لمدة عشرين دقيقة قبل استئناف الجولــة ، غادرناهــا . وكان فى مواجهتى مبـاشرة مشـهد يلخص اللحظة التاريخية بكل دلالاتها .

The West

مسرح ضخم مؤقـت ، منصوب في بدايــة طريق مــاركس ، أعمدة معــدنية متشــابكــة ، وقوائم من الألمونيــوم ، مئـات الـواقفين يتطلعون إلى فـرقــة من الرقصات شبه العــاريات ، ورجل يرتدى حلة سـهرة اسمـوكن يعزف بسرعة شديدة على الكمان .

في البدايــة ظننته نشــاط ثقافى مما تقـدمه الدولــة ، فالمسرح أحــد الانشطة الهامة التى ازدهرت فى زمن الاشـتراكيــة . وفى برلين الشرقيــة مسارح هــامة . منها مسرح برتولدبريخت ، والأوبرا ، ومسرح الدولة ، ومسرح هائل للمنوعات يتسع لخمســة آلاف متفرج ، والكبــاريه السياســى الذى كــان يقدم عــروضاً

انتقـــادية ، وقاعـــة استماع للموسيقى تعـد من أفخم قاعـات الموسيقى ف أوروبا . حضرت فيها عـام ١٩٨٧ عزفا لموسيقى مندلسون كـان يتخلله غناء ديني ، وكـــان يــدور حـــول المؤمنـين الاتقيـاء الذين حوصروا بـالملاحدة الكفـرة ، وقتهـا لم تغب عنى الـدلالـة ، حتـى إننى أبـديت الملاحظـة لمرافقى فطالعنى صامتاً .

غير أننى الآن سرعـان ما اكتشفت إن هـذا المسرح المتنقل والمقـام في بدايـة شارع ماركس مختلف تماماً .

المسرح إقامته شركة سجائر أمريكيـة أو غربية ـ لا أدرى ـ إسمها وست ، أى الغـرب ، قال صـديقى الروائى العـرب الكبير عبد الـرحمن ضيف ورفيق الرحلة ان الاسم له دلالة أيضاً .

أما العرض الموسيقى الـراقص ، فكان للدعايـة ، فوق المسرح ، وعلى امتداد عدة أمتار علقت لافتـة ضخمة تحوى لوحة أو صـورة مكبرة جداً ، جنرال من الجيش الأحمر الـروسى يميل بـرأسه إلى الخلف ، مغمـض العينين ، فى حالـة قصوى من النشوة . وحسـناء فاتنـة تضـع بين شفتيه سيجارة ، بينما كتب ما تقوله بالألمانية والانجليزية .

«ذابست إذ وست »

The best is west

وانتبهت إلى اللافتات المعلقة بكل الأحجام فى الشـارع ، شـارع كارل ماركس، والذى كان اسمـــه من قبل شـارع ستالين ، ولا أدرى ماذا سيصبـح اسمه بعد شـهور .

كان المشـهد يلخص كل شـىء ، ولم أدر .. هل اضـحك على زمـان جديد أقبل وهل . أم أبكى على ماض إنـدثر بسرعـة البرق ، مهما قيل فيه ، فإنـه كان يمثل حلماً إنسـانياً هائلاً من أجل المسـاواة بين البشر ، وسـواء أجهض لعوامل داخله أو من خـارجه ، فـها أنــذا أشـهد نهايته . فى الشـوارع الأخرى فرق دعـاية عديدة

لشركات سجائر أخرى . نصبت خياماً مـن البلاستيك ، وتوزع هدايا مجانية، وفتيات فـاتنات يبتسمن ويداعبن المارة ، بينما صـورة جنرال الجيش الأحمر محلقة . والبنت الحلوة تقول له: the best is west

فى برلين الغربية

ونعود إلى برلين الغربية بعد الجولة السريعة ، كنت أرجئ كل استفساراتى إلى ما بعـد أيام قليلـة . حيث تبدأ زيارتى إلى ألمانيـا الشرقية بـدعوة من اتحاد الكتاب هنـاك . كان مقر إقـامتنا هنا فى بيت الأدبـاء ، قصر قديم أنيق مطل على بحيرة جميلة هادئة ، خصص القصر كمقر للأدباء سواء من ألمانيا الغربية ، أو من البلاد الأخـرى ، يقيمون فيه لفترات ، وتنظم النـدوات ، أثناء اقامتنـا كان هنـاك وفد من أدبـاء تشيكـوسلوفـاكيا أيضـاً ، وبـالقرب من القصر محطـة مواصـلات رئيسية اسمها (بـرلين فانزا) ، اوتوبيسـات برلين الغربيـة طالت خطوطها الآن إلى برلين الشرقية ، ومن هذه المحطة يبدأ خط إلى مدينة بوتسدام القريبة ، فى مختلف ساعات النهار ، كـانت المحطة الهادئة من قبل تشـهد زحاماً من الألمان الشرقيين الذين جاءوا فى زيـارة قصيرة ويعودون ، كل منهم يحمل ما اشتراه . معظم المشتريات أدوات كهربـائية يابانية ، خاصـة أجهزة الراديو والتسجيل . تبدو الماركـات فوق الصنـاديق المستطيلة ، وكـذلك المراوح ، قال مرافقى الألمانى ، إنه يعرف الألمان الشرقيين فى الشـوارع أو فى المركبات العامة من لهجتهم ، فثمـة لهجة خـاصـة يتحدثـون بها الألمانيـة تنتمى إلى مقاطعـة سكسونيا القـديمة التى قامت فـوق أراضيها ألمانيا الشرقية ، قـال لى أيضاً إنه يعرفهم من نوع الأحذية التى يرتدونها !

يومياً .. يجىء الآلاف من الشرق ويعودون ، ولكن يومياً أيضاً يجىء حوالى ثلاثة آلاف ويبقون ، يقدر عدد الـذين خرجوا إلى الغرب بدون عودة إلى الشرق بأكثـر من مليونين ، معظمهم أطبـاء وعمال مهـرة ، وقد سمعت من يقـول إن برلين الشرقية قـد هجرها جميع أطبائهـا ، وأن حكومة ألمانيا الغـربية أرسلت

أطباء لادارة المستشفيات التى أصبحت خاوية ، هذه الأعداد الهائلة جاءت إلى الغرب سعياً وراء ظروف حياة أفضل ، معظمهم أقام فى معسكرات الإيواء التى أقامتها حكومة ألمانيا الغربية فى مختلف المدن والقرى ، وفى المدارس التى وضعت بها أسرة . كل سرير من طابقين . أسر بأكملها انتقلت . فى برلين الغربية لا يوجد الآن مكان خال فى أي فندق ، يفد على المدينة السياح المغرمين بمعايشة اللحظات التاريخية ، والصحفيون ، والجواسيس ، ورجال الأعمال الذين يدرسون كل شبر فى المدينة التى ستصبح عاصمة الدولة الموحدة ، الألمان الشرقيون تظهر تجمعاتهم فى وسط المدينة ، خاصة عند محطة السكك الحديدية ، التى يتجمع أمامها تجار المخدرات ، والعملة ، والنشالون ، حذرنا أكثر من صديق ، فالشوارع لم تعد آمنة ، خاصة بالنسبة للأجانب ، فالعداء العنصرى تزايد بشدة ، والمصدر الأساسى له ألمانيا الشرقية التى كانت إشتراكية صارمة ، إلى أى حد تغيرت الأحوال ؟

الأجانب هم الضحايا ..

فى الشارع كانت هناك مظاهرة ضخمة من العمال الأجانب . أتراك وعرب وأفارقة ، لقد صدر قانون جديد ينظم عمالة الأجانب فى ألمانيا الغربية ، وفى مجله يضيق عليهم الفرص ، ويحد من وجودهم ، كان أحد المناشير التى وزعت فى المظاهرة يشبه القانون الجديد بقوانين نورمبرج التى صدرت عام ١٩٣٠ ، وقسمت ألمانيا الى قسمين ، حيث فرقت بين الألمانى الآرى الأصيل ، وبين كل ألمانى وافد ، خاصة اليهود ، حيث فرقت بين الألمانى الآرى الأصيل ، وبين كل ألمانى وافد ، خاصة اليهود . ومن ثم بدأ إضطهاد السامية . لا يوجد فى ألمانيا كلها الآن إلا خمسين ألف يهودى فقط ، ومعظم هؤلاء يساريون ، كتبوا فى شوارع برلين الشرقية لافتات ضخمة تقول ، وطننا ألمانياً ، أو نحن ألمان وسوف نبقى هنا . وينضمون الآن إلى المنظمات اليسارية المقاومة للعنصرية . ولكن اليهود لن يكونوا الهدف الرئيسى للنازيون الجدد ، الذين ينتظمون فى

الحزب الجمهورى العلنى ، ويسيرون فى الشوارع حليقو الرءوس ، يرتدون ملابس سوداء ، ويهاجمون الأجانب ، أو بمعنى أدق الملونين ، قال لى شاب تونسى حصل على الجنسية الألمانية ،

«قانونياً .. أنا ألمانى ، ولكن بشرتى السمراء لا تعنى أننى ألمانى ، ماذا أفعل، هل أغير وجهى ؟ . عندنا مثل فى تونس يقول ، أحمل عصاك وأرحل قبل أن تنهال عليك عصا الغير .. وبالفعل سوف أرحل»

بالتأكيد سوف تتزايد الحركة العنصرية ضد الأجانب بعد تدفق ملايين الشرقيين إلى الغرب . فهؤلاء يبحثون عن عمل . وألمانيا الغربية يقدر عدد العاطلين فيها بأكثر من مليونين ، وهنا أكثر من مليون عامل تركى يحملون عبأ اشق الأعمال التى لم يقبل عليها الألمان مثل النظافة ، والمناجم ، وغيرها ، الآن .. أصبح وجودهم هم وغيرهم من الجنسيات الأخرى غير مرغوب فيه ، والألمان القادمون من الشرق مستعدون للحلول مكانهم ، وبأجور أرخص ، وطبعاً هذا مكسب إضافى لرأس المال ، وبين العمالة الشرقية مستويات متقدمة فنياً ، وفى ألمانيا الشرقية كثير من المصانع مهددة بالتوقف أو توقفت بالفعل نتيجة هجرة العمال المدربين ، إلى سوق العمل نزل عنصر آخر ، وهم البولنديون ، إنهم على استعداد لتقاضى أجور أقل من الألمان الشرقيين ، ومن الأتراك ، وهم يشكلون الآن ظاهرة ، وجودهم كثيف . قرب السور الشهير يقام يومياً سوق فى العراء يكتظ بالآلاف منهم ، يشبه سوق العتبة ، فيه بضائع رخيصة ، ومهربة ، الظروف الاقتصادية فى بولندة أسوأ بعد أن اتضح الوهم الرأسمالى ، كل البضائع التى كانت غير موجودة زمن الاشتراكية موجودة الآن ، ولكن ما من نقود فى الأيدى ، والجوع الحقيقى يدق الديار ، قال لى أحدهم ، إن ثمة حنيناً الآن فى بولنده إلى زمن ما قبل الانفتاح ، وأن الطريق الجديد فشل ، بل إن الناس يحنون إلى رجل قوى يمسك زمام الأمور ، ويحقق العدالة المهتزة.

هل يكون هذا هو الوضـع فى ألمانيا الشرقية بعد فترة ؟

إن الزلزال الذى بدأ فى نـوفمبر الماضى ما زال مستمراً ، ولكن الأوضاع فى ألمانيا الشرقية بالذات لن تعود إلى ما كانت عليه ، لقد إنهار النظام القديم ، والآن يجرى تصفيته ، بل إبادته بالكامل ، وبعد الوحدة سوف تصبح ألمانيا الشرقية مجرد مقاطعة متخلفة من ألمانيا الكبرى .

* * *

المهم .. أن الأجانب سـوف يدفعون الثمن بسرعة ، العـداء ينمو بسرعة وفى برلين الغربية قتل ألمانى شرقى رجلاً من باكستان ، رجل لا يعرفه ولم يلتق به، وبالطبع كانت العقوبة هينة جداً ، ترحيله إلى الشرق ، وفى ليبزج وجنوب ألمانيا الشرقيـة ، التى كانت اشـتراكيـة حتى شـهور مضت ــ تنمو الحركـة الفاشيـة المعادية للأجانب ، وبالذات العرب والأفارقة والآسيويون ، وبالرغم من وجود حوالى ثلاثـة ملايين أجنبي فى ألمانيا الغربية ، فان حـدة العداء لهم لم تنمو كما جرى فى الشرق والتى لم يـزد عدد الأجانب فيها عن مـائتى ألف فقط ، ويرجع البعض هـذا إلى عدة أسبـاب منهـا إنغلاق المجتمـع الألمانى الشرقى مما أتـاح الفرصــة للتيارات الفاشية القـديمة أن تبقى تحت السطح برغم كل تـوجهات النظام الاشتراكى السـاندة للعالم أو حتى العاملين فى السفارات ، من التجارة فى العملة ، والسلع النـادرة ، وأدى هذا إلى أنـواع من السلوك أثـارت استفزازاً فى المجتمع الألمانى ، خـاصة مـن الشباب الـذى أسفـر الكثير منهم عن اتجاهاتـه النازية ، فحلقا الرءوس وارتدوا الملابس السوداء ، وركبوا الدراجات البخارية ، وراحوا يطـاردون الأجانب ، والذين أصبحـوا الآن هدفاً لكل طـاقات اليأس المصاحبـة للبطالـة ، وللرغبـة فى الثراء السريع ، وحيـازة السلع الغربيـة التى غمرت الأسواق ،

ومن هؤلاء حذرونا قبل بدء زيارتنا لألمانيا الشرقية .

* * *

.. عندمـا خرجت مظـاهرات الجماهير الضخمـة فى مدينـة ليبزج المطـالبة بالتغيير ، كانت تهتف :

جوربى ، جوربى ، جوربى ..

وجوربى اسم التـدليل للزعيم السوفيتى جـورباتشوف فى بلـدان الغرب . ومع استمرار المظاهرات طرأ تغيير على النداءات .

جوربى ، جوربى ، كول ..

ثم أصبح :

كول ، كول ، كول ..

هكذا تطـورت الأمور بسرعـة مذهلـة ، انتهت بتقويض النظـام الاشتراكى الذى استمر خمسة وأربعين عاماً ، لتنتقل ألمانيا الشرقية إلى أقصى اليمين ، بعد فوز الحزب الـديمقراطى المسيحـى فى الانتخابات ، أو بمعنـى أدق فوز المارك الغربى ، الذى وعد المستشار كول بمساواة المارك الشرقى به ، وكان فى السابق كل مارك غربى يوازى عشرة فى السوق السوداء ، وفى بعض الفترات وصل إلى عشرين ، فى الأسبوع الأول مـن مايو أعلنت حكـومة ألمانيـا الغربيـة عن سعر جديـد للمارك الشرقى ، كل واحد غـربى يصرف باثنين شرقى ، تمهيـداً لتنفيذ وعد كول . المارك يساوى مارك ، أى الوحـدة الاقتصادية الكاملة ، الآن تجرى عمليـة امتصـاص المارك الشرقى من الأسـواق ، كما وضعت أسس لتغيير مـا بأيدى ألمان الشرق ، فكل مـن يبلغ عمره حتى خمسة عشر عـاماً سـوف يقوم بتغيير ألفى مارك شرقى بمعـدل واحد مقابـل واحد ، وما زاد عن ذلك الـواحد بـاثنين ، وحتى سن الأربعين يسمـح بتغيير أربعـة آلاف ، وحتى سن الستين يسمح بتغيير سـتة آلاف مارك ، ومـا زاد يتم تغييره ، الغربى بـاثنين شرقى ، سـعر المارك شغل النـاس الشاغل ، كذلـك الأوضـاع الاقتصاديـة الجديدة التى سوف تنشأ فى الشرق بعد الـوحدة الاقتصادية الكاملة ، مشـاكل عديدة تبرز ، كنت أبحث عن التفـاصيل ، المصـاحبـة لهذا التحول الهائل ، سـواء فى الحيـاة

اليومية . أو الجوانب الاقتصادية ، لكن قبل هذا كله كنت أحاول تلمس الأسباب التى أدت إلى إنهيار النظام الاشتراكى بهذه السرعة ..

شماتة

فى تليفزيون ألمانيا الشرقية ، وفى المذياع ، يقدمون فقرات من خطب الزعيم الشيوعى هونيكر رئيس ألمانيا الشرقية . فقرات يعلن فيها ان الاشتراكية باقية إلى الأبد فى ألمانيا الشرقية ، ثم تتوقف فجأة ، ويبدأ صفير الجماهير وعبارات الاستهزاء .

فى ليلة خميس ، رأيت برنامجاً يضم عدداً من الرجال مهيبى المظهر ، كانوا يتناقشون قال صديق يعرف الألمانية : أتدرى عن أي موضوع يتناقشون ؟

قال إنهم يبحثون عن وضع الراتب التقاعدى الذى يصرف لهونيكر بعد الوحدة الاقتصادية ، وهل يستحق مثله ان يقبض معاشه بالمارك الغربى ، المارك الغربى ذو القوة الشرائية المرتفعة ، هل يصرفون معاشه كاملاً ، أم يخفضونه ؟

هونيكر وأسرته الآن يقيمان كلاجئين عند إحدى الجمعيات المسيحية فى قرية قريبة من برلين [1]، بعد عزلة نشرت أخبار عديدة عن ثروات قام بتهريبها ، وملايين فى بنوك سويسرا ، ولكن لم يوجد دليل واحد على صحة ذلك ، بعض الألمان الشرقيين حدثونى عنه بتعاطف ، ولكن الرغبة فى الانتقام من رموز النظام القديم عارمة ، لجنة شعبية قامت باجراء فحص لبيت وزير الثقافة السابق ، لماذا ؟ لكن تحدد ، إذا ما كان الايجار الذى يدفعه يوازى المساحة ام لا؟ ، اكتشفوا أنه أقام حماماً للساونا خارج المساحة المحددة .

هناك نقص فى العمالة الماهرة بعد هجرة مئات الألوف إلى الغرب ، بعض المصانع رفعت لافتات كتب فوقها :

---

(١) وقت إعداد الكتاب للطبع ـ ديسمبر ١٩٩١ ـ هونيكر مطارد الآن فى روسيا ويبحث عن ملجأ .

«مطلوب عمال ، ممنوع تقدم عملاء أجهزة الأمن السابقين ، وأعضاء الحزب الشيوعي ..»

في المساء ، وأثناء عودتنا إلى مقر إقامتنا فى برلين الشرقية ، مرت بنا عربة سوداء فارهة علقت لافتة (تاكسى) ، قال صاحبنا :

«هذه عربة كانت تتبع وزارة أمن الدولة ، بيعت كل السيارات السوداء التابعة لها فى مزاد علنى وتحول معظمها إلى تاكسيات ..» ومرة أخرى كان التساؤل يتردد داخلى ، كيف ولماذا ؟

عنصرية جديدة

زرت ألمانيا الديموقراطية عام ١٩٨٧ ، وخلال الأسبوعين الذين اقمتهما ضيفا على جامعة مارتن لوثر ، وإتحاد الكتاب ، شعرت بمدى توق الشباب إلى السفر ، خاصة إلى الغرب ، كان السفر إلى الخارج محظوراً إلا لمن تجاوز سن الخامسة والستين ، كان السفر حلماً ، تغذيه الدعاية الغربية المكثفة ، والتى كانت تخترق كل بيت فى ألمانيا الشرقية عبر أجهزة التليفزيون ، من خلال عدة قنوات تتنافس فى تقديم الصورة الوردية للحياة فى الغرب . بينما التليفزيون الشرقى يقدم نشرات أخبار مطولة مثل نشراتنا العربية حول المقابلات الرسمية للقادة والسادة والوزراء ، ثم عروض كلاسيكية للمسرح ، وللموسيقى . أو افلام عن الحرب العالمية الثانية .

نتيجة للدعاية المكثفة ، والعزلة ، أصبح كل ألمانى شرقى يتخيل الحياة فى الغرب كالآتى ، مرسيدس لكل مواطن ، وإجازة صيف فى مايوركا !

كان مطلبه حرية الانتقال عنصراً أساسياً فاعلا خاصة بين الشباب .

الملاحظة الثانية . وطأة القبضة البوليسية ، كل ستة مواطنين بينهم مخبر ، أجهزة أمن قوية ، كانت ألمانيا الشرقية تعتبر أكثر الدول الاشتراكية خبرة بالأمن .

كـان هذان هما العنصران السلبيـان ، فى مقابل ذلك ، كـان النظام فى ألمانيـا الشرقيـة قد استطـاع من خلال إمكـانيات البلـد الفقيرة أن يصبح تاسع قـوة صناعيـة فى العالم ، وأن يوفر الاحتيـاجات الأساسيـة لكل مواطن ، المسكن ، المأكل ، الملبس ، التعليم ، إنعدام البطالة ، المحافظة على أسعار المواد الأساسية ، بحيث إن هذه الأسعار لم ترتفع على مدى أربعين عـاماً . ولكن هذا كله تضاءل فى مواجهة الدعـاية المكثفة القادمة من الغرب ، وعندما حـد من حرية الإنسان يصور لـه خياله مـالانهاية له عن الحيـاة فى الجانب الآخر . كانت أسـاسيات الحيـاة متاحـة ، أمـا الكماليات فشحيحـة ، وظنـوا أن الحيـاة هناك تبـدأ من الكماليات وتنتهى بها .

الآن .. بدأ البعض ينظـر بقلق إلى المستقبل ، بعد أن بـدأ فصل مئات العمال من المصانع ، وبدأت الأسعار تتحرك إلى أعلى ، فـالمجتمع الغربى فيه مشاكله ، وأهمها البطالة . والتضخم ، وهذه أمـراض سوف تنتقل إلى المجتمع الذى يمر بمرحلة إنتقال الآن .

يقـولـون فى ألمانيا الشرقيـة الآن إن النظـام القـديم كـان يخفى الكثير من السلبيات ، فالمصانع التى كان يعلن عن تحقيقها أرباحاً كبرى . فى حقيقة الأمر خاسرة ، وكان القادة الاشتراكيون يعلنون أن بلـدهم هو الوحيد الذى لا ديون عليه للخارج ، ولكن اتضح الآن أن ألمانيا الشرقية مـدينة بسبعة وثلاثين مليار مارك دين خارجى ، ومائة وستة وسبعين مليار مارك دين داخلى ،

قال لى ألمانى شرقى بوضـوح :

«لقد أضاعـوا أموالنا على نيكارجوا وموزمبيق وغيرهما ، وجـاء أبناء هذه البلاد فتاجروا فى عملتنا ونسائنا ، وهذا من أسباب تدهورنا ..»

ربما يفسر هـذا القول بغـض النظر عن صحتـه أو خطئـه ، مـوجة العـداء العنصرى الشديدة للأجانب فى ألمانيا الشرقية . وفى تقديرى أن ذروة هذا العداء لم يكن فى الأعمال العدوانيـة التى يتعرض لها أبناء العالم الثالـث فى مدن ألمانيا

الشرقية ، والتى انتقدتها صحــافة ألمانيا الغربية ، إنما كان فى هــذا القرار الذى اتخذه رئيس بلدية مدينة درسدن أثناء زيارتى لمدينة ليبزج ، كان القرار حديث كل من قابلته ، لقد قرر عدم تشغيل أى أجنبى فى درسدن ، الألمان والألمان فقط. وهذا قرار نازى بكل أبعاده .

الطـريف .. أن رئيس بلـدية درســدن الـذى اتخذه ، كــان عضواً بــارزاً فى الحزب الشيوعى الحاكم سابقاً .

عقدة الموز

.. سفير دولة عربيــة قال لى إنه مذهــول مما جرى ، قبل انـدلاع المظاهرات بأيام كــان جورباتشوف فى زيــارة ألمانيا الشرقية ، عــانق هونيكر عناقــاً حاراً برغم ما قيل عن الخلافات بين الطرفين ، وموقف قادة ألمانيا الشرقية المعلن غير الموافق على مــا يجرى فى الاتحاد السوفيتى تحت مظلــة البيروسترويكا . كــان يــاسر عـرفات حــاضراً هــذا اللقــاء ، والاستعــراض الكبير الذى جـرى أمــام جوربــاتشوف ، أكثر من نصف مليــون شاب ألمانى شرقى يحملــون المشاعل مروا أمام المنصة ، يهتفون بحيــاة الحزب الشيوعى وقيادته ، لم تمض إلا أيام واندلعت مظاهرات التغيير ، وأصدر جورباتشوف تعليماته إلى وحدات الجيش الأحمر المرابطة فى ألمانيا بعدم التدخل .

كان هنــاك ضوء أخضر أمام قــوى التغيير من موسكو . هــذا لا ريب فيه ، وخرجت الجمــوع نفسها التى كانت تنتظم فى الاستعراضيــات والطوابير ولكن لتقوض النظام القديم ، وسرعان ما إنهالت المعاول .

كثير من مصــانع ألمانيا الشرقيــة يجرى تصفيتها الآن ، والسبب كما يقــال تخلف الآلات ، وأساليب الانتاج ، المؤسسات الغربية تتقدم تحت بند المشاركة لشراء المؤسسات والصناعات المتقدمــة ، وبالطبع تجرى تصفيته العمالة ، فلا يتم الاحتفاظ إلا بالعمالة الماهرة جداً ، أو المديرين والمسئولين الذين يتواطئون لاتمام عمليات البيع .

دار نشر كبرى فى برلين الشرقية ، كانت تضم مائة وخمسة وثلاثين موظفاً وعاملاً ، تقرر الاستغناء عن مائة ، والاحتفاظ فقط بخمسة وثلاثين . طلب منهم إعداد كتب للنشر يمكن ترويجها ، هذه الدار كانت تقوم بدور مهم فى تقديم أدب العالم الثالث . هذا توقف طبعاً ، فى نفس الوقت فتحت أسواق ألمانيا الشرقية أمام منتجات ألمانيا الغربية .

اللبن الزبادى بالفواكه القادم من الغرب يباع فى المتاجر ، وفوق الأرصفة . يحتل مواقع منتجات الألبان المحلية ، الانتاج يتراكم فى المصانع ، لا يمكن تصريفه ، مع مرور الوقت تضطر هذه المصانع للتوقف .

فى الشوارع مناضد تعرض الفواكه التى لم تظهر فى السابق ، وجهمها الموز، كان لدى الألمان الشرقيين ما يمكن تسميته بعقدة الموز ، فالموز يستورد بالعملة الصعبة ، وكان ظهوره نادراً ، وبكميات قليلة ، الآن جاء الموز ، والأناناس ، وجوز الهند ، والعنب البناتى القادم من أقصى أمريكا اللاتينية ، لكن المهم .. النقود التى تشترى هذه السلع ..

كان الشرقيون يذهبون إلى الغرب فيذهلون لجمال العرض ، ولتنوع المعروض ، فى برلين الغربية يوجد متجر ضخم ، اسمه ك. د. ف. يعرض ألف نوع من الشيكولاته ، وخمسمائة نوع من الخبز ، وأربعمائة نوع من السمك الطازج القادم من شتى بحار الدنيا ، ناهيك عن الملابس ، والخمور ، وأدوات التجميل ، بعض القادمين من الشرق أصابتهم حالات من الهياج الهستيرى عند رؤيتهم تلك السلع ، خاصة إنها متاحة لمن يملك النقود . وفى الغرب البعض لديه الامكانية ، والبعض يعانى البطالة والعوز ..

فى ألمانيا الشرقية كان هناك نوعان من السيارات ، سيارة متقدمة اسمها فيرتبورج ، يجب على الألمانى الشرقى الانتظار خمسة عشر عاماً حتى يحصل على واحدة منها ، وسيارة شعبية صغيرة اسمها ترابنت ، كان لابد من انتظار عشر سنوات للحصول عليها مقابل ثمن مرتفع حوالى عشرين ألف مارك شرقى

، بعد التطورات الأخيرة انخفض ثمنها فى السوق إلى بضعة مئات فقط ، ويعلن المصنع عنهـا الحاح ، ولكن لا أحـد يتقـدم لشرائهـا ، بعـد أن فتحت الحدود واصبحت السيارات بمختلف أنواعها متاحة . ولم يبق أمام المصنع إلا أن يغلق أبوابه ، ويواجه الموقف نفسه عديد من المصانع الأخرى ،

* * *

فى مراحل التحول الاجتماعى يكون انعكاسها على المصائر الفردية حاسماً ، فى ليبزج قـابلت مصرياً تـزوج من ألمانية ، زوجتـه تعانى مشكلـة حادة الآن ، فلمدة تسع سنوات ظلت تدرس لغة شعب كمبوديا ، لغة صعبة والمتخصصون فيها نادرون ، طبعاً ألمانيا الشرقية كان لها عـلاقات وثيقة بكمبوديا ، الآن .. ما الحاجة إلى مثل هـذه اللغة ، قـالوا لها : نحن لا نحتـاجك . ماذا تفعل إذن ؟ إنها تتقن الفرنسيـة أيضاً ، اقترحـوا عليها أن تعمل جرسـونة فى فنـدق سياحى ، وقبلت ، فليس هناك بديل .

المثقفون عامة والكتاب خاصة بـدأت معاناتهم ، فالكتاب والفنانين كان لهم وضع متميـز فى النظام الاشتراكى ، يعيشـون شبه متفـرغين ، أعرف روائيـاً ألمانياً أصدر كتاباً واحـداً ، استطاع أن يعيش منه لمدة ثلاث سنوات ، تحول إلى فيلم ، إلى مسلسل تليفزيونى ، كثيرون كانوا يحصلون على منح تفرغ ، الآن .. وضعهم غامض ، لابد أن يعملوا فى مهن محددة حتى يمكن لهم العيش .

* * *

فى السوق بمـدينة ليبـزج أوقفنى شاب ملتحى ، قـدم إلىّ جريـدة من أربع صفحات ، يوزعها مجاناً ، سألت مرافقى عن مضمونها ، قال إنها ناطقة باسم جماعة ماركسية أصولية ، ترى انه من الضرورى العودة إلى الأصول ، وتمجد ستالين باعتباره زعيماً شيوعيا عظيماً بنى الدولة الاشتراكية وحافظ عليها فى ظروف بالغة الصعوبة ، كان ذلك مثيراً لى ، بعد أن كان الشيوعيون فى السلطة ، ينقسمون إلى جماعـات ، ويوزعـون منشوراتهم فى الشـوارع ، إلى متى تسمح

السلطة الجديدة بـذلك ، وهؤلاء الماركسيون الأصوليـون ، هل تنمو قوتهم فى المستقبل ، أم يتحولون إلى شكل من الفولكلور السياسى ؟

* * *

فى بـرلين الشرقيـة مضيت بصحبـة عبد الـرحمن منيف لـزيـارة النصب التذكـارى للجنود السوفييت ، عشرون ألـف ضـابط وجندى سقطـوا فى برلين قرب نهاية الحرب العالمية الثانية ، النصب شيد فى زمن ستالين، فى مكان تحيطه الأشجار العالية ، سـاحة عريضة تؤدى إليه ، تمثـال لأم روسية تنحن باكية ، ترثى ابنهـا ، وتماثيل لكبار القـادة واشهر المعـارك ، فى النهايـة تمثال ضخم لجندى سوفيتى يطأ بقدمه الصليب المعقوف ، المكان موحش جداً ، عليه سمات المقابر ، متوارٍ عن الأبصار رغم ضخامتـه ، لاحظنا وجود حراسة مشددة ، السبب أن أعضـاء الحزب النازي الجديـد غاضبـون بسبب التمثال الـذى يطأ الصليب المعقـوف ، بعضهم يجىء ويبصق عليـه ، على النصب كلـه ، وهنـاك تهديدات بنسفـه . وفى تقديـرى إن هذا النصب سـوف يختفى خـلال سنوات قلائل ، لن يستمر مع المرحلة التاريخيـة الجديدة ، عند إنصرافنا منه ، تساءلت بصوت مرتفع ،

ـ ترى .. بعد توحيد ألمانيا ، كم من السنوات ستمضى ليظهر هتلر جديد ؟

قال لى عبد الرحمن منيف

ـ تصور .. هذا ما كنت أفكر فيه بالضبط

طــفل .. ضــــال

١٩٩٠

كـــنا ثلاثة

الروائي العربى عبد الرحمن منيف ، والدكتور نشأت الحمارنة وهو طبيب وسياسى سورى قديم ، هجر الطب والسياسة . وتفرغ لكتابة وتدوين تاريخ الكمالة العرب كما عرفوا فى الزمن القـديم ، أو أطباء العيون كما يعرفون الآن . من أجل ذلك يقيم الدكتور نشأت هنـا فى برلين ـ التى كانت شرقية ـــ منذ عدة سنوات .

دعانـا الرجل إلى إحـدى ضواحى بـرلين ، للأسف لم أدون اســم المكان فى مفكرتى ، ربما شغلنى جماله وتفرده ، فثمة بحيرة مترامية الأطراف تحيط بها منطقـة خصبة الخضرة ، كثيفـة الاشجـار، تتخللهـا فنادق أنيقـة لا يتجـاوز ارتفاعها أربعـة طوابق ، كانت مخصصة كاستراحـات للعاملين فى المؤسسات والمصانع لقضاء أوقات الأجازات ، أمـا الآن فقد تم بيعها إلى إحدى المؤسسات الفندقية الغربية ، ارتفعت أجور الاقامة بها ، وبدأ يفد إليها الأثرياء من الغرب ، وظهرت فى صالات الاستقبال الصحف الغربية كلها بما فيها المجلات الجنسية العارية التى كانت ممنوعة فى زمن الاشتراكية المندثر .

كنت أتطلع إلى مثل هذه المنشآت ، وأردد لازمة ساخرة كان يبتسم لها عبد الرحمن منيف :

«طيب ومالها الاشتراكية ...ما عملت حاجات كويسة برضه أهه!!»

كان المؤرخون العـرب القدامى عندما يموت شخص مـا ، يعدون محاسنه

ومساوئه ، خــاصــة إذا كان حــاكماً أو سلطاناً ، ولـو اتبعنا نفس الطـريقة مع النظام الاشـتراكى ، فسوف نجد المحــاسن والمساوئ . والحديث فى هذا يطول ، ولكننى اكتفى بالقول معلقاً على ما جـرى من تحولات أن القول العربى القديم «راحت السكـرة وجـاءت الفكرة ينطبـق الآن على الناس فى ألمانيـا الشرقيـة» ، المهم.. إننا كنا نتبـادل الحوار حيناً . أو نصمت فى معظم الوقت بتأثير الخضرة الكثيفـة ، والهدوء الطاغى ، والجمال المنتشر ، كـان الوقت قـد تجاوز العصر ، وحضـور النــاس قليل جداً ، وفى إحدى المـمـرات التى تتخلل الغابــة ، ظهر طفل صغير ، ربما فى العاشرة ، أو التاسعة ، اعترض طريقنا ، كان يمسك بين أصابع يديـه بضعة ماركـات معدنية ، وعندمــا مشى بمحاذتنا متطلعـاً إلينا . سألت الدكتور نشأت عما يقـول : فأجابنى إنه يريد منا أن نعطيـه قليلاً من المال لأنه جائع ، ويريد طعاماً .

هذا غير مألوف فى ألمانيا الشرقية ، هل من المعقول ظهور اعراض الرأسمالية بسرعــة هكذا ؟، حتى فى الغــرب لا أذكر أننى رأيت شحــاذين يمدون الأيـدى ، خاصة الأطفال الصغار .

أبدى الدكتــور نشأت إهتماماً ، وبدأ يتكلم مع الطفل الذى بـدا ذكياً ، ولكنه يعــانى حالــة من الإهمال الشديـدة ، فشعره الأشقـر الغزيـر مترب ، متسخ ، وقميصه ممـزق عند الكتف ، وحذائه كـالح الجلد ، قال عبـد الرحمن منيف إن حالتــه غير طبيعية ، وعندمــا إنثنى الدكتور نشأت إلينـا ، سمعنا منه مــا أثار شفقتنا وأحزاننا ..

* * *

قال الدكتــور نشأت إن الطفل يمر بحالة نفسية صعبة ، افقــدته مناطق من الــذاكرة ، فهــو لا يعى إلا أنه من إحـدى القرى الصغيرة الـواقعة على الضفــة الأخرى من البحيرة ، لكنه لا يذكر إسمها ، وانه اضطر إلى مفارقتها أمس ، جاء إلى هنا بالعبارة ، لماذا فارقها وهرب منها ؟

بصعوبة ، وفى جمل مشتتة ، قال إنه كان يعيش مع أمه فى شقة صغيرة ، فى بيت من طابقين ، لا يذكر والده ، ولم يره فى حياته ، كانت أمه عاملة فى إحدى المؤسسات الصغيرة ، لا يذكر اسمها أيضاً ، ولكنها لا تفيق من الخمر ، تشرب دائماً ، معظم الوقت لا تفيق . فى الطابق العلوى يسكن رجل مع اسرته ، يضايقونها دائماً . وأول أمس عادت الأم مخمورة ، نامت ، وفى الليل استيقظ الطفل على صمتها ، وليس على ضجيجها ، أو شخيرها المعتاد .

لسبب ما شعر بالقلق ، وعندما نظر إلى مرقد أمه شعر انه يواجه شيئاً ما لم يسبق له أن عرفه ، أو اطلع عليه ، ناداها فلم تجبه ، لمسها فلم تبد رد فعل ، دفعها فلم تتحرك ، أصيب بحالة من الرعب . صرخ ، صرخ ، جاء الجار غاضباً، لماذا يثير الضجيج فى الليل ؟ ، دخل الرجل مع إمرأته إلى الشقة الصغيرة ، وبدلاً من إسعاف الأم ، أو محاولة طلب إغاثة ، إنطلقا فى المكان الضيق يقلبان الأشياء، يبحثان عن أى شيىء مخبأ ، مخفى ، وعندما إلتقت عيناه بعينى الطفل المرتاع ، حدق إليه بقسوة جعلت الصبى الصغير يرتجف رعباً وفزعاً، تراجع خطوتين ، وبما تبقى فيه من طاقة إنطلق يجرى محاولاً الإختفاء عن العيون ، مفارقاً المكان كله .

* * *

إن حالته النفسية سيئة جداً .

عبثاً حاولنا عن طريق الدكتور نشأت ـ الوحيد منا الذى يجيد الألمانية كأهلها ــ أن نعرف أى تفاصيل أخرى ، كانت نظراته شاردة ، يتحدث وهو يتطلع حوله خائفاً ، ثم يضحك فجأة ، اتفقنا على أن الطفل يعانى صدمة عصبية شديدة ، خاصة عندما يذكر الجار الشرير الذى سرق كل ما تحتويه الحجرة قبل تفكيره فى إنقاذها ، أو تغطية وجهها !

أى شر تحويه الدنيا ؟

أى مأساة حية ألقت بها المقادير فى طريقنا ، نحن الذين ماجئنا إلى هذا المكان إلا لتمضية ساعة أو ساعتين قبل عودتنا إلى مقر إقامتنا فى برلين .

الواجب الإنسانى يدعونا إلى إنقاذ الطفل ، لا ندرى ماذا سيحدث له ، خاصة إن الليل يقترب ، وهو جائع ، وحيد ، كما يبدو انه ائتنس بنا ، إذ راح يتطلع إلينا بود ، وأحياناً يبتسم .

كخطوة أولى ، لابد أن يتناول طعاماً ما ليسد جوعه . اتجهنا إلى داخل الفندق القريب ، المطعم أغلق ، قص الدكتور نشأت على موظفة الاستقبال الشابة ما جرى للصبى ، ابدت تأثراً ، دخلت إلى الغرفة الملحقة بالمكتب ، رجعت بزجاجة مياه غازية ، وبسكويت ، ربتت عليه ، قال الصبى إنها المرة الأولى فى حياته التى يدخل فيها إلى فندق .

اصطحبته الموظفة إلى إحدى غرف الطابق الأول الخالية ، بعد ذهابهما تساءلت عن الخطوة التالية ، قال الدكتور نشأت إنه ملتزم بإنقاذ الطفل ، لن يتركه ، وإذا تعذر الوصول إلى قريته من خلال حديثه ، فسوف يصحبه معه إلى اسرته حيث يقيم ويحيطه بالرعاية حتى يتجاوز صدمته .

قلنا إن هذه أفكار جيدة ، ولكن ألا توجد جهة رسمية يمكن أن نضع أمامها حالة الطفل .

قال نشأت ، طبعاً يوجد البوليس .

تبادلنا الرأى ، واتفقنا على ضرورة إبلاغ الشرطة ، قالت موظفة الإستقبال إن الطفل يمكن أن يبقى بصحبتها فى أمان ، ولكن من الأفضل الإتصال بالبوليس ، فمراكز الشرطة لديها بيانات بالمتوفين ، وبأسماء المواطنين ويمسكنهم بسهولة التوصل إلى معرفة اسم اسرته . وأقاربه إذا كان ثمة أقارب.

قام الدكتور نشأت إلى الهاتف ، أجرى إتصالاً ، ثم إتصالاً آخر ،

كان الطفل يتابع ما يجرى وكأن الأمر يخص غيره . وبدا آمنا ، سعيداً بوجوده فى الفندق ، قال إن الغرف نظيفة جداً ، وان المكان جميل ، ثم قال إنه لم يرقد فوق سرير مثل الذى رآه .

ودمعت عينى موظفة الاستقبال . وإنتابتنا جميعاً حالة من الأسى .

وعندما قال الصبى إنه يريد الذهاب إلى دورة المياه ، اشارت الموظفة إلى الباب المرسوم فوقه رجل . بعد لحظات عاد الصبى ، قال بمرح إنه وضع ماركا فى الطبق الصغير الموضوع فوق المنضدة الصغيرة المجاورة للباب ، أدرك أن هذا هو المتبع فامتثل .

تحدثت إلى الصديقين عن إستعداد الولد الخلقى ، والذكاء البادى من عينيه . تساءلت حائراً ، كيف يجهل اسم والده ؟ ، كيف لم يلمح إليه ؟

قال الدكتور نشأت ، إن النظام الإجتماعى فى اوروبا الآن مختلف ، فعندما تنجب امرأة طفلاً . لا يسألها أحد ، ابن من هذا ؟ . ليس ضروريا أن تكون متزوجة أو لا ؟ ، وفى الدول الغربية حيث يتناقص عدد السكان ، ما يهمهم هو ان يأتى الطفل ، وليس مهما الطريقة التى جاء بها ، وفى كثير من الأحيان تكون الأم جاهلة بوالد الطفل لتعدد علاقاتها الجنسية ، حتى إذا كانت تعرفه فإنها تعطى ابنها الاسم الذى تحدده هى ، وفى الغالب لا يكون اسم الأب . هذا وضع شائع جداً الآن فى اوروبا بشرقها وغربها ، وخلال زيارتى الأخيرة لباريس ، رأيت فى محطة التليفزيون الأمريكية ان. ان. سى والتى تبث أخباراً لمدة أربع وعشرين ساعة . رأيت برنامجاً عن أب أمريكى فى الثالثة والأربعين متزوج من ابنته - تسعة عشر عاماً - وخلال البرنامج كان المذيع يسأل عن أدق التفاصيل، وشكل العلاقة ، والمشاهدون يتصلون على الهواء مباشرة ، ليسألوا الأب

والابنة التى كـانت الأم قد منحتها إسماً آخـر بعد إنفصالها عن والدهـا . كان واضحاً من ملامحهما أنهما يمثـلان حالة مرضية ، ولكنهـا فى تقديرى ليست حالة فردية ، ولكنها حضارة بأكملها تتحلل خلقياً وإجتماعياً .

أخيراً .. وصل البوليس ..

* * *

سبحان مغير الأحوال :

كان مجرد ظهور رجال البوليس الألمانى الشرقى بزيهم الرمادى ، والنجمة الحمراء التى تتوسط غطاء الرأس يثير الرهبة والحذر ، نزل من السيارة ثلاثة، تقدم أعلاهم رتبة ، كانت تفوح منهم رائحة عرق ، وكان يبدو عليهم الضجر ، واللامبالاة ، لاحظت أن ملابسهم غير معتنى بها .

راح الضابط يصغى إلى الدكتور نشأت ، كتب بعض المعلومات فى مفكرته ، قدم نشأت بطاقتـه ، وأكد على ضرورة الإتصال به عنـد التوصل إلى أى نتائج محددة ، لم يفت نشأت أيضاً ان يكتب اسم الضابط ورقم هاتفه .

صافحنـا الصبى ، رحت أتأمل هذا الكيان الإنسانى الصغير الـذى جاء إلى العالم ربما كنتـاج لحظة ضجر ، أو ملل ، أو عـلاقة عابرة ، وفى مكـان ما الآن يسعى والده المجهول ، كنت أفكر فى وحدتـه ، ورعبه كلما تذكر الجار الشرير ، عندما إستقر فى المقعد الخلفى للسيارة كان مبتسماً ، راضياً ، لوحنا له . ولوح لنا حتى دارت السيارة عند المنحنى .

* * *

العاشرة ليلاً فى منزل الدكتور نشأت . نتأهب للإنصراف عبد الرحمن منيف وأنا إلى مقر إقامتنا .

رن الهاتف .

إتجه نشأت إليـه ، راح يصغى ، وتعبيرات عديـدة تتـوالى عليه ، لسبب مـا خمنت إن المكالمة لها عـلاقة بالصبـى ، بعد أن وضع السماعة ، وبعـد لحظات صمت .

ـ فعلاً ، الشرطة كانت تتكلم . لقد عرفوا إسم الصبى ، وتوصلوا إلى والديه، الأب والأم .. نعم ، فـالصبى اعتاد الهرب منهما ، وتلـك هى المرة الثالثـة التى تعيده الشرطـة ، والموت المفاجئ لـلأم المخمورة ، والجار الشرير ، والصـدمة ، والقرية النائية ،

قال عبد الرحمن منيف ..

ـ تصوروا !

ولم أعلق !

* * *

متتاليات .. باريسية

مارس ١٩٨٢

« .. باريس للمرة الأولى »

كان ذلك فى عـام ١٩٧٩ ، ما أسرع مرور الزمن ، فقد مضـى ثلاث سنوات كاملة منذ ذلك الحين ، وخلال هذه الفترة ترددت على باريس خمس مرات ، وفى كل مرة كنت أقضى مدة تتراوح بين خمسة عشر يوماً ، وشهر ، وكانت الزيارة الأخيرة فى فبرايـر الماضـى ، كنت شأن معظم أبنـاء جيلى ، لم تتح لنـا فـرصـة التعليم فى أوروبا الغـربية كما أتيحت لعدد مـن كتاب الأجيال الماضيـة ، الذين كـانت ظروف اسرهـم تسمح بإرسالهم إلى الغـرب على نفقتهم ، أو من خـلال البعثات الـدراسية ، وعندما عملت فى الصحـافة لم تتح لى الفرصـة للسفر إلى الغرب ، فالسفر عندنا له مقاييس أخرى ، إما بحكم العمل ، أو تغدق فرصه على المصطفين والمحظوظين ، وهؤلاء لسنا ـ والحمد لله ـ منهم ، اقتضى منى الأمر إدخـار طـويل ، حتى وضعـت قـدمى لأول مـرة فى اغسطس عـام ١٩٧٩ ، فى الطائرة المتجهة إلى الغرب ، إلى لندن ، ثم إلى باريس .

وعلى الرغم من زياراتى التى تكـررت منذ ذلك الحين ، فلم أستطع أن أكتب كلمـة واحـدة عن هذه المدينـة التى طـالما حلمت بـزيارتها ، والتجـول فيهـا ، والوقوف عند مظاهر الحضارة الغربية فيها ، وكثيرا ما يفاجئُ الحنين الإنسان إلى مكان عـرفه وعاش فيـه فى وقت يكون بعيـداً عنه ، ربما هذا الحنين هـو ما يدفعنى الآن إلى إستدعاء تلك المتتاليات الباريسية .

* * *

.. باريس مـدينة تستقر بـالقرب من سقف العالم ، تلك السماء المفتـوحة ، المضيئة ، حتى فى أيامهـا الشتوية ، الرصـاصية اللون ، تذكرة عبـارة «مدينة النور» هذا الوصف الذى قرأناه فى لغتنا العربية مراراً ، فى النهار يتدفق الضوء حتى إلى الشوارع الضيقة وفى الليل تتلألأ المدينة بالأضواء الصناعية ، الطرق ، المبـانى ، الآثار التـاريخية ، وأن كـانوا أخيراً بـدأوا فى إطفاء العـديد من هـذه الأضواء قبل منتصف الليل تـوفيراً للطاقة ، وهكذا يتحـول برج ايفل إلى شبح هائل فى الظلام تلمع فوقه لمبة حمراء لتحذر الطائرات المقتربة فقط .

فى الزيارة الأولى التقيت بالصديق الكبير أحمد بهاء الدين ، قال لى ضاحكا :

ـ لكم أود أن أسمع انطباعاتك عن باريس ..

كان يعـرف القاهـرى القديم الكـامن فى أعماقى ، والـذى يرى هـذا العالم الفسيح بعينى ابن الجمالية ، وقصر الشـوق ، وصحبته طويلاً خـلال شوارع الحى اللاتينى ، والمقـاهى ، .. لقد كـان دخولى إلى باريس ، وجـواز مرورى إلى قلب المدينة ، أو جـواز مررها إلى قلبى ، تلـك المقاهى ، عندمـا تجولت فى لندن ، شعرت بأن ثمـة شيئاً ينقصنى ، شيىء مبهم غـامض ، ثم عرفتـه فى باريس ، لندن مدينة بلا مقاهى ، والمقهى عنـدى يعنى الرصيف والونسة والفرجة على العالم ، والرائح والغادى ، صحيح إن البيت الإنجليـزي له عالم خاص ، ولكنه مغلق ، مفتوح إلى الداخل ، والزبائن فيه يتبادلون الحديث أو يصمتون ولكنهم يقفـون ولا يجلسون ، القـاعـدة هناك الـوقـوف ، وكثيراً ما كنت أتأمل أحـد الإنجليز يمسك بكوب البيرة الضخم ، ويقف وحيداً ، صامتاً ، ينقل ثقل جسمه من ساق إلى أخرى ، بينما يحملق إلى الفراغ ، أو ينظر إلى بعض المتحدثين بينما تتغير مـلامح وجهـه من حين إلى حين ، وكأنـه يشـاركهم الحديث بـالنظـر ، وأحيـاناً تجيئ فتـاة فتجلس فى ركن معتم قليـلاً ، وتشرب بسرعة من فنجـان القهوة ، أو كوب البيرة ، أو كأس الوسيكى ، وتقلب مجلة بسرعة ، ثم تمضى ، فى باريس يختلف الأمر ، فثمة عدد كبير من المقاهى ، تمد فى الرصيف مقاعدها

فى العراء ، وفى الشتاء يرى الجالسون فيها المارة من خلال حاجز زجاجى شفاف أنيق ، المقاهى الباريسية أنيقة جداً ، خاصة تلك التى تقع فى الشانزليزيه، ومونبارناس وميدان الأوبرا ، كثيراً ما قرأت مقالات عديدة لكتابنا حول تلك المقاهى ، وقد أمدتنى بإمكانية الجلوس فوق الرصيف ، والتطلع إلى المارة ، أو لقاء بعض الأصدقاء ولكن فيما عدا ذلك فقد ازداد حنينى إلى المقهى العربى ، فى القاهرة اعتدت إرتياد عدد من المقاهى ، الزبائن يعرفون بعضهم ، وصاحب المقهى يبلغ رسالة من هذا لذاك ويستفسر عن زبون اختفى أياماً ، بالطبع اتحدث عن المقاهى القديمة العريقة ، فى المقهى القاهرى يمكن للزبون أن يقضى ساعات طوال لم يتناول فيها إلا مشروباً واحداً ، شاى قهوة، نرجيلة ، يمكنه ان يشترى طعاماً من مطعم مجاور ويأكل ، وبمجرد أن يلمح الجرسون لفافة الطعام يأتى على الفور بأكواب المياه ، ولكن فى مقاهى باريس يختلف الأمر ، فالفترة الزمنية التى يقضيها الجالس لابد ان تصاحبها نسبة معقولة فى عدد الطلبات ، والمقاعد الأنيقة جداً - معظمها يتخلله الخيزران ومذهبة - مصفوفة بحيث إن كل الجالسين ينظرون إلى الأمام مباشرة ، ولا يتواجهون ، أما الجرسون نفسه فمنظره أنيق ، بإختصار «بك» ، ولاحظت أن نوبات عملهم تتغير كل ساعتين تقريباً ، أين ذلك من مقاهينا نحن ، حيث تمتد النوبة إلى اثنتى عشر ساعة ، وفى نهاية الأسبوع كان عم عبد الحميد جرسون مقهى الفيشاوى القديم ، يتسلم عمله لمدة أربعة وعشرين ساعة كاملة ، يقف ، يروح ويجىء، يلبى طلب هذا ، ويرضى ذاك ، وكثير من الزبائن فى مقاهينا لا يدفعون الحساب إلا آخر الليل ، ويتعين على الجرسون العربى أن يكون حديدى الذاكرة ، فاذا أبدى الزبون شكا عند نقطة معينة يذكره الجرسون مثلاً: «انت طلبت هذا الشاى عندما جاءك فلان وكنت تجلس هنا» الأمر مختلف فى المقاهى الباريسية ، فالطلب يجىء ومعه ورقة صغيرة مطبوع عليها الثمن ، ومضاف إليه نسبة مقابل الخدمة ، ويتحرك الجرسون الأنيق الذى يرتدى

الجاكت الأبيض والبنطلون الأسـود ، والبابيون ، أنيقاً ، صـامتاً ، لا يستجيب لدعابة ، ولا يتبادل حواراً مع أحد الجالسين ، وكل ما يلفظه بعد قبض الحساب «مرسى» ، ولكن هنـاك ثمة فروق طفيفـة بين عدد من المقاهى ، فـالمقاهى التى يرتادها السياح ، أى ما يطلق عليه فى مصر «مقاهى الزبون النقالى» ، تجد فيها الخدمـة سريعة ، وبـدون عنايـة ، والـوجوه متجهمـة دائماً ، أما المقـاهى غير المطـروقة من جـانب الأجـانب ، وتلك مـوجـودة فى الضواحى ، أو فى الأحيـاء البعيدة عـن البؤر السكنية ، فتلك يمكـن .. يمكن أن تشعر فيها ببعـض الدفء خلال التعـامل ، ولكنه دفء لا يصل إلى حـد التواصل ، المثقفون فى العـاصمة الفرنسية يشيرون بإعتزاز إلى بعض المقاهى ، هـذه المقهى فى مونبارنا س كان يجلس فيها سارتر ، وهذا المقهى فى موغادتر كان يرتاده بلزاك ، وهناك مقاهى معروفـة ببعض الرواد دون غيرهم ، فمقهى الفـوكية بـالشانزليـزيه يـرتاده رجال المخابـرات ، جميع المخابرات العربية والايـرانية ، وربما .. الاسرائيلية ، ومقهى التر كاديـرو ، معظم رواده من الايرانيين ، وبجـواره مقهى آخر معظم زبائنه من اللبنانيين ، ومقهى جـورج سانك لبعض السياسيين العرب المنفيين أو الذين اختـاروا النضال فى بـاريس ، عندمـا كنت أجلس إلى أحد الأصـدقاء ، وأتحدث بصوت مرتفع معبراً عن مكنون رأيى ، فهنا على بعد آلاف الأميال من مقاهينـا التى ينتشر فيها البصـاصين ، وهنا بـلاد أجنبية ، وأنـا أجنبى فيها ، ولغتى بالتأكيد غير مفهومة إلا لمن يعرفها ، ومشكلتى أننى لا أستطيع الهمس ، فوجئت بصديقى العربى يقول لى ..

ـ خللى بالك ..

وتساءلت :

ـ من ؟

قال محذراً ..

ـ فى هذه المقاهى من يصغى .. ثم يكتب التقارير ..

وصحت مغتاظاً ..

ـ هنا أيضا ؟!

من الـواضح أن أشهر المقاهـى الباريسية يستمـد قيمته من التـاريخ ، من الكتاب والفنـانين ، والتاريخ هنـا قشرته رقيقة ، ولـلأسف ينقصنا فى بـلادنا الوعـى به ، فى بدايـة ١٩٦٩ أصدر محافـظ القاهرة قـراراً أحمق بهدم مقهى الفيشـاوى القديـم ، وتحول المقهى العريق إلى مسخ شـائه الملامح ، وفى هـذه الأيام تجهـز المعاول على مقهى ماتـاتيا بميدان العتبـة حيث كان يجلس جمال الديـن الأفغانى ، وسعد زغلـول ، والشيخ محمد عبـده ، وتحول معظم مقهى عرابى فى العبـاسية إلى بوتيك ، واندثرت مقـاهى أخرى هامة ، فى الـوقت الذى بـدأت تنتشر فيه دكـاكين أشبـه بـالمقابـر مكيفـة الهواء ، ألـوانها صارخـة ، ومناضـدها متقـاربة ، وتتردد فى أرجائهـا أنغام الديسكـو الصاخبـة ، وهذه المحلات بـدأت تظهر فى بـاريس ، محلات السندويتشـات السريعة ، إنـه تأثير الحياة الأميركية ، لكنـه مكروه هنا ، وينتقد بشدة ، أما نحن فى القـاهرة فنقلده تقليداً أعمى ، المشكلة ، هى الوعى بالتاريخ .

* * *

كنت أقف على رصيف المترو ، عندما ظهر فجأة قبل الرصيف بمسافة قليلة، بينما يمتد النفق المظلم فى جـوف الأرض إلى مسافات بعيدة ، العجـلات مغطاة بطبقة من الكـاوتشوك حتى يخفف من تأثير الضـجة التى تحدث عنـدما تحتك بالقضبـان لكن عند إقترابـه يصدر عنـه صوت ثقيل الوطأة ، يتـوقف ، تفتح الأبواب ، أسرع بالصعـود إلى العربة ، آملاً فى الجلـوس ، ولكننى أرى عدداً من المقاعد الخالية ، وكثرة من الواقفين ، فى المرات الأولى جلست ، ولكننى لم أشعر بعـد ذلك بـالحاجـة إلى الجلـوس إلا إذا كنت متعبـاً ، فى المترو يجلس أو يقف الجميع ، محملقين إلى الأمام ، الأحاديث المتبادلة نادرة ، الجميع صامتون ، وفى خضم هذا السكون الآلى نجد رجل وامرأة إنهمكا فى عناق محكم وقبلات طويلة

«يعنى حبكت» ، وأعجب من هذه القبلات الطويلة وهذا الهدوء الذى يظل يكسو وجهى الرجل والمرأة على السـواء ، بينما لو وقفت عنـد بداية هـذه القبلة فقط فيستشتعل كيانى الجسدى بالنار فوراً ! .

بمجـرد أن يفتح الباب ، ينـدفعـون كأن آلات خفية مخبأة فى أجسـادهم ، الخطى سريعة ، إيقاعهـا متشابه ، نفس الإندفاع إلى السـلالم المتحركة ، حيث تؤدى الممرات إلى خطوط مترو اخرى ، أو إلى سطح الأرض ، أرى أحياناً بعض العازفين ، كمان أو جيتار فى الأغلب ، يؤدون بعض المقطوعات ، ثم يمرون على الـركـاب ، يمدون كيسـاً صغيراً من القماش لتلقى قطع معـدنيـة صغيرة ، فى خطوط المترو الباريسية يبدو التقسيم الطبقى واضحاً والذى يجعل من باريس عدة مـدن فى مدينـة واحدة ، لاحظت أن عـربات المترو التى تعمـل على خطوط الأحياء الأنيقة أحدث طرازاً ، وأنظف ، وأوثر ، أمـا العربات التى تمر بالأحياء الفقيرة ، فمن طراز متخلف ، وتبدو أكثر قذارة ، وتعمل هذه العربات على الخط الذى يمـر بمحطة بـاربا س حيث يـوجد تجمع للعمال الجزائريين والمغـاربة الفقراء ، وتتغير أيضـاً نوعية الركـاب فى خطوط المترو طبقا للأحيـاء التى يمر بها، ويبـدو التقسيم الإجتماعى الحاد هنا أيضـاً من خـلال التجول فى أحيـاء المدينـة ، فى منطقة بلفيل الفقيرة حيث ولـدت اديث بيـاف المغنية الكبيرة تـرى الـوجوه غير حليقـة اللحى ، والقمامة فـوق الأرصفـة ، والسحن متعبة ، هنـا يتواجد العمال المهاجرون من بلاد عديـدة ، خاصة شمال افريقية ، وهنا أيضاً يتواجد عدد كبير من اليهود ، أمـا فى باربا س التى تقع على بعد عشرات الأمتار من البيجـال ، حيث المولان روج ، ودكاكين الجنس ، وحـانـات الدعـارة ، حى تجارة الجسد ، فى باربـا س يتدهور المستوى الإجتماعـى إلى حد كبير ، سكان المنطقة أغلبية من الفقراء ، وإلى أعلى ، تطل على المنطقة كنيسة القلب المقدس التى تشرف أيضـاً على حى مـونمارتر ، حى الـرسـامين ، وهكذا تتجـاور المنـاطق الفقيرة والغنيـة فى بـاريس ، ولكن ثمـة خط غير مـرئى يفصل كل منطقـة عن

الأخرى ، وإن لم يمنع هـذا تداخلهم أحياناً ، ذات ليلـة فى شارع الشانزليـزيه أشهر شوارع الدنيا ، فى خضم المارة وإعلانات السينما ، وتلؤلؤ الأضواء رأيت رجلاً عجوزاً يبحـث عن بقايا طعام فى إحدى علـب القمامة ، وفى محطات المترو خاصة فى الليل ، يتمدد الكثيرون فوق المقاعد المتجاورة ليقضوا ليلهم ، وهؤلاء إما أغراب بلا مأوى ، أو من هذه الطائفـة التى يسمونـها هنا «الكوشار» ، وهم يعيشون فى انفـاق المترو ، وانفاق المجارى ، فى محطـات المترو يصبح الشعور بالأمان ضعيفاً ، خاصة فى الليل ، فوق الأرصفة شبه الخالية إلا من المتسكعين أو فى تلك الممرات الطويلة ، الملتويـة التى تصل الأرصفة ببعضـها ، ويتضاعف هـذا الإحساس بـالنسبة لـلأجنبى ، ويتعاظم عنـد الأجنبى القادم من العـالم الثالث ، تـذكرت مـا جرى لى فى لنـدن ، عندمـا كنت متجهاً إلى منـزل الصديق مجدى نصيف ، والـواقع فى ضـاحيـة هييز قـرب المطـار ، يبـدو اننى شردت بتفكيري ، فنزلت من القطار فى محطة (ساوث هول) التى تسبق (هييز) ، ولأن محطـات القطار متشـابهة ، والشوارع المؤديـة إليها أيضـاً ، فقد خـرجت من محطة القطار ، ومشيت ، وطال مشيي بدون أن أصل إلى منحنى ، كنت احتفظ بمعالمه جيداً ، ثـم لاحظت أن الوجوه متغيرة ، فمعظمها لهنـود وباكستانيين ، وأدركت اننى ضللت الطريق ، دخلت إلى كشك التليفـون ، الأحمر ، الحديدى ، وبدأ عبر الأسلاك أصف للصديق مجدى المنطقة التـى أتواجد فيها ، وفوجئت به يقول :

ـ مـا الذى ذهب بك إلى سـاوث هول ، إنها منطقـة صراع عنصرى حاد بين الملونين والبيض .. وكانت مسرحاً لاشتباكات عنيفة منذ اسبوعين ..

وتذكرت ما قرأته فى الصحف عن مقتل البيض ، وجرح الآخرين ، واشتعال الحرائق ، وعندئذ قلت لمجدى ..

ـ خذ عـربة أجرة وتعال إلى ساوث هـول .. وحتى ذلك الحين لن أخرج من كشك التليفون ، خـاصة وإننى ألاحظ بعض البيض ينظرون إلىّ شـزراً خارج الكشك ..

وضع مجدى السماعة ، واستمريت فى التظاهر بأننى أتكلم ، وأشير بيدى ، وأضفى تعبيرات مختلفة على وجهى ، بينما النظرات تتزايد تجاهى فى الخارج ، وكلهم بيض ، وعندما لمحت مجدى فى السيارة خرجت ، وبالطبع كان الواقفون ينتظرون أن يتحدثوا فى التليفون ، والبعض يتسكع ، قلت لنفسى .. ولو .. لكن الاحتياط واجب ! ، وفى باريس ، أو لندن ، كنت ألاحظ أننى عندما أسأل أحد المارة عن شارع قريب ، كان يقف ويفكر طويلاً ، ثم يعتذر بأنه لا يعرف ، أو يخرج الخريطة من جيبه وبعد تدقيق كبير اكتشف أن الشارع الذى أسأل عنه على بعد خطوات ، وتذكرت فتاة إنجليزية سألها أحد زملائها عن حاصل ضرب ٥×٦ ، فأخرجت الآلة الحاسبة ، وبدأت تضغط الأزرار ، تذكرت ابن البلد فى مصر عندما تسأله عن شارع معين ، فيصفه لك بدقة إذا كان يعرفه ، وقد يسألك (عايز مين هناك؟) ، وإذا ذكرت له ، تكتشف فى معظم الأحيان أنه يعرفه، أعتقد أن دخول الآلة إلى الحياة الغربية ، بدأ يضفى نوعًا من الكسل على ملكة التفكير ، وشيئاً فشيئاً تنوب عن العقل الإنسانى ، آلة حاسبة ، وآلة تدفع اليها بالعملة فينزل منها المشروب الذى تريده ، وآلة تدفع إليك بتذاكر المترو ، وآلة تقدم لك الساندويتش ، وآلة أخرى لزجاجات الكوكاكولا ، وتتدرج الآلة حتى تصل إلى تلك العقول الالكترونية التى تدير كل شىء فى المفاعلات الذرية ، وتصلح الخلل فى الطائرات الجبارة أثناء الطيران .

* * *

الكونكورد ، من أجمل ميادين العالم وأفسحها ، تتوسطه المسلة المصرية المشهورة ، استقرت فى معبد الأقصر لمدة ثلاثة آلاف وثلثمائة سنة ، ثم اختلعت فى عهد محمد على باشا ، وأهداها إلى شارل العاشر ملك فرنسا فى عام ١٨٢٩ ، وأقيمت فى باريس فى عهد الملك لويس فيليب ، تزن مائتان وعشرين طناً من الجرانيت ، وعلى قاعدتها رسم مذهب يوضح الطريقة التى نقلت بها عبر البحر، المسلة هى مركز الميدان ، وإذا وقفت خلفها ونظرت اتجاه قوس النصر ،

عبر شـارع الشانـزليزيـه الشهير ، ستجد أن كـلا الأثرين الهامين ، القـوس ، والمسلة يقعان على خط واحـد ، يبدأ الطريق صعوده من أمـام المسلة ، وينتهى عند قـوس النصر ، الذى يـلامس زرقة السماء ، فيبـدو من هنا وكـأنه بـوابة مؤدية إلى الـلا نهائية ، أطوف بالمسلـة ، وأتذكر بأسى أحوال آثـارنا المهملة فى مصر ، والتفـريط فيها ، وتبـديـدها ، فى المتحف البريطـانى تـوقفت فى متحف الإنسـان بباريس توقفت مدداً أطول ، أمـام المومياءات الفرعونية ، التى كشفوا عنها أغطيـة التوابيت وبـدت الأربطة الكتـانية ، والجلـد البشرى ، فى نفس هذا المتحف ، رقدت موميـاء ملك مصر رمسيس الثانى ، عندما فـرط فيها رئيسـها السابق ، وأمر بقرار منه بسفرها إلى باريس بحجة العلاج ، وفى إحدى الغرف التى تقع فى هـذا المتحف دخل موشى ديـان وزير حـرب العدو الاسرائيلي على مومياء رمسيس الثانى ، ولا أدرى ماذا فعل ، ولا أى شىء قـاله ، ما أعرفه أن اليهود يظنون أنه هو الملك الذى أخرجهم من مصر ، وعادت المومياء إلى مصر ، وحتى الآن لا يدرى أحد ماذا جرى لها بالضبط ؟

توقفت أمـام المومياءات المصريـة فى متحف اللوفـر ، هل كان هـذا الإنسان الذى عـاش منذ آلاف السنين ، ثم انفق أهله على تحنيط جسده مـا انفقوا ، هل كان يظن أنه سيعـرض يوما فى لندن ، فى بـاريس ، فى بودابست ، فى الارميتاج بلينجـراد ؟ عندمـا مات لم تكن هـذه المدن قـد ظهرت إلى الـوجود بعـد ، ومن يدرى.. ربما توقف طويلاً أحد أحفاده أمام مـومياته ، تأمل باعتباره سائحاً ، ثم مضى ، إن رؤية الأثـر الذى ينتمى إلى بلدى فى مدينة أجنبيـة تضفى أبعاداً عديدة على تلك الرؤية ، توقفت طويلاً أمام تمثال صغير من الخشب لأم مصرية تحتضن طفـلاً ، التمثال لا تجاوز طـوله عشرون سنتيمتراً ، لكنـه آثار عنـدى الحنين إلى الأمومـة كما عرفتها ، وكما رأيتهـا على ضفتى النيل ، لكم حزنت فى البداية وأنا أتأمل تلك التحف الرائعة التى نهبت منا ، وتذكرت حملة اليونسكو لاعادة هذه الآثار إلى أصحـابها ، ومن حنقى وغيظى هلى ما يجرى لآثارنا من

تلف ، وسرقة ، واهداءات ، لشدة حنقى ، فقد قلت لنفسى ، إننى ضد حملة اليونسكو هذه ، إن الآثار لمن يحفظها ويصونها وليست لمن يملكها . للأسف وصلت إلى هذه الدرجة من اليأس وأنا أتجول فى اللوفر ، ومتحف الإنسان ، بباريس .

أعاود النظر إلى المسلة المصرية فى ميدان الكونكورد ، الميدان فسيح ، وكثير من الذين يمرون فيه ، قد لا يعلمون إنه كان من أشهر ميادين الثورة الفرنسية، شهد الميدان زواج لويس السادس عشر ، ومارى انطوانيت ، وفى يوم الأحد ٢١ يناير عام ١٧٩٣ ، نصب الجيلوتين فى نفس الميدان ، فى موقع أحد التماثيل التى تقف الآن وإليه ساقوا الملك لويس السادس عشر عبر الشارع الملكى ، وبخطوات بطيئة صعد سلالم الجيلوتين ، ويقال أنه لفظ عدة كلمات تعنى (يا شعبى ، أنا برىء من كل الجرائم التى اتهمت بها ، دمائى من أجل سعادة فرنسا) ، وفى نفس الموقع قطعت مئات الرءوس ، منها رأس مارى انطوانيت ، مدام بارى ، وشارلوت كورداى ، ودانتون ، ومدام رولاند ، وروبسبير ، خلال هذا الزمن البعيد ، كان أشهر صوت يسمع فى الميدان ، صوت نزول المقصلة ، تفصل الرقاب عن الأجساد ، الآن ، يموج بجميع أجناس الأرض ، وخطو العشاق ، وانبهارات السائحين ، من ميدان الكونكورد ، تبدأ حدائق التوبلدى ، ولأن اللون الأخضر يتقلص فى عواصم بلادنا ، وتحل محله مواقف السيارات ، فقد قضيت وقتاً طويلاً فى حدائق باريس ، حدائق التويلدى، وحديقة النباتات التى يوجد بها متحف كبير جمع نباتات الأرض كافة ، وحديقة البالاس رويال الرقيقة التى تقع قريباً من متحف اللوفر ، حديقة رقيقة ، لأشجارها خضرة زاهية ، تتوسطها نافورات صغيرة ، ويخيم عليها هدوء معقم ، أما أرضها فتغطى بحصى صغير ، وحديقة اللوكسمبورغ فى حى السان ميشيل ، وهذه الحدائق الصغيرة التى تتخلل البيوت ، والشوارع، حيث الأرائك لراحة المارة ، والتى لا تخلو من العجائز ، الرجال والنساء ، يقضون

الساعات الطوال ، ويحملقون فى الفراغ ، ويصحبون كلابهم فى هذه الحدائق الجميلة ، والملاحظ هنا ذلك التدليل الذى تحظى به الكلاب ، والعناية ، والحرص الشديد على اصطحابها لتنسم الهواء عصر كل يوم ، وأن كان ذلك يعكس فى رأيى الاحساس بالوحدة الإنسانية الشديدة ، الحياة ايقاعها سريع ، والدقيقة هنا لها ثمن ، حتى دعوات العشاء ، تتم لمصالح معينة ، للتعرف ، لعقد الصفقات ، أتذكر صديقاً عربياً يقيم فى لندن منذ سنوات ، وكان له محاولات لتكوين نشاط مسرحى ، فى أحد الأيام دعا مخرج مسرحى إنجليزي إلى الغذاء ، وقبل المخرج الدعوة ، وكان الهدف عملياً بالطبع ، إلا أن صديقى أمسك بالتليفون فى الصباح الباكر وأجرى أكثر من عشرين مكالمة ، وكان فى بداية كل منها يقول «أصلى أنا عازم النهارده المخرج .. على الغذاء» وشعرت بالفضيحة للرجل الإنجليزي ! كثيراً ما كنت أرقب إمرأة عجوز أو شابة ، رجل ، فى تلك الحدائق يجلس صامتاً محملقاً إلى فروع الأشجار ، فى صمت تام ، ثم يمضى بدون أن يتحدث إلى إنسان ، فى هذه الحدائق ، وفى الخريف ، حيث اللون الأصفر يتسرب إلى أوراق الشجر ، بينما ضباب خفيف يتخلل الفراغات ، وقد تسرب إلينا مثل هذا المناخ فى السبعينيات بعد بدء ما يسمى بسياسة الإنفتاح الإقتصادى ، وبدء تغير القيم فى المجتمع ، حتى أواخر الستينيات كنا نجتمع فى مقهى لمناقشة كتاب ، أو للسهر حول موضوع معين ، أو للصحبة ، وأذكر ليالى عديدة قضيناها فى مقهى الفيشاوى ، وكان عدد الموجودين يتجاوز العشرين ، منا كتاب القصة ، والشعراء ، والنقاد ، والصحفيين ، وكان المناخ حميماً ، والصحبة عميقة ، الآن اختفى هذا ، انشغل كل واحد عن الآخر بالجرى وراء الرزق ، الحياة أصبحت صعبة ، وبدلاً من الجلوس إلى أحد الأصدقاء وإنفاق الوقت فى الحديث ، لماذا لا يكتب موضوعاً يقدمه إلى أحد الدكاكين التى تمول الصحف والمجلات ، لماذا لا ينجز عملاً يكسب منه قرشين ؟ ، أحد الأصدقاء قال لى : «إن ساعتى الآن تساوى خمسين جنيهاً ، فلماذا أضيع هذا المبلغ فى

جلسة ثـرثرة؟» ، هكـذا تتبدل القيم ، وهكذا يصبح المال مقيـاسـاً وبـديلاً لكل شىء ، حتى الصداقة ، والعواطف ، وهذا جـانب سلبى من الحياة الغربية وفى هذا التقدم فى العمر ، فى باريس لازال بعض الأصدقاء المصريين الذين يعيشون هنا منـذ سنوات يحتفظـون بالـزمن العربى الجميل فى أعماقهـم وفى حياتهم ، ويبدو التناقض واضـحاً فى أسلوب الحياتين المتجاورتين ، فى منزل الصديق علي الشوبـاشي الكاتـب والصحفى بوكـالة الأنبـاء الفرنسيـة تبدأ السهـرات بعد التـاسعة ، وفى نفس الـوقت أسمع إصطـدام الملاعق بـالأطبـاق فى السابعـة ، أصوات العشاء عند الأسر الفرنسية ، حيث ينام الجميع مبكرين ، وإذ نبدأ نحن سهـرنا ، وتعلـو أصواتنـا بـالحديث ، يشير علي الشوبـاشي قائلاً : إخفضـوا أصـواتكم ، إن الجيران نـائمين ، ونـوم الجيران يجب أن يحترم ، فـلا ضحك بصـوت عـال ، ولا مشى إلا على أطـراف الأصابع ، وفى بعض المنـازل التى تـرن فيهـا الجدران يصبح الاستحمام بـالدش فى المسـاء أمـراً صعبـاً ، لأن الجيران من حقهم أن يستدعـوا البوليس لمعـاقبة مصدر الضجـة ، وفى إحدى المرات طلب جار فرنسى من صديق عـربى يسكن فوقه أن يخفض من صوت سعالـه لأن ذلك يقلقه ، الكل ينـام مبكراً ، وفى ساعـة محددة ، أحد أصـدقائى الفرنسيين دعـوته إلى سهـرة مع أصدقاء عـرب ، وبعد الساعـة التاسعـة بدأ يتثاءب فى الوقت الذى كنا نبدأ فيـه السهرة ، المهم أنه صمد حتى الثانية عشر ، وفى اليوم التالى قابلته فى الثانية ظهـراً ، كنا نقصد إحدى المكتبات ، وإذا بعينيه حمراويتين ، ورأسـه مصدع ، ولا يقـدر على المشى ، ظننتـه مـريضاً ، ولكنـه أخبرنى أن سهرة الأمس آلمتـه ، أرهقته ، سألته عن عدد السـاعات التى يعمل خلالها فى الاسبـوع ، فقال ، عشرين ساعـة ، موزعة على خمسة أيـام ، وهناك يومين عطلـة ، السبت والأحد ، وتـذكرت سهـرنا ، وسـاعـات عملنا الطـويلة ، والليالى التى نقضيها بلا نوم ، طبيعة الحياة هنا ، والجرى المستمر ، وإنشغال كل إنسان بـذاته ، يضفى هـذه القشرة السميكة على الـوجوه، تلك القشرة التى

أراها فى المترو ، وفى المكاتب ، وفى دور العمل ، وفى الشـوارع ، وفى وجوه هؤلاء الذين استعاضوا برفقة الكلاب عن البشر ، وقد يبدو الإنسان الأوروبى للوهلة الأولى فظاً ، قاسياً ، ولكن إذا استطعت أن تنفذ عبر هذه القشرة ، وهذا صعب ، فستلمس الأعماق الإنسانية الحقيقية ، لكن هذا يقتضى زمناً ، وتجربة ، وطول معاشرة ، بينما نجد الأمر عكس ذلك فى عالمنا العربى ، لهذا كنت أجاور دائماً الأصدقاء المنبهرين بالغرب ، وأقول لهم إن الركائز الحضارية عندنا أقوى ، وأعمق ، ولكننا حتى الآن لم نجد الصيغة التى نزاوج فيها بين هذه الركائز ومنجزات الحضارة الغربية ، وتبقى الوحدة أصعب ما يعانيه الإنسان هنا .

فى حدائق باريس ، كثيراً ما كنت أرقب امرأة عجوز ، و شاب أو رجل ، فى تلك الحدائق يجلس صامتاً ، محملقاً فى الفراغ ، الصمت تام ، والجسور مقطوعة ، فى الخريف حيث اللون الأصفر يتسلل إلى أوراق الأشجار ، بينما ضباب خفيف يتخلل الفراغات ، وتكتسب الأشياء لون الحلم ، وأضع يدى على مصدر الاتجاه التأثيرى فى الرسم ، اتذكر لوحات سيزان ، وبيسارو ، وفان جوخ ، التى توقفت أمامها طويلاً فى متحف الإنطباعيين ، تماماً كما ذكرتنى وجوه الغانيات فى البيجال بلوحات تولوز لوتريك أقرب الفنانين الفرنسيين إلى نفسى ، وهنا يبدو الفن إنعكاساً صادقاً للواقع ، فى هذه الحدائق رأيت الأصل الواقعى للعديد من تلك اللوحات ، وفهمت أيضاً أسرار عزلة الفن التشكيلى فى وطننا العربى ، عندما نقل بعض الفنانين هذه المذاهب الفنية وقلدوها بشكل ميكانيكى ، وأغلقوا العناصر المحلية ، والتراثية ، فى واقعنا ، ويستمر رحيلى عبر الحدائق الفرنسية ، غابات بولونيا ، وتلك الضيعة الجميلة التى تقع فى الريف الفرنسى القريب من باريس ، ضيعة (المولان) حيث توجد أقدم طاحونة مائية على نهر السين ، ومجموعة من البيوت الخشبية الجميلة ، تملكها مركيزة حقيقية ، أى تنحدر من أسرة أرستقراطية قديمة ، المكان جميل ، أنفاق من الخضرة ، وأشجار متشابكة ، وسلالم حجرية منحوتة فى الحجر ، وثمار

الكمثرى ملقـاة على الأرض ، لا تجد من يتناولها ويأكلهـا ، ونـهر السين يتدفق مستكيناً ، هادئاً ولكن ليس فى هيبة النيل ، ولا فى عنفوان دجلة ، تأملت الطبيعة الجميلـة ، وقطـرات الندى التى تبلل أوراق الأشجـار ، وأسراب الطيـور التى تتجمع فى السماء لتهاجر إلى بلادنا نحن حيث الدفء والشمس .

قلت لصـديقى نبيل درويش ، المذيع بإذاعـة مونـت كارلـو ، الفلسطينى ، والذى يعيش منذ سنوات طويلة فى باريس ، يحمل فى عينيه حزناً دفيناً ، بالغاً ، ويدارى ما يشعر به من مأساة ، بـرغبة عارمة فى الصعلكة ، والتصعلك .. قلت له :

ـ إذا كانت بـلاد هؤلاء القوم بهذا الجمال ، فلماذا تركوهـا وسرحوا علينا ، وعلى آسيا ، يحملون الموت والخراب ؟

وضحك نبيل !

* * *

.. فى باريس التقيت بـالدكتـور مصطفى صفوان ، عـالم النفس المشهور ، وصاحب السمعـة العالمية الناصعـة ، تأملت ملامحه العربية ، وأسلـوب نطقه للغة العـربية المشبع بروح إسكنـدرانية لم تتغير برغم السنـوات الطوال التى قضاهـا فى باريس ، وتذكـرت أننى فى أواخر الخمسينيات ، وقع في يـدى كتاب تفسير الأحلام لسيجمـوند فرويـد ، كان مترجماً إلى العربيـة ، صادراً عن دار المعارف ، استعـرته من دار الكتب المصريـة ، كان الكتـاب ضخماً يقع فى حوالى ستمائة صفحة ، وكان ثمنه مائة وخمسون قـرشاً ، وكان سعراً رخيصاً جداً بمقاييس أيامنا الحاليـة ومرتفعاً جداً بالنسبة لإمكـانياتى وقتئذ الكتاب تأثيراً عميقاً ، أردت اقتناءه .. ولما كان ذلك أمراً صعباً ، فقد قررت أن أنقله ، وبالفعل نقلت الكتاب كلمـة ، كلمة ، حتى الهوامش ، وها هى الأيام تـدور ، وأتعرف إلى الدكتور صفوان فى باريس ، الرجل الذى أصبح العلم بمثابة وطناً له ، فى إحدى الأمسيـات اصطحبنى إلى مطعم أنيق ، عتيق ، ولاحظت أن الخدم يعـرفونـه ،

ويحبونــه بود كبير وجاءت قائمــة الطعام ، ولاحظت أنه عنــد الإختيار تحدث مناقشة طـويلة بين الجرسون والزبــون ، مناقشة حول نــوع اللحم ، ودرجة شيه ، وشكل تقديمه ، ويكتسب وجه الجرسون تعابير جادة أثناء المناقشة ، ثم يبدأ تقديـم الطعام ، وقبله النبيذ ، والنبيذ الفـرنسى أنواع لا حصر لها ، ولكن هناك النبيذ الذى يقدم قبل الطعام ، ويكون بمثــابة الإفتتاحية ، ثم النبيذ الذى يشرب أثناء الأكل ، ورأيت الجرسون الأنيق يأتى بزجاجة فاخرة ، يفتحها بعد عملية معقدة بواسطــة فتاحة خاصة ثم يصب منها فى كـأس الدكتور صفوان مقداراً صغيراً ، وهنــا يتعين على الزبــون أن يمسك الكأس بين إصبعيه الإبهام والسبــابة ، يـرفعه ببطء إلى شفتيـه ، ثم يتذوق المشروب على مهل ، ويتـوقف هنيهة ، ثم يومئ برأسه إذا أعجبه ، وعندئذ يملأ الجرسون الكأس إلى الحافة ، وإذا بـدا الإمتعاض يبـدل الـزجاجـة بأخرى ، وعنـدمـا جاء دورى ، غمـزت للجرســون بعينى ، أن يملأ الكأس ولا داعى لهذه الطقـوس التمثيلية ، لم أكن مقتنعاً بأن الـزجاجة ستتغير بعـد فتحها ، ومن سيتحمل ثمنهـا ، غير أنه ظل واقفاً كجلمـود صخر حط من عـل ، لم يفهم المداعبة ، عنـدئذ إضطررت إلى أن أرفع الكأس بمهل عظيم ، ثــم أتـذوقــه على مهل أشــد ، ثم أهــز رأسـى فى أنــاة موافقاً، بعـد إنتهاء الطعام يجىء لوح من الخشب يشبه «قـرمة» الجزار ، عليه أنواع شتى من الجبن ، والجبن الفـرنسى أصنافة عديـدة ، قال شارل ديجول يوماً ، كيف أحكم شعباً يأكل ثلاثمائة نوع من الجبن ؟ وهنا يبالغون فى مسألة التغليف ، قطعة الجبن الصغيرة التى تأكل بلقمتين من الخبز تجدهــا ملفوفة فى البلاستيك ، ثم ورق معدنى شفاف ، أمــا السندويتش السريع فيوضع فى علبة أنيقة من مــادة تشبه الفبر ، وكثيراً ما كنت أتخيل هذه العلبــة فى متناول إحدى نســاء بلدتنــا القرويــات ، كانــت ستحتفظ بها وتضع داخلها إبـر الخياطــة ، والكستبان ، وبعض العمــلات المعدنيــة ، جميع الفوارغ هنــا تلقى فى الزبــالة ، زجاجات المياه الغازيــة الضخمة ، لا وقت لاعادتها ، وفى صناديق القمامة تجد

أشياء لها العجب ، تليفزيون ملـون ، ماكينة خياطة ، حقيبة فـارغة ، أو ثلاجة بأكملها ، حذاء أنيق ، أى عطب يدفع بصاحب الشـىء إلى التخلص منه ، لا يوجد من يصلح ، الأسـهل ان يشـترى آخـر بديـلاً عنـه ، فى باريس لاحظت أن وهنـا أصاب حـذائى ، وسألت عن اسكافى قريـب ، وضحك صديقى ضحكة عـالية ، يوجد اسكـافى واحد فى منطقة تبلغ فى مساحتها منطقة الـزمالك ، وهو يمارس عمله ببطء شديد ، والحذاء يستغرق اصـلاحه شهرين ، وقد يقف بعض المارة للفرجة عليـه باعتباره أثرا متخفيا من الماضى ، هـذه إحدى خصائص المجتمع الاستهلاكى ، عدت أنظر إلى الدكتور مصطفى صفوان ، أتأمل وجهه ، وأتذكر الأيام الطوال التى قضيتها أنسخ الكتـاب الذى ترجمه هو، غير أن مانغص علىّ هـذه السهـرة ، تفكيرى المستمـر فى معطفى ، فعنـد دخـولى المطعم ، انحنى لى الخادم انحناءة عميقة ثم أقبل يساعدنى على خلع معطفى ، وأخذه منى ، وكنت قد تركت محفظتى التى تحوى كل ما أملك وجواز السفر ، داخل جيب المعطف ، إلا أن خجلاً منعنى من سحبها أمام الخادم ، ربما يكـون ذلك مخالفاً للأصول ويعنى اتهاما غير مبـاشر ، على اية حال فى نهايـة الليل وجدت المحفظـة وجواز السفـر فى باريس تعـرفت إلى الـدكتور جمال الـدين ابن شيخ ، أستـاذ الأدب العربى بجـامعة باريس الثامنـة ، تعرفت إليه بعد أن علمت انـه اختار روايتى (الزينى بركات) للترجمة إلى اللغة الفـرنسية ، ولم يكن قد التقينا من قبل ، أنه جزائرى الأصل ، من الشعراء المرمـوقين الذين يكتبون باللغـة الفرنسية ، كما أنـه يتقن اللغة العـربية اتقـاناً رفيعـاً ، وهمه الأكبر ، تقديم الأدب العـربى إلى القـارئ الفـرنسـى ، أنـه واحـد من العلماء العـرب الـذين لم تهن روابطهم بجذورهم ، بل على العكس ، وفى مقابلة تذكرت كاتب عربى اضطر إلى الاقامة فى باريس ، التقيت به فى إحدى العواصم العربيـة ، كانت غرفته إلى جوار غرفتى ، ولاحظت منذ الـوهلة الأولى أنه طلق الـوطن من داخله ، وإن كـان يبدى بعض الملاحظات التى أعتبرهـا من الحنين المسكن ، أو الحنين المظهرى ، طـرقت باب

غرفته يوماً فقال بالفرنسية ـ انتر (ادخل) قلت ربما إعتاد لسانه الفرنسية مع أننا فى بلد عربى ، وفى اليوم التالى كنا نجلس بينما تدور المناقشات، وفجأة قال معـربأ عن دهشتـه : «أو .. لا لا لا ..» وهو تعبير فـرنسى عن الـدهشة ، فيـه بالنسبـة لى ميوعة ، وعندمـا أسمعه خاصة من عـربى استهجنه، البعض ممن قابلتهم إنغمس تماماً فى الحيـاة الفرنسية ، وأصبحت إهتماماتهم بما يجرى فى الوطن الأم مثل إهتمامات صحفى فى اللوموند ، إهتمامات خواجا ، والبعض لا يبدى اهتماماً ، حدث أن دعانى أحد هـؤلاء مرة إلى الغداء فى بيته ، وذهبت إليه بصحبة صـديقة تتأجج روحهـا بالإنتماء العـربى برغم إقـامتها الطـويلة فى فـرنسا ، وتـربطها بهذا الشخص صـداقـة عمر ، ونتيجـة لجهلى بالشـوارع الباريسية وصلت إليها متأخراً عن مـوعدى عشر دقائق ، وبدت قلقة، قالت إن صاحبنا هذا سيغضب لأننا سنصل إليه متأخرين ، وقلت لها إن ذلك مستحيل تصوره بالنسبة لى ، لأن الرجل هو الذى أصر على الدعوة ، ولأننا نذهب إليه فى بيتـه وليس إلى الشـارع ، ثم إننى متنـازل عن بعض عاداتى ، لأننـا فى مصر لا نتناول طعام الغداء قبل الساعة الثالثـة أو الرابعة ، والساعة الآن الثانية عشرة والنصـــف ، وهو ميعاد غذاء الباريسيين ، وصلنا إلى البيت ، وقرعنا الجرس ، إلا أنه رفض أن يفتح لنا الباب لأننا تأخرنا حوالى ثلث ساعة، وكادت صديقتنا أن تجن غضبـاً ، واعتبرت أن هـذا قلـة ذوق ، وجليطـة ، كـانت هى المقيمـة فى فرنسا منذ سنوات تتلقى ذلك بـرد فعل يتفق مع نشأتها والحياة التى عاشتها ونمت خـلالها جذورهـا ، وكان الآخر يتصرف كخـواجة فـرنسى ، كثيرون ، كثيرون ، أولئك الذين قابلتهم يحملون الوطن بداخلهم ، ومعظمهم ارغموا على تـرك أوطانهم الأصليـة ، أو اضطرتهم الظـروف المعيشيـة ، من هؤلاء اذكـر الكاتب المصرى المشهور محمود السعـدنى ، إنه يسكن فى لندن عمارة ضخمة ، فى شقـة صغيرة بها ، وإذا كانت العمارة تقع فى منطقـة انجليزيـة أنيقة جـداً ، ومدخلهـا لا يفتح إلا بواسطة ميكرفـون متصل بكل شقة ، وسلالمهـا مكسوة

بالسجاد ، ويتصدر المدخل بواب انجليزى يشبه مستر هدسون فى المسلسل الإنجليزي المشهور «الناس اللى فوق والناس اللى تحت» ، إلا أن شقة محمود السعدنى تقع فى ميدان الجيزة ، تفتح الثلاجة فتج ملوخية خضراء ، طازجة لا ندرى من أين حصل عليها فى لندن وفول مدمس ، وعلى الجدران صور للأهرامات ، وسيدنا الحسين ، وفوق أريكة عريضة يجلس السعدنى فى جلباب أبيض وكأنه يجلس فى قهوة عبد الله ، وإذا أراد أن يشترى لحماً ، يركب المترو لمسافة عشر كيلو مترات إلى جزار مصرى يعلق الذبيحة تماماً كما تعلق الذبائح فى مصر ، ويقف السعدنى يشير إلى الفخذ أو الضلوع ليقول : اقطع لي من هنا .. أو هات هذه القطعة ، ويرفض أن يشترى اللحم المعبأ فى أكياس من السوبر ماركت الإنجليزي ، أما اللحظة التى أعول همها فهى لحظة مصافحتى له قبل السفر عندما يهتز جسد السعدنى كله فى بكاء فظيع ، ويرجوك أن تذهب إلى سيدنا الحسين ، لتقرأ الفاتحة ، وتذكره بمقهى الفيشاوى .. حقاً ما أقسى الغربة [1] .

النموذج المقابل ، فتى فى السادسة عشر ، سنوات تكوينه عاشها فى باريس ، طالب فى أرقى المدارس الثانوية الفرنسية ، ومع ذلك فإنه رافض تماماً للحياة فى فرنسا ، ويريد أن يعيش فى مصر ، وفى الإجازة الصيفية يسأله والده ،

- أين تريد قضاء الإجازة .. فى سويسرا ، أم ألمانيا أو مصر .

ويجيب :

- فى مصر ..

وفى مصر أرقبه ، أرقب نبيل الشوباشى ، حيث تتحسن صحته فى الصيف القاهرى القاسى ، ويبدو منطلقاً ، يفيض بالحيوية ، أرقبه وأحاول أن أتلمس

---

(١) عاد محمود السعدنى إلى مصر فى مطلع الثمانينات .

جذور هـذا الانتماء القوى ، تلك الجذور غير المرئيـة فى هذا الفتى المصرى الذى رضـع اللغة الفـرنسية مع اللغة العربيـة ، وعاش سنوات مراهقتـه فى باريس ، ومع ذلك تعلق قلبه بفتاة بالقاهرة [١].

فى باريس واحات عربية عديدة ، أعرج عليها فى تجوالى الطويل ، منها مكتب الصديق الصحفى محفوظ الأنصارى مديـر مكتب وكالة الأنباء القطرية ، وفى المكتب الذى يقع فى الكى دورسيـه والذى أسميه أنا كـورنيش النيل ، لأنه يطل على السين مباشرة فى أجمل موقع بباريس ، يلتقى الصحفيون العرب والكتاب الذين يزورون باريس ، أو يقيمون فيها ، وسرعان ما تبدأ المناقشات الثقافية ، ويعلو صـوت الدكتور محمـد جابر الأنصـارى الذى تعرفت إليـه فى باريس ، وصـلاح إبراهيم الشـاعـر السودانى ، ويـرن التليفـون فإذا بمصطفى نبيل يتحـدث من الكويت ، وصـديق آخر من بيروت ، والتليفـون الدولى هـذا جعل الجميع كأنهم يجلسـون فى غـرفـة واحـدة ، ذات مـرة رن التليفـون ، وقـال الصوت:

ـ صباح الخير ..

وظننتـه يسخر ، لأن الـوقت كان العـاشرة ليلاً ، لكنـه قال إن الصبـاح فى بـدايتـه الآن فى سيـدنى فى استراليا ، وإنـه جـاء مبكـراً إلى العمل ليتحـدث فى التليفون .

وفى أثناء تصعلكى بباريس التقى بوجه آخر للوجود العربى ، التقيت بعدد من الشبـاب المصريين الذين هجـروا الـوطن وجاءوا إلى أوروبـا ، وجميع من التقيت بهم ، خريجو جامعات ، كليات الهندسة والزراعة ، والآداب، ومعظمهم يعمل فى أعمال متـواضعـة جـداً ، قـابلت مهنـدسـا زراعيـاً يعمـل كبـائع سندويتشـات، وآخر خريج هندسـة يعمل فى وظيفة غريبة ، يلف طـوال اليوم على البيوت ويضع مظاريف إعلانات في صنـاديق البريد ، الخاصة ، آخر يعمل

---

(١) نبيل الشوباشى استقر الآن فى اقاهرة تماما .

عند جزار ، ناقشتهم طويلاً ، لماذا فارقوا الوطن ، كيف يقبلون مثل هذه الأعمال التى لا تتفق مع ما تعلموه ، شعرت أن أغلى ما فى بلادنا مطرود منها ، العقول والخبرة،

ولعنت الظروف ، وبرغم صعوبة الأحوال هنا إلا أن ثمة تضامناً قوياً يربط بينهم . ويبدو فى هذه المساعدات التى يقدمونها إلى بعضهم ، ولكن مقابلتهم تثير الأسى .

* * *

يستمد الأثر المعمارى قيمته من خلال الموقع الذى يوجد فيه ، وهكذا طبقت شهرة كنيسة نوتردام الآفاق ، وظل مسجد السلطان حسن مجهولاً فى بلده ، لم تبهرنى العمارة القوطية ، أعجبت بنوتردام ، هذا حقيقى ، بعمارة قصر فرساى ، وعمارة كنيسة القلب المقدس ، ولكن هذه العمارة فى مجملها ضاعفت عندى إحساسى بقيمة العمارة الإسلامية والعربية ، فى مواجهة كنيسة نوتردام يجثم الأثر المعمارى على النفس ، عمارة جميلة لكنها إرهابية ، عكس ذلك ما يشعره الإنسان أمام مسجد السلطان حسن ، فى القاهرة ، العمارة الإسلامية شاهقة ، هذا صحيح ، ضخمة ، نعم ، ولكنها تأخذ الإنسان فيصبح شاهقاً معها ، تأخذه إلى أعلى ، لا تجثم فوقه ، ولا تشغله بالتفاصيل ، حتى المنمنمات المغربية تحدث فى النفس تأثيراً صافياً ، ونشوة ، وداخل المساجد العربية الضخمة ، نجد الصحن الفسيح ، والفراغ الذى تبدو منه السماء ، بدون أن تقسمه حواجز ، ولكن داخل كنيسة نوتردام لا يمكنك أن ترى مساحة الصحن الداخلى فى نظرة واحدة ، إنها أقسام طولية وعرضية حيث الأعمدة الضخمة ، والحواجز الخشبية .

لماذا أصبحت كنيسة نوتردام أشهر من مسجد السلطان حسن فى القاهرة ، أو مسجد الزيتونة فى تونس ، أو المسجد الأموى فى دمشق ، أو القروين فى المغرب ؟

لأن البلد الذى تقع فيه كنيسة نوتردام يشغل موقعاً أهم على خريطة العالم، ولأن ناس هذا البلد عرفوا كيف يبرزوا ما لديهم ، وكيف يحافظون عليه ، أما نحن فنهمل كل ثمين لدينا ، ونكثف ظلال الإهمال والنسيان ، ويكفى جولة واحدة فى مناطق القاهرة القديمة لكى نتأكد من صحة ما أقول .

إلى المطار ، كنت أفكر فى باريس ، باريس المضيئة ، حيث الفن ، والثقافة ، والسياسة ، والحرية ، وكل إنسان يمكنه أن يفعل ما يشاء ، أن يتظاهر فى الشارع ، أن يصرخ ، أن يرتدى أي ثياب يريدها ، وخيل إلى أن باريس تعطى كل إنسان ما يشاء ، فإذا أردت أن تكون عالماً ، هنا الجامعات والمعاهد العريقة ، وإذا أردت أن تكون صعلوكاً ، هنا حياة الكوشار ، والهيبيز ، والصعلكة ، وإذا أردت أن تكون منفلتاً من كل قيد ، لك ما تشاء ، يمكن للإنسان أن يجىء فقيراً ، وبجده وجهده يدرس حتى يتخرج من أرقى الجامعات ، ويمكن أن يجىء إليها مثقفاً كبيراً ، ثم يتحول إلى شظايا آدمية ، وخفقاً للجهد ، وللطاقة ، والامكانية .. ماذا تريد ؟ ستقدمه لك باريس ، فى المطار قال لى صديقى ..

ـ يمكنك أن تعمل هنا .. المجلات العربية عديدة .. وهناك فرص أخرى .. فكرت قليلاً ، قلت له ..

ـــ لا .. إننى أجىء إلى باريس فى إجازة ، لأقف قدراً امكانى على جوانب الثقافة، لأتعرف إلى الآخرين ، لأرى الجديد .. لكن حياتى ضاربة بأعماقها هناك وستمضى هناك .. فى عالمنا العربى .. بكل ما فيه ، فهذا مَنْشَئِى .. وقدرى الأبدى ، أما باريس فلا تصلح لى ولا أصلح لها ..»

* * *

١٩٨٢

متتاليات هنغارية

فبراير ١٩٨٢

ـ ١ ـ

.. منذ سنوات عديدة لم يتغير موعد الطائرة الهنغارية ، فى الفجر ترحل من القاهرة ، من قبل عبرت هذا الطريق الفضائى مرتين ، المرة الأولى كانت بودابست مجرد محطة لتغيير الطائرة إلى وارسو ، والمرة الثانية لتغيير الطائرة إلى الغرب، لندن وباريس ، ثم التوقف خلال العودة ، فى هذه المرة أقصد عاصمة الدانوب، أتأمل الجبال المكللة بالثلوج البيضاء ، والغمامات البعيدة ، نفس هذا الطريق الجوى سلكته مرتين من قبل ، يعبر الإنسان الفرغ ، ولا يدع خلفه آثاراً تدل عليه .

ـ ٢ ـ

.. ميعاد الوصول دائماً فى مطلع النهار ، حراس المطار فى أزيائهم العسكرية، يتدثرون باللباس الثقيل ، الكل يرتدى المعاطف وأغطية الرأس الثقيلة ، ترى كيف تكون درجة الحرارة تحت الصفر ؟ مررت بصالة المطار الصغيرة ، نفس الرائحة التى نفذت إلى أنفى منذ خمس سنوات عندما وطئت قدماى لأول مرة أرضاً أوروبية ، مزيج من رائحة أخشاب مصقولة ، وعطور نساء مررن من هنا ، وقهوة تعد فى البوفيه ، يتفحص ضابط الجوازات أوراقى ، ثم يتأملنى ، أواجهه بملامحى ، يختم الجواز ، أفاجأ بالضابط الهنغارى يقول لى باللغة العربية ..

ـ أهلاً وسهلاً ..

-٣-

.. البرد ، الضباب ، يلفان المدينة فى الصباح الباكر ، النوافذ كلها مغلقة ، والمارة فوق الأرصفة خطواتهم سريعة ، معظمهم يمشون منحنين إلى الأمام ، وكأن أيدى خفية تدفعهم ، وسرعان ما يذوبون فى الضباب ، ليجىء غيرهم ، لا تتوقف الحركة ، الكل مسرع ، ما من تسكع ، وإذ اقترب من الأرصفة تبدو الملامح جادة ، بينما غصون الشجر كلها عادية ، تقترب السيارة من الدانوب ، أعبر كوبرى اليزابيث والذى يصل شطرى المدينة ، بوداوبست ، كانا فى الأصل مدينتين إلى أن توحدتا فى منتصف القرن الماضى ، يؤدى كوبرى اليزابيث إلى سفح جبل جيليرث ، منذ قرون عديدة عاش فوقه القديس (جيلريت) ، أعدمه الرومان بطريقة بشعة ، وضعوه فى براميل ملىء بالأسنة البارزة وألقوههمن فوق الجبل متدحرجاً حتى السفح ، ثم أطلق إسمه على الجبل ، عادة يتم تكريم الإنسان بعد فوات الأوان ، بعد أن يصبح رمزاً ، التكريم موجه إليه ، لكنه هو لا يدرى شيئاً ولا يعى ، تعمى البصائر الإنسانية عن فهم القيمة الحقيقية لإنسان ضحى من أجل الكل ، ثم يفيق الضمير الإنسانى ولكن بعد فوات الأوان .. فى الصباح الباكر الهنغارى ، قلت بصوت عال .. بودابست .. لهفى على امة قتلت راعيها ، بالطبع أقصد امتى أنا ، وليست الأمة الهنغارية ..

-٤-

هذه الوحشة التى تعم الإنسان إثر الوصول إلى بلد غريبة عنه ، فى الوطن يصبح السفر أمنية ، كذلك يطول الحلم بالمدن البعيدة ، والغابات النائية وعند السفر يشتد الحنين إلى الوطن ، وتكتسب أشد الأشياء عادية قيمة كبرى ، ويهفو الإنسان إلى المقهى ، وإلى الناس الذين اعتاد رؤيتهم كل يوم ، مع أن الغيبة بالنسبة لى لا تطول عادة أكثر من اسبوعين ، ما بين حنينين تتحير المشاعر ، الحنين إلى السفر ، والحنين إلى العودة ، فى هذا الصباح الهنغارى الباكر ، كدت أدمع وأنا اتذكر محمد ابنى الصغير عندما كان يصمت ثم يقول فجأة ..

- حتوحشنى يا حبيبى ..

-٥-

البحث عن المعارف والأصدقاء ، فى مساء اليوم الأول ألتقى بالشاعر الفلسطينى الصديق مريد البرغوتى ، وزوجته الدكتورة رضوى عاشور الناقدة المعروفة واستاذة الأدب الانجليزى فى جامعة عين شمس ، مريد هو المسئول الاعلامى عن مكتب منظمة التحرير الفلسطينية فى بودابست ، كثير من الأصدقاء الحميمين أصبحت الآن لا ألتقى بهم إلا فى المدن الأوروبية والعربية ، بعد أن كانت مقاهى القاهرة تضج بنا ، إلى مقهى هنغارى قديم ذهبنا ، مقهى البيغاكس من عصر الامبراطورية الهنغارية ، بنى فى القرن الماضى ، ولا زال مثقلاً بالفخامة ، والروح الكلاسيكية ، وآثار هذا العصر الذى أطلق عليه صديق هنغارى «العصر الذهبى» ، فى صالاته الفسيحة ، وزخارف سقفه الفنية ، ومرايا جدرانه العريضة أستطيع أن ألمح الأصل الواقعى للعديد من اللوحات الفنية الموجودة فى متحف الفنون الجميلة ببودابست ، حيث النساء اللواتى يرتدين الفساتين الواسعة الفضفاضة ، والرجال بقبعاتهم العالية ، وعازف للبيانو فى الركن الأقصى ، مع مريد ورضوى دبت إلى الونسة ، تحدثت عن مصر وعن أمل عارم يسرى فى أفئدة الناس ، وأصغت رضوى ، كذلك أصغ تميم الصغير ابنهما الذى يتحدث الهنغارية بطلاقة ، وكان يتحدث إلى الجرسونة الحسناء نيابة عنا ومترجماً لنا ، جاءت امرأة هنغارية عجوز ، راحت تداعب تميم ، للطفولة قدسيتها هنا ، وعندما عرفت إننا عرب مصريون قالت إنها عاشت فى الاسكندرية زمناً ، وراحت تتحدث عن الشاطبى والإبراهيمية ، تسأل وتستقصى بحنين عظيم ، انصرفت ملوحة وعدنا إلى الحديث عن القضية ، وعن الوطن ، وعن فلسطين ، وعن المستقبل ، وعن الآمال والمخاوف .

-٦-

إلى القلعة .

للمرة الثانية أرى شوارعها المبلطة بالحجارة العتيقة ، قلعة بودا ، أو كما

يسمونها هنا قلعة الصيادين ، يتدرج الطريق فى الارتفاع من ميدان موسكوفا حتى يستقر فى الساحة التى تقع أمام كنيسة الماتياشى ، أجمل كنائس هنغاريا وأرقها ، تقوم القلعة هنا منذ القرن الثالث عشر الميلادى حيث بدأ تأسيسها ، تبدو الأماكن التاريخية مجرد حجارة صماء إذا عزلت عن تاريخها وعن الأحداث التى مرت بها ، فى هذا الموضع كان يحلو للامبراطور الرومانى المشهور ماركوس أوريليوس التأمل ، ولاشك انه ذواقة للجمال ، التل ينحدر إلى الدانوب مكسو بالأشجار ، والنهر ينساب هادئاً فى وقار ، عريض لكنه أقل إتساعاً من النيل ، معارك عديدة نشبت هنا ، عندما استقر العثمانيون لمدة قرن ونصف فى هذه البلاد كانت القلعة مقراً للحكم ، والمكان لازال يحمل آثار هذه الفترة ، فى الملامح المعمارية حيث البيوت قديمة ، ذات مداخل فسيحة تذكرنا بالوكالات العتيقة فى منطقة القاهرةالقديمة ، كذلك النوافذ الخشبية ، والزخارف المعمارية التى حافظت عليها عمليات الترميم التى أجريت بدقة بالغة ، يحمل النصب التذكارى لرجال الحرس الوطنى ، أربع لوحات من البرونز ، صورت المعارك التى جرت بين الأتراك ، والجيوش الهنغارية ، وتبدو الأزياء الشرقية والعمائم ، وبجوار المتحف الحربى ، وعند أقصى الطرف الشمالى للقلعة ، حيث يطل الواقف على تلال مدينة بودا ، يقوم شاهد قبر ، رخامى ، تعلوه عمامة عثمانية منحوتة ، وتحت الشاهد لوحة من الرخام تحمل عبارات كتبت باللغة التركية ، آخرها سطر باللغة العربية «رحمة الله عليه» ، العبارات تعنى أن هذه المقبرة لعبد الرحمن باشا ، آخر باشا عثمانى حكم مقاطعة بودا قبل رحيل الأتراك عن هنغاريا ، توقفت طويلاً عند اقبر فى العراء ، فى درجة حرارة تصل الى خمسة عشر تحت الصفر ، هذا الباشا الذى لا أعرف ملامحه ، والذى دفن فى مكان يشرف على المقاطعة بأكملها ، إنه مهجور من قومه الآن ، مجرد أثر ، أعود للتجول فى الشوارع الضيقة والتى يجرى الحفاظ على مبانيها بدقة بالغة ، المبانى الحديثة ممنوع اقامتها هنا إلا وفقاً للطراز السائد ، وعندما أقيم فندق الهيلتون بجوار كنيسة الماتياش ، صمم طبقاً لطراز

العمارة السائد فى منطقة القلعة ، بل ان لون الأحجار جاء متوافقاً مع نفس الألوان القديمة ، أما النوافذ المستطيلة للفندق فقد غطيت بزجاج قاتم يعكس الكنيسة ومبانى القلعة المحيطة ، انه درس للدول الغنية بالآثار ، والمناطق القديمة التى يشوهها العمران الحديث ، فى الطرف الآخر من القلعة يقوم القصر الملكى والذى يضم ثلاثة متاحف ، متحف لتاريخ مدينة بودابست، والمتحف الوطنى ، ومتحف للرسم والنحت الهنغاريين ، من القلعة يتحدد طريق يؤدى إلى بودا ، طريق تتخلله درجات سلالم حجرية وممرات عبر الأشجار ، فى الليل تتعانق أضواء النيون وألوان الشجر ، وتبدو بعض نوافذ البيوت القائمة على السفح مجللة بالستائر السميكة والأسرار ، اخترقت هذا الطريق مراراً فى زيارتى الأولى عام ١٩٧٩ ، وفى ساعات مختلفة من الليل ، وعلى الرغم من عدم وجود رجال البوليس المكثف إلا أن الإحساس بالأمن متوفر ، فى الغابة التى تغطى المنحدر ، كنت ألمح اثنين يتبادلان الحب ، أو فتاة تجلس وحيدة ، منطوية، أو عجوز غارق فى تأملاته وذكرياته البعيدة ، الوحدة الإنسانية ، يلمح من ملامح الحياة الأوروبية فى شرق القارة أو غربها ، عند الوصول إلى السفح ، ومن أمام محطة الديلى ، حيث تقوم القطارات المؤدية إلى الجنوب ، أتأمل القلعة، وتبدو المبان عند القمة شبيهة جداً بمبانى قلعة الجبل فى الخضرة ، الفارق انه هنا الأشجار والبرد تغطى السفح ، وفى القاهرة تقوم القلعة على صخور المقطم، والدفء لا يتبدد أبداً ..

- ٧ -

الطريق إلى مدينة (بيتش) يمضى جنوباً ، ولأن الجنوب مرتبط فى الذهن بالخشونة ، ومحدودية اللون الأخضر ، فقد كنت أتطلع مبهوراً إلى تلك الكثافة من الغابات الغارقة فى ضباب كثيف القوام كاللبن ، خلاله تلوح الأشجار النحيلة ، الفارعة ، التى لم تكتسى بعد بالأوراق الخضراء ، بينما الجليد يغطى جداول المياه الضيقة ، التى تتلوى عبر الجسور ، والجذوع ، لازال الشتاء ممتداً

بأيامه الباردة فى هذه الأيـام الأخيرة من فبراير ، فى الطريق يتوقف الأوتوبيس بمقهى صغير ، أو بمعنى أدق بار ، إذ أن المقـاهى بالنسبة لى تعنى تلك المقـاعد المتراصـة فوق الأرصفـة ، حيث يحلـو لى متابعـة حـركة البشر ، وفى البلـدان الأوروبية الباردة تختفى أرصفة المقاهى ، وتصبـح مفتوحة على الداخل ، ثمة بيوت قليلة متناثرة فى المنطقة المحيطة بالمقهى ، كل بيت محاط بحديقة صغيرة ، جميع النوافذ مغلقة على مئات الأسرار الصغيرة ، والحبوات التى لا تفصح عن نفسهـا ، رحت أمشى فى الـدروب الضيقة حيث الحشائش التى تقـاوم بـرد الشتـاء الهنغـارى القـارس ، تصحبنى صـديقـة عـربيـة تـدرس السينما فى بودابست ، إنها منفية من بلـدها العربى ، ثمة أسباب سياسيـة ، وهى معزولة عن اسرتها ، لا تصلهـا أخبـارهم ، ولا تعـرف عنهم شيئـاً ، تقيم مع اسرة هنغاريـة فى بودابست ، تحب شابـاً عربياً من بلـدها يكتب الشعر ، هـو الآخر منفى فى باريس ، حدثتنى عن لقاءاتهما التى تتم مرة كل عدة شهور ، ولبضعة أيام فقط ، وعن خطاباته إليها ، وعن خطاباتها إليه ، فى كل مكان تذهب إليه هنا، يتطلعـون إلى وجههـا العـربى الجميل ، وإلى عينيهـا الـواسعتين ويبـادرونها بـالسؤال : أليس لك صـديق هنـا .. كيف وأنت جميلة ؟ وتحاول أن تـدفع عن نفسها الفضـول ، وأحياناً تحاول قطع الطريـق على محادثها ، فتتذكر شيئـاً ما عن صديقهـا العربى المقيم فى بـاريس ، باريس .. ولكن بـاريس نائيـة ، وهذه اللقاءات متبـاعدة ، كـان المنطق يبدو غـريباً فى آذان مستمعيهـا ، ولكننى كنت أشعـر من خـلال حديثهـا بما تعنيـه ، فى الغربـة ، أو المنفى ، يصبح الإنسـان متعلقاً، مشدوداً بـالوطن ، والوطن يتمثل فى إنسان قد ترتبط بـه ، وإذا ما كان هنـاك ، رجل وامـرأة اضطـر كـل منهما إلى العيش فى المنفى ، منبع ظـروفهما واحد، بلدهما واحد ، فإن كل منهما يمثل الـوطن بالنسبة للآخر ، حتى وإن لم يلتقيا، وإن قـامت بينهما المسافات ، هـذا ما كنت أدركه جيـداً ، وأنا أصغى إلى حديث هذه الفتاة العربية المنفية عن صديقها الشاعر المنفى ..

-٨-

أخيرا ، مدينة بيتش ..

زرتها فى عام ١٩٧٩ ليوم واحد ، وتكر الأيام لتقع عينى عليها مرة أخرى ، كلما زرت بلداً نـائياً ، أقول لنفسى وأنا أفـارقه ، ترى هل سأراه مـرة أخرى ، وإذا جدث .. فمتى ، وكيف ؟

أعود إلى بيتش ، وأرى مـرة أخرى مسجد الغازى قاسم ، يتـوسط المدينة ، يحتفظ بطابعــه الأصلى على الرغم من تحويلـه إلى كنيسة بعد إنتهـاء الإحتلال التركى للمجر فى القرن السابع عشر ، نتجه إلى فنـدق «بانونيا» الحديث ، حيث سيقيم الصحفيـون والمخـرجـون والممثلـون الـذين سيحضرون المهـرجـان السينمائى للأفـلام الهنغاريـة ، والذى تنظمــه فى كل عـام مؤسســة (هنغارو فيلم)، فوجئت أن الفندق يقع فى مـواجه مسجد حسن ياكـوفيل ، أرق المساجد التى رأيتها فى خلال تعرفى الذى بدأ منذ سنوات طويلة على الآثار الاسلامية فى مختلف انحـاء العالم الإســلامى ، أرق المساجـد وأغزرهـا حزنـاً ، بحجارتـه الرمادية ، ومئذنته الشاحبة ، وحجمــه المحدود ، وزخارفه الدقيقة المقتصدة ، الجميلة ، طابعــه حزين ، ربما لأنه مهجور ، بـلا مسلمين ، لكن ثمة شىء ما فى العمارة ، فى أحد أيـام القرن السادس عشر ، وقف هنـا حسن باشا يـاكوفيل ، وكما يدل إسمــه فهو من بلدة فى يـوغسلافيا تحمل نفس الاسم «يـاكوفيل» ، وقف وأشرف على أعمال البنـاء ، ثم صلى فى يوم إفتتـاح المسجد ، صلى ومعـه دراويش طـائفة المولويـة الذين بنـى لهم تكية ملحقة بـالمسجد ، ضـاعت كل معالمهـا الآن فيما عدا عدد ضئيل من شواهـد قبورهم لا تزال قائمـة فى الفناء الذى يقع خلف المسجد ، حيث يمكن رؤية المئذنـة الملتصقة بالمسجد كاملة ، فى ذلك العصر البعيد كانت (بيتش) مدينة هامة جداً ، إنها أول المدن الهنغارية بعد إجتياز الحدود اليوغسلافية ، وحالياً هى ثالث مدن هنغاريا ، فى العصر التركى كان تعـدادها أربعة آلاف فقط ، ولم يكن مسجـد حسن ياكوفيل وحيـداً ، كان

هناك مسجد الغازى قاسم الذى يتوسط المدينة حتى الآن وتبقى ظلاله سارية أينما ذهبت فيها يمنحها ذلك الظل الشرقى الأصيل حتى فى مواجهة مبانيها العتيقة باروكية الطراز ، كنيسة الفرنسيسكان القائمة الآن كانت أصلاً مسجد، وأكبر كنيسة فى مدينة بيتش كانت أصلاً مسجد السلطان سليمان ، وكان فى المدينة سوق شرقى مغطى ، وعدد من الحمامات التركية يصل إلى واحد وعشرين حماماً ، أمام فندق بانونيا مباشرة يقع جزء كبير من السور القديم للمدينة ، وإلى جوار الفندق يمتد شارع ساليا ، شارع عتيق ، مبلط بالحجارة ، لا تمر به العربات ، جميع المبانى المطلة على جانبيه تنتمى إلى القرن الثامن والتاسع عشر ، فى النهار تتزايد الحركة فيه ، وإذ يقترب الليل تضيئه مصابيح قديمة الشكل ، ترسل ضوءاً أصفر حاد ، وتبدو حركة المارة فيه غير واقعية ، كأن أيدى مجهولة تحرك الجميع ، أما صوت الأقدام فلا يسمع قط ، يصل الشارع بين الميدان الرئيسى ، والجزء الغربى من المدينة ، وفى العصر العثمانى كان هو الشارع الرئيسى ، وكانت أبواب المدينة تقع فى نهايته ، الباب الشرقى يؤدى إلى بودا ، والتى تمثل الآن نصف العاصمة بودابست ، الباب الجنوبى يؤدى إلى مدينة سيكلوشى ، وعلى مقربة منه الباب المؤدى إلى سيجتغار ، تجاه هذا الباب تقع إحدى الضواحى وكان فيها مسجد ، ومدرسة للمذاهب الإسلامية ، ثمة ضاحية أخرى على مقربة كانت تحتوى على جزء عثمانى أيضاً ، انتهى العصر العثمانى لهنغاريا فى نهاية القرن السابع عشر ، وتبقت منه هذه الآثار الاسلامية التى أعيد ترميمها بدقة كبيرة ، وعناية فائقة ، وأشرف على هذه العمليات البروفيسور يوسف جورى عالم الآثار الهنغارى ، المسلم ، والذى جاء من بودابست ليعرفنى بأدق تفاصيل الآثار المتبقية فى بيتش وسيجتغار ..

-٩-

تظل المبانى الأثرية ، القديمة ، مجرد حجارة لا معنى لها ، إلى أن تحاط علماً

بالتاريخ الممتد خلفها ، عندئذ تتـدفق حياة بأكملها ، هكذا فى طفولتى كنت أرى المساجد القديمة فى الجمالية ، وفى القاهرة القديمة ، ولا أعرف عنها إلا أسمائها، كـذلك أسماء الشوارع ، والطـرقات ، حتى تقـدم العمر ، رحلت عبر التـاريخ ، فتدفقت الحياة فى الحجارة الـرمادية ، وأصبح الوقوف أمام بقـايا مبنى قديم يثير العديد من المعـانى ، ويفجر القدرة على التأمل ، تذكرت ذلك وأنـا فى مدينة بيتش ، كنت أمر يوميا فى شارع سـاليا ، بجوار مطعم غريب يقع تحت الأرض (مطعم المئذنــة) بقايـا بناء قديم يتـوسطه كشك خشبى أحمر اللـون ، وبدا لى غامضاً ، بلا معنى ، حتى صحبنى البروفيسور يوسف جورى عبر آثار بيتش الاسلامية ، واتجه بى الى شارع ساليا ، ثم توقف أمام هذه البقايا ، إنه الحمام التركى الرئيسى للمـدينة ، حمام ادريس بابا كما كـان يعرف فى العصر التركى للمدينـة ، ومن بقايا الحمام القديم ، بـدأ الحفر والكشف عن الخطوط العـامة للبناء، والمورد الرئيسى للمياه ، ثـم الموقد حيث عملية التسخين ، والفتحات فى الجدران حيث يتدفق الماء المغلى إلى أحـواض صغيرة ، ومنها يتصاعـد البخار ، هـذا نظـام حمامات البخـار ، ثمـة نـوع آخـر من الحمامات كـان مخصصـاً للاستحمام بالماء فقط ، والقاعة من الـرخام ترتفع عن أرضية الحمام ، يجلس فوقها المستحمون ، فى إستسلام وتراخيى لتدفق البخار ، أما فى حمامات المياه فتوجـد مغاطس مستطيلـة الشكل ، ممدودة المسـاحة ، ينـزل فيها المستحم ، تجولت مع البروفيسور يـوسف جورى والصديق يـوهاس أرنو أحد تـلاميذ المستشرق المجرى الكبير عبد الكريم جرمانوس والمسئول عن العلاقات الثقافية الخارجيـة ، عرفت أن هـذا البناء الأحمر الـذى كان يحيرنى مـا هو إلا خـزان الحمام الـرئيسي للمياه المغليـة ، بجوار بقـايا البنـاء متحف صغير يشرح نظم الحمامـات ، ويعـرض اللوحـات التى رسمت فى العصر العثمانى للحمامـات ، وجمالها الداخلى ، فى هنغاريا بقايا العديد من الحمامات التركية ، حمام شازار، وحمام كيرالى ، وحمام روداش ، وحمام راشى ، وحمام السلطـــان فى ايـر ،

وحتى الآن لازال حمام بـــودا فى العـاصمـة بـــودابست يعمل ، وفى مـــدينـة شبكستغار يوجد حمام رستم باشا .

من مدينة بيتش ، ركبنا السيارة إلى مدينة سيجنغار القريبة ، الطريق ممتد فوق بساط من الخضرة ، إلى درجة أن لـون الأسلفت الأسود يكاد لا يبدو ، من بعيد تلوح الكنيســة ، بطرازها السلالى ، تلك القبة المستـوحى شكلها من ثمرة البصل ، والبرج النحيل ، ذو القمة المدببة ، الكنيسة أول بناء يطالع الإنسان عند اقترابه مــن أى مدينــة هنغاريـة ، سيجنغار مـدينة صغيرة ، تخترق شــارعها الرئيســى إلى القلعة التى تقع خــارجها ، نجتاز البـوابة الضخمــة التى تتخلل أسوارا ضخمة من الطوب الأحمر اللون ، فى هـذا المكان جرت أحداث بعيدة ، لا يدرى عنها معظم العابرون شيئاً ، حتى أولئك الذين يعملون ، وقضوا أعمارهم فى دراستهــا مثل البروفيسور يـوسف جـورى ، فانهم يـدرسون أو درســوا الخطوط العامة .. والتواريخ ذات الدلالة ، وربما تفاصيل المعارك ، لكن ملايين التفـاصيل الإنســانية انـدثـرت تماماً ، كـآلام جنـدى جـرح هنا ، أو أشــواق اضطـرمت فى صــدور إنسـان مــا ، وقـد اتيح لى أن أعيش الفترتين ، والموقفين المتقاربين ، وكنت استدعيهما إلى ذهنى وأنا أمشى مــع صديقتى الهنغارية من الأعـوام المتـدة بين ١٩٦٨ ، و١٩٧٠ ، عشت حرب الاستنـزاف التى شنهــا الجيش المصرى العظيم ضد اسرائيل ، فى اكتــوبر عشت الحرب يوماً بيـوم منذ يوم الأحد السابع منه ، فى حرب الاستنـزاف كان اقترابنا من مياه القناة لا يتم إلا عند الغسق ، أو فى الليل ، ويتم فى صمت ، لأن أى صوت كـان العدو يصوب إلى مصدره ، وكان إذا أخبرنى إنســان ما إنه زار الجبهة فـاسـأله هل وصل إلى المياه (قناة الســويس أعنى) ، ومن الإجابة كنت أدرى مدى جديــة الزيارة ، فى تلك الأيـام نزفت جـروح عديـدة ، وتدفقت أحــاسيس شتى ، وودعنا الفـرق العابرة إلى مواقع العدو نهاراً أو ليلاً ، وخفنا ، وقلقنا ، وسررنا ، وتحمسنا ، فى اكتوبـر ١٩٧٣ ، دار قتال ضــارى ، وهرست جنــازير الـدبابـات الاسرائيلية

أجساداً حيـة .. وأمسك إبراهيـم زيدان بـالعلم المصرى ، وكما يقولـون «مات عليـه» ، لم يتركـه وهـو ينـزف حتى أغمض عينيـه إلى الأبـد ، فيما بعـد ذلك بسنوات، مـررت بقناة السويس ، ورأيت بقايـا حفر الجنود مغمورة بـالمياه ، وسفن عابرة ، ومنـافذ جمركية إلى المنطقة الجمركية فى بـورسعيد ، وتساءلت «من يذكـر تلك الأيام؟ من» .. فى هـذا المكان النائي عن بـلادى المدثر بـالشتاء ذكـرت تلك الأيام ، فهى أيـامى وأيـام من أحببت ، وتساءلت من يـدرى اننى ذكرتهم هنـا ، أو من يدرى اننى أذكرهم فى نفس الموضـع الذى استشـهـدوا به (ما معنى الاستشهاد ؟ إذا كان قاتلى يطأ المكـان الذى استشـهدت فيه بحذائه، ويجىء معززاً مكـرماً) عـدت إلى لحظتى الحاضرة ، كان البروفيسـور يوسف يشير بيده إلى أحـد أركان القلعة ... كـان يتحدث عن بطل هنغـارى ظل يقاوم الأتـراك حتى اللحظة الأخيرة ، لم أسمع إسمـه ، إسم البطل ، هو بطل فى نظـر قومـه ، وكافر فى نظر الأتـراك ، المسائل نسبية ، والنتـائج ، والحقائق العظمى أيضاً .. أليس كذلك؟

- ١٠ -

.. صعدنا سلماً يؤدى إلى أعلى سور القلعة .

فى سبتمبر ١٥٦٦ ، استولى الأتراك عليها ، إزدحمت هـذه السهول المحيطة بجيش السلطان العثمانى العظيم سليمان القانونى ، لم ير سقوط هذه القلعة فى نقطة مـا ، فى موضـع ما بين أشجـار السروهذه مات ، أغمض عينيـه إلى الأبد ، نتيجة جلطة فى المخ ، وفى موضـع ما دفن لا زال مجهولاً ، ربما فى بقايا مسجده القائم فى وسط القلعـة ، وفى موضـع ما قـرر الوزير الأكبر سـوكولى أن يخفى موت السلطان ، عن الجنود والضباط ، حتى لا تتأثـر معنوياتهم ، يوجد مكان قريب اسمـه توربيك والمرجح ـــ كما يقول البروفيسـور يوسف جـورى ـ ان السلطان مـدفون فيه ، لأن أصل الاسم تـرية أى مدفن ، استـولى الأتراك على القلعـة ، وسرعان مـا شيـدوا فى أركانها أربعـة حصـون ، وزودوها بأمـاكن

لإطلاق المدافـع ، والبنادق ، كما توسعـوا فى بناء مخازن العتـاد ، والاسطبل ، رأيت هذه المخــازن الآن مستغلة كفندق سيـاحى صغير ، بعد المعركـة بحوالى مـائة سنة ، هـاجم زرينى الثـانى ، ــ بطل هنغارى ــ المكـان واستولى عليـه بجيوشــه ، فى وسط الحديقة تمثـال لزرينى يمتطـى جواداً ، التمثال بـالحجم الطبيعى ، أقيم فى عـام ١٩٦٦ بمنـاسبـة مرور أربعمائة سنـة على المعـركـة ، ولنفس المناسبـة أعيد تـرميم القلعة ، والكشف عن أجزائهـا الداخليـة ، أشار البروفيسور جورى إلى جسر قديم ..

ــ مـن المحتمل أن بقايـا الجيش المجرى المتبقى بعـد الهجوم الطويـل خرج كدفعة واحدة من هذا الجسر أمام الأتراك ..

أعيد بنـاء السور فى القـرن الثامن عشر ، أضيف مبنى لسكنـى الجنود ، فى وسط القلعة بنـاء محدب السقف ، يبرز منه بـرج ، وسرعان ما تكتشف بقـايا المسجد فى البناء ، البرج هـو الجزء الأسفل من المئذنة ، النوافـذ لا تزال تحتفظ بزخـارفها ، أما الردهـة الداخلية فهى قـاعة الصلاة ، المقرنصـات الجصية فى أركان القاعة ، وفى الجنوب الشرقى بقايا المحراب ، وعلى الجدران كتابات باهتة قديمة ، قديمة ، كتابة عربية ، الله ، لا إله إلا الله ، علي كرم الله وجهه ، الحسن ، الحسين ، وقفت وبى خشوع أمام الكتابة القديمة ، وأنا أحاول جاهداً أن أتخيل الأيدى الإنسانية التى خطتها ، هـؤلاء الذين انتسب اليهم بشكل أو بآخر ، لابد أنهم جنود عرب من مكان ما ، وثمة ظروف لن تعرف قط لأشد المدققين بحثاً قادتهم إلى الإلتحـاق بالجيش العثمانـى ، وخطوا فـوق الجدران هذه الكلمات المقدسة .. خرجنا من القلعـة ، مشينا بجوار نهر أولماشى الذى يخترق المدينة ، مـرة اخرى نتـوقف أمـام كنيسـة كـانت فى الأصل مسجداً ، مسجـد حـاجى ابراهــيم، ويشــــرف الآن البروفيســـور جورى عـــلى أعمـــال تـرميم الغـرض منها اســـتعادة هيئة المســجد الأصـــلى ، طـــوال فـــترة الاحـــتلال التركـى لـــم يقم المســـلمون بتحـــويل أى كنيسة إلى مســـجد ،

وبعد انتهـاء الاحتلال ، تحولت المساجـد إلى كنائس ، ألا يـدل ذلك على سماحة الإسلام وعظمته ؟

-١١-

بيتش مرة اخـرى ، فى الميادين الرئيسيـة لافتات تعلن عن أفلام المهـرجان السينمائي السنوى ، يعقد خصيصاً للأفلام الهنغارية ، وتتم دعوة أشهر نقاد السينما من العالم ، والكتاب ، وبعض المخرجين ، والممثلين ، حتى يتعرف العالم على السينما الهنغارية ، وهى سينما متميزة ، وقدمت أعمالاً هامة ، آخرها فيلم (مانيغستو) الذى حصل على جائزة اوسكار عام ١٩٨٢ لأحسن فيلم أجنبى ، وفيلم (شو نتغارى) عن حيـاة الرسام الهنغارى الكبير شـونتغارى الذى زار فلسطين والقاهـرة فى بداية القرن ، وسجل زيـاراته فى لوحـات ضخمة تحتل معرضاً كبيراً فى بيتش ، يفـاجئ الزائر العربى عند الدخول إليـه بلوحته لمدينة القدس تبلغ أبعـادها أربعة أمتـار فى سبعة أمتـار ، وهناك العديـد من الأفلام الأخرى الهامـة ، عرض فى المهرجـان عشرون فيلماً ، وهذه الأفـلام تحتاج إلى دراسات عديدة ، ولكن يمكن القول أن مواضيعها تتناول عدة مداخل تاريخية مختلفة من التاريخ الهنغارى والأوروبى ، ولكن هنـاك تركيز على المرحلة التى تقع بين الحرب العـالمية الثـانيـة وبين عام ١٩٥٦ ، وهنـا ادانـة شديـدة لهذه المرحلة ، حيث تصـور الأفلام عمليات القهـر الإنسانى ومصـادرة الحريات ، وتذكرنا هذه الأفلام بفيلم الكرنك الذى ظهر فى بداية السبعينيات فى مصر ، ثمة آلام أخرى تنقد الواقع المعاصر بشدة ، بل تكشفـه وتعريه ، مثل فيلم (كابالا) إخراج يانـوشى روزا ، ولقد كان مستوى الـرؤية النقدية للـواقع مفاجأة لى ، خـاصة وأن الـدولـة تنفق على هذه الأفـلام وتنتجها ، وتتـولى الـدعايـة لها ، خصصت إدارة المهرجان أربعة قاعات للسينما تعرض نفس الأفلام ، ولكن فى ترجمات إنجليـزية تقع فى ضاحية ريفيـة من ضواحى مدينـة بيتش ، هادئة ، أنيقـة ، بيوت صغيرة ، يحيط بكل منهـا حـديقة ، القـاعة نفسهـا ، التى تعتبر

سينما القرية ، قاعة مزودة بالآلات الحديثة ، من النظرة العابرة تبدو الحياة هادئة ، والاحتياجات الضرورية متوفرة ، لكن بعض الأفلام التى رأيتها تقدم وجها آخر ، وتذكرت فتاة مجرية على قدر عال من الثقافة ، كانت تحدثنى فى بودابست عن أمريكا بانبهار ، تركزت حياتها حول حلم السفر والعيش هناك..

ويبدو أن الإنسان لن يرضى ، ولن يهدأ ، هنا أو هناك !!

-١٢-

من قاعة السينما المظلمة أخرج إلى الريف الهنغارى الجميل ، أعود إلى مدينة بيتش ، إلى مسجد الغازى قاسم الذى حولوه إلى كنيسة بعد إنتهاء الاحتلال التركى ، ولازال الهلال والصليب يتعانقان فوق القبة ، لاحظت الحارسة وهى امرأة تجاوزت الستين ترووى اليومى ، اسمها كوفاتاج فاندال ، جاءت إلى المجر من ثلاثين سنة ، ذهب زوجها إلى رومانيا فى رحلة سياحية ، إلى اقليم ترانسلفانيا الذى هو أصلاً جزء من هنغاريا ، وبالمناسبة هناك أجزاء كبيرة من هنغاريا أكبر من مساحة هنغاريا نفسها ، تعتبر الآن أجزاء من رومانيا ، وتشيكوسلوفاكيا اقليم ترانسلفانيا فى رومانيا ، وأقليم براتسلافا فى تشيكوسلوفاكيا ، لا أحد يثير هذه القضية الآن ، فالكل دول اشتراكية ، لكن ألا يثير هذا التساؤلات العديدة حول مبدأ الأممية ، إذا كانت هذه الأقاليم الهنغارية ، وسكانها هنغاريون ، ولغتهم هنغارية ، وقوميتهم هنغارية ، فلماذا لا ينضمون إلى البلد الأم هنغاريا ، ولماذا تثير هذه النقطة المشاكل إذا تحركت ، إذا كان مبدأ الأممية أحد الأسس الهامة فى المبادئ التى تحكم تلك البلاد ؟ ألا يتسرب الشك إلى الأسس ؟ المهم .. ان الرجل الهنغارى الذى ذهب سائحاً إلى ترانسلفانيا الرومانسية عاد ومعه زوجة ، إنها حارسة مسجد الغازى قاسم الآن ، لابد أنها كانت جميلة ، هكذا تشى ملامحها العجوز ، أنجبت منه ابنة واحدة ، والابنة انجبت ثلاثة أحفاد ، كانت تعمل سكرتيرة ، وبعد أن بلغت سن التقاعد عملت كحارسة فى المسجد .

فى مواجهة مسجد الغازى قاسم تمثال من نحاس للقديس هونياد يانوش ، كان قسيساً أسره الأتراك ، وأخذوه إلى فهيرفار ، أو بلغراد ، أو القلعة البيضاء كما يعنى الإسم ، وجرت العادة أن تقرع أجراس الكنائس فى الساعة الثانية عشر ظهراً فى العديد من البلدان الأوروبية تحية لهونيادىانوش ، فى مدينة بيتش معبد يهودى قديم أيضاً ، إنها المدينة الأوروبية الوحيدة التى تتمثل فى آثارها القديمة الأديان الثلاثة .

ـ ١٣ـ

من مقهى النادور القديم يبدو بناء مقابل فى الطرف الآخر من الميدان ، لون طلائه أخضر فاتح ، لقد بنى فى القرن الثامن عشر ، بنى من أحجار مسجد تم هدمه بعد ذهاب الأتراك .

لا شىء يبقى مع الزمن ..

ـ ١٤ـ

فى الليل تقلع الطائرات الهنغارية إلى عالمنا العربى ، إلى بيروت ، إلى دمشق ، إلى الكويت .. إلى القاهرة .

أجتزت الحاجز المؤدى إلى الجوازات ، رفعت يدى بالتحية ، الصديق يوهاس أرنو الصديق توكاى اندراشى مسئول العلاقات الثقافية مع العالم العربى ، عدد من الأصدقاء المصريين الذين يدرسون فى بودابست ، والذين أصروا على أن يصحبونى إلى المطار فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، الشاعر محمد أبو دومة ، والدكتور محد عضيم الذى يدرس الزراعة ، وآخرين تشحب اسماؤهم فى ذاكرتى ، لوح الجميع ، وتواريت عن الأنظار ، وعندما إرتفعت الطائرة ، وفارقت عجلاتها الأرض ، تساءلت كعادتى كلما فارقت موضعاً بعيداً عن موطنى :

ـ ترى .. هل سأرى كل ما رأيت مرة أخرى ؟؟؟

* * *

١٩٨٣

متتاليات عذارى ..

فبراير ١٩٨٩

هذا العدد الهائل من النجوم !

أين يختفى فى سماء المدن ؟ كيف لا نراه ؟ البعض خافت ، والبعض لامع ، تجمعات ، فرادى ، رفع الصديق الأديب حسن سلمان كمال إصبعاً مدربة ، خبيرة ، راح يخبرنى بأسماء النجوم ومواقعها ، تلك التى تلوح فى سماء جزيرة البحرين .

كنا نقف فى البادية ، أشعر بإمتداد الصحراء وهيبتها وإن كنت لا أطلع على حدود واضحة للرؤية . بالقرب منا خيمة منصوبة . قضينا بصحبة عدد من الأصدقاء ساعات من الليل حميمة . صفت الحشايا والوسائد كنا نجلس متواجهين ، متجاورين . نتبادل الحديث ، ونتذاكر أبيات الشعر العربى القديم ، ويتخلل فترات الصمت صوت أم كلثوم ، بينما يقوى حضور الليل الصحراوى بيننا ، تلك لحظات من المودة لن أنساها أبداً ، يخرج بعض من سكان المدن إلى البادية ليالى الاجازات ، يضربون خيامهم ، يتسامرون يتحدثون ، يدفعهم حنين إلى الأيام الخوالى عندما كانت الحياة كلها تمضى هنا .

الليل بارد ، احدى ليالى فبراير الماضى ، لكن الهواء يشف فيشى بمزيد من النجوم ، وعندما فارقت البحرين بعد أيام ستة قضيتها فى صحبة أدبائها . كانت الصور الغالبة ، تلك الشفافية التى تميز الفراغ ، والضوء الصاحى ، ربما لأن البحر محيط ، وجوده قوى ، تدرك أنه هناك حتى لو جلت بعيداً عنه ، أيضاً كثافة الخضرة وعتاقتها ، ما من نبات أو شجر يوحى الىّ بالثبات والأزل

مثل النخيل ، إن فى رسوخه أو ميله ، فى انفراده أو تجاوره . تتخلل البحرين مساحات من الخضرة القديمة الأصيلة ، كنت استعيد نخيل قريتى النائية فى جنوب مصر ، وشيش سعف النخيل ، ورائحة التين العسلية . ربما بسبب هذه الخضرة كانت البحرين محطاً للطيور المهاجرة من برد الشمال إلى دفء الجنوب . منذ الأمد البعيد اشتهرت أيضاً بعيون المياه العذبة .

قال الصديق حسن

«تعال نذهب إلى عذارى ...»

بحرينى الأصل هو . ابن بحر ، يعشق الصيد . من هنا جاءت خبرته بالنجوم . والأحياء البحرية ، أطلعنى على مخطوط يضم مشاهداته وخبرته فى مرات صيده ، يجمع بين الجانب العلمى والعملى ، كما إنه ابن بر أيضاً . فى طفولته وشبابه كان يسبح فى «عذارى» . عين الماء الفوارة ، القوية ، التى تتدفق منذ أمد سحيق .

كم الساعة ؟

الثانية صباحاً ، إلى اليسار جدول طويل ممهد يمضى فيه الماء إلى مسافات بعيدة . الأراضى المجاورة للعين مرتفعة ، لذلك لا تروى البساتين المطلة عليها ، إنما تمضى أرى الأراضى النائية عنها . فى البحرين قول شائع ، مثل يقول .

«نشقى والنعيم لغيرنا ، فكأن الحال مثل عذارى»

* * *

وقفنا عند الحافة .

الليل جاث ، والصمت مكتمل ، والنخيل المحيط يثبت أركان الكينونة ، العين شبه مستديرة ، ليس لتدفق المياه صوت . لكن يقال ان قوة إندفاع المياه من الأرض يدفع بالسباحين إلى أعلى إذا شرعوا فى الغوص ، ظلال النخيل تضفى على المياه لوناً أخضر ، إلى اليمين يقوم مسجد مكشوف . دائماً تجد المسجد بجوار عين المياه ، الصلاة تقام على مقربة من مصدر الحياة ، النبع ، قرب عين

«عذارى» مسجد الخميس أقدم مساجد البحرين، يقال إنه بنى فى عصر الخليفة عمر بن عبدالعزيز. مئذنتاه متميزتـان، بارزتان، باقيتان، أما بقيته فطلل مع ان محاولة جرت لترميمه عام ١٩٧٦.

نواجه عين عذارى، ألمح أطيافاً من البخار النابع من سطح الماء الذى يتدفق فاتراً فى الشتاء. وينقلب بارداً فى الصيف، ما أعجب وما أغرب، فى هدوء الليل حدثت صاحبى عن عينين متجاورتين فى واحات مصر الداخلة، متجاورتان، إحداهما تصب مـاءً ساخنـاً، دافئاً. والأخـرى تدفق مـاءً بارداً، حـدث اثناء زيارتى للواحات المصرية عام ألف وتسعمائة وسبعة وسبعين إن سمعت القوم يتحـدثون عن واقعـة جـرت، ذلك ان عـاملاً فقيراً جـاء فى تـرحيلة من قـرى الصعيد، نـزل للاستحمام فى العين الدافئة، سبح لفترة، تخلل جسـده خلالها خـدر لـذيذ، استسـلم له، حتى أدركـه النعاس وهـو فى اللجة، عنـدئذ ثقل جسده، ونفـذ المـاء إلى صـدره. وحمله التيار الدافئ عبر القنـاة الممتدة بعيداً بعيداً جداً..

فى عمق الماء الصـافى. من خلال سحـابـات البخار نلمح سمكـة متوسطـة الحجم، تشق طريقها فى خيلاء، فى كبرياء، تحرك ذيلها يميناً وشمالاً، تمضى حتى تبلغ الحافة، تم تستـدير مـرة اخرى لتغرب فى إمتـداد القناة التى تحمل مياه «عـذارى» إلى الأرضـى البعيدة التى تـرويها. سمكة وحيـدة، لأى غرض تسعى؟ لا أدرى..

تستمر «عذارى» فى تدفقها الهادئ، الصامت، غير الملحوظ.

* * *

فى البحرين عدد كبير من عيون المياه العذبة مثل «عذارى». إحدى الحكايات المتوارثة تقول إنه فى عهد الخليفة الأموى أراد رئيس قبيلة فى القطيف أن يتزوج فتاة جميلة هـى إبنة شيخ القبيلة فى البحرين، عندما رفض طلبه قام بشن حرب على الجزر، واستـولى على عيـون الماء التى كانت تـزود الجزيـرة الكبيرة لكن

العناية الإلـهية فجرت نبعاً من الماء العذب فى البحـر بالقرب من جزيرة المحرق ثانى أكبر جزر البحرين الثلاثة وثلاثين ..

هذا من أغـرب ما عـرفته ، تلك العيون العـذبة التى تتفجـر فى مياه الخليج المالح . مازالت الذاكرة الجماعية هنا تعى تلك الأيام التى كان الرجال يخرجون فيهـا للبحث عن الماء فى الينابيع تحت البحـر العميق حيث يغـوصون ليمـلأوا القرب بالماء العذب ويطفون على السطح ممسكين فوهات القرب من أعلاها لكى لا ينسكب الماء الذى جمعوه بعد جهد جهيـد . كانت جزيرة المحرق تحصل على مددهـا من الماء بهذا الإسلوب الغريب ، وكـان يوجد نبع من الماء العـذب إسمه (يمعاب) فى قلب البحر . وعندما يبلغ المد أعلى مستوى له يقوم الغواصين بجلب المياه ، أو يدفعون عصا من الخيزران المجوف يندفع خلالها الماء إلى أعلى . وعند الجزر يقـوم النسوة بـالخوض فى مـاء البحر إلى أن يصلن إلى النبع ، ويمـلأن أوانيهن الفخارية .

«عذارى» هى أشهر عيون البحرين ، لكنها ليست أهمها ، كان هناك عين «أم السجور» التى تقع إلى الجنوب الشرقى من قرية الدراز ، «أم السجور» طمرت الآن ، أمـا الحفريـات الحديثة فكشفت عـن وجود ضريح مقـدس عند عتبـات العين. دائماً مكان العبـادة عند حـافة الماء . بالقـرب منه ، كـان ذلك فى القديم ، ومازال .

* * *

الوقـوف أو الجلوس عنـد الماء يضعف الإحساس بـالوقت ، ربما لأن الماء مثير للتأمل . خاصة إذا كانت عينا عتيقة ، موغلة فى القدم مثل «عذارى» ، والتى يرتبط إسمهـا بالعذرة ، وتـرتبط فى وجدان كل من قـابلت من صحبى الأدباء بالاكتشـــاف ، والمغامـرة ، وأوقـات الصفـو ، ومروج العواطــف وتتابعهـا وتقبلها .

هكذا ، بعـد ما يقرب من نصف ساعـة ، فى ليل شتوى بارد ، فارقت حـافة

«عذارى» ، التى يتدفق نبعها من وقت بعيد إلى وقت قادم ، محاطاً بأسرار النخيل العتيق ، وإن كانت الإطلالة قد انتهت عند حد ، فإن صورا خصبة علقت بالذاكرة ، صافية كسماء هذا البلد العربى ، الصغير ، الجميل . تتخللها هسهسات السعف ، وتدفق المياه العذبة ، وحركة السمكة المجهولة ، والأفق اللانهائى ، والهموم المشتركة ، ومن قبل ومن بعد .. مودة الأصدقاء .

الفهـــرس

الموضـــوع	الصفحة

● جمال الغيطانى ..

● ولد عام ١٩٤٥ ، التاسع من مايو . فى قرية جهينة ، محافظة سوهاج ، بصعيد مصر .

● نشأ فى منطقة القاهرة القديمة ، فى أسرة رقيقة الحال ، كان والده عاملاً فى وزارة الزراعة .

● له ثلاثة أشقاء ، أصغر منه، أخ ضابط مهندس بالقوات المسلحة ، وشقيق درس بكلية الآداب وتخرج منها ، وشقيقة خريجة حقوق .

● تلقى تعليمه الإبتدائى فى مدرسة عبد الرحمن كتخدا ، ومدرسة الجمالية الابتدائية .

● تلقى تعليمه الإعدادى فى مدرسة محمد على الاعدادية .

● بعد حصوله على الشهادة الإعدادية (١٩٥٩) التحق بمدرسة الفنون والصنائع بالعباسة ، حيث درس فن تصميم السجاد الشرقى ، وتخرج فى عام ١٩٦٢ .

● عمل رساماً للسجاد بالمؤسسة المصرية العامة للتعاون الإنتاجى منذ عام ١٩٦٣ ، وحتى عام ١٩٦٥ ، ثم عمل مشرفاً على مصانع السجاد بمحافظة المينا لمدة سنة حتى عام ١٩٦٦ .

● عمل سكرتيراً للجمعية التعاونية المصرية لصناع وفنانى خان الخليلى ، منذ عام ١٩٦٧ وحتى عام ١٩٦٩ .

● فى عام ١٩٦٩ . انتقل ليعمل فى مؤسسة أخبار اليوم الصحفية .

● عمل مراسلاً حربياً فى جبهة القتال . منذ عام ١٩٦٩ وحتى عام ١٩٧٤ . ثم

عمل بقسم التحقيقات الصحفية ، ثم أصبح رئيساً للقسم الأدبى بالأخبار عام ١٩٨٥ ، ومستشاراً ثقافياً لمؤسسة أخبار اليوم .

- متزوج ، وأب لولد وبنت .

يمكن اعتبار جمال الغيطانى عصامياً فى ثقافته ، فدراسته فنية ، ويعتبر من أوائل المبدعين العرب الذين تعمقوا فى التراث العربى وبحثوا في جذوره عن أسس خاصة للإبداع .

- كتب أول قصة عام ١٩٥٩ ، وكان عنوانها (نهاية السكير)
- نشر أول قصة قصيرة فى يوليو ١٩٦٣ . فى مجلة الأديب اللبنانية وفى نفس الشهر نفسه دراسة عن كتاب (القصة النفسية) تأليف ليون ايدل فى مجلة الأدب القاهرية التى كان يصدرها المرحوم الشيخ أمين الخولى .
- منذ عام ١٩٦٣ وحتى عام ١٩٦٩ ، نشر أكثر من خمسين قصة قصيرة فى صحف ، المساء المصرية ، والأديب اللبنانية ، ومجلة الجمهور الجديد ، وجريدة المحرر اللبنانية وكان يشرف على ملحقها الأدبى الشهيد غسان كنفانى ، ونشر فى مجلة (المجلة) المصرية . كما نشر قصة طويلة بعنوان (حكايات موظف كبير جدا) . فى جريدة المحرر اللبنانية .
- فى مارس ١٩٦٩ ، أصدر أول كتاب له ، (أوراق شاب عاش منذ ألف عام) وضم خمس قصص قصيرة فقط ، كتبت كلها بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ . وقد أثارت المجموعة ضجة كبيرة . وكتب عنها العديد من النقاد . واعتبرت مرحلة جديدة فى القصة القصيرة .
- حتى عام ١٩٨٨ ، أصدر القائمة التالية من المؤلفات :

صـــــدر للمـــؤلف

١ ـ أوراق شاب عاش منذ ألف عام مجموعة قصصية

الطبعة الأولى	١٩٦٩	
الطبعة الخامسة	١٩٨٧	(صدر فى بغداد ـــ بيروت ـ القدس المحتلة عن دار صلاح الـدين)
الطبعة السادسة	١٩٩١	عن الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢ ـ أرض .. أرض **مجموعة قصصية**

الطبعة الأولى	١٩٧٢	الهيئة المصرية العامة للكتاب
الطبعة الثانية	١٩٨٠	بيروت دار المسيرة
الطبعة الثالثة	١٩٩١	الهيئة المصرية العامة للكتاب

٣ ـ الزويل **قصـــة طويلة**

الطبعة الأولى	١٩٧٤	بغداد	وزارة الإعلام
الطبعة الثانية	١٩٨٠	بيروت	دار المسيرة
الطبعة الثالثة	١٩٨٧	القاهرة	مكتبة مدبولى

٤ ـ الزينى بركات **رواية طويلة**

الطبعة الأولى	١٩٧٤	دمشق ـ وزارة الثقافة
الطبعة الثانية	١٩٧٥	القاهرة ـ مكتبة مدبولى
الطبعة الثالثة	١٩٨٥	القاهرة ـ دار المستقبل العربى
الطبعة الرابعة	١٩٨٨	كتاب اليوم ـ مؤسسة أخبار اليوم
الطبعة الخامسة	١٩٨٩	دار الشروق ـ القاهرة
الطبعة السادسة	١٩٩١	دار الجنوب ـ تونس

الطبعة السابعة	١٩٩١	دار الشئون الثقافية ـ بغداد
٥ ـ وقائع حارة الزعفرانى		**رواية طويلة**
الطبعة الأولى	١٩٧٦	القاهرة ـ دار الثقافة الجديدة
الطبعة الثانية	١٩٨٦	القاهرة ـ مكتبة مدبولى
الطبعة الثالثة	١٩٨٧	بغداد ـ دائرة الشئون الثقافية
الطبعة الرابعة	١٩٩١	مكتبة مدبولى
٦ ـ الحصار من ثلاث جهات		**مجموعة قصصية**
الطبعة الأولى	١٩٧٥	اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق
الطبعة الثانية	١٩٨٠	دار المسيرة ـ بيروت
الطبعة الثالثة	١٩٩١	الهيئة العامة للكتاب
٧ ـ حكايات الغريب		**مجموعة قصصية**
الطبعة الأولى	١٩٧٦	كتاب مجلة الإذاعة ـ القاهرة
الطبعة الثانية	١٩٧٠	دار المسيرة ـ بيروت
الطبعة الثالثة	١٩٩١	الهيئة العامة للكتاب
٨ ـ ذكر ما جرى		**مجموعة قصصية**
الطبعة الأولى	١٩٧٨	مكتبة مدبولى ـ القاهرة
الطبعة الثانية	١٩٨٠	دار المسيرة ـ بيروت
الطبعة الثالثة	١٩٩١	الهيئة العامة للكتاب
٩ ـ الرفاعى		**رواية**
الطبعة الأولى	١٩٧٨	الهيئة العامة للكتاب
الطبعة الثانية	١٩٨٠	دار المسيرة ـ بيروت
الطبعة الثالثة	١٩٩١	الهيئة العامة للكتاب
١٠ ـ خطط الغيطانى		**رواية**
الطبعة الأولى	١٩٨٠	بيروت ـ دار المسيرة

الطبعة الثانية	١٩٩١	مكتبة مدبولى ـ القاهرة
١١ ـ كتاب التجليات		**السفر الأول**
الطبعة الأولى	١٩٨٣	دار الوحدة العربية ـ بيروت
		دار المستقبل العربى ـ القاهرة
١٢ ـ كتاب التجليات		**السفر الثانى**
الطبعة الأولى	١٩٨٥	**دار المستقبل العربي**
١٣ ـ كتاب التجليات		**السفر الثالث**
الطبعة الأولى	١٩٨٧	دار المستقبل العربى

● **كتاب التجليات صدرت الأسفار الثلاثة فى مجلد واحد عن دار الشروق ١٩٩٠.**

١٤ ـ اتحاف الزمان بحكاية جلبى السلطان		**مجموعة قصصية**
الطبعة الأولى	١٩٨٥	دار المستقبل العربى
١٥ ـ رسالة فى الصبابة والوجد		**رواية**
الطبعة الأولى	١٩٨٧	روايات الهلال
الطبعة الثانية	١٩٩٠	دار الشروق
١٦ ـ رسالة البصائر فى المصائر		**رواية**
الطبعة الأولى	١٩٨٨	روايات الهلال
الطبعة الثانية	١٩٩٠	مكتبة مدبولى
١٧ ـ شطح المدينة		**رواية**
الطبعة الأولى	١٩٩٠	روايات الهلال
الطبعة الثانية	١٩٩١	دار الشروق

● مختارات قصصية

١٨ ـ منتصف ليل الغربة

١٩٧٤ ـ مختارات فصول ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩ ـ أحراش المدينة

١٩٨٥ ـ كتاب اليوم ـ مؤسسة أخبار اليوم

● دراسات ومشاهدات :

٢٠ ـ المصريون والحرب من صدمة يونيو إلى يقظة أكتوبر

١٩٧٤ كتاب روزاليوسف ـ مؤسسة روزاليوسف

٢١ ـ حراس البوابة الشرقية (الجيش العراقى فى حرب اكتوبر)

١٩٧٥ مكتبة مدبولى ـ القاهرة

١٩٧٥ طبعة ثانية دار الطليعة ـ بيروت

٢٢ ـ نجيب محفوظ يتذكر

طبعة أولى دار المسيرة ـ بيروت ١٩٨٠

طبعة ثانية القاهرة / مؤسسة أخبار اليوم ١٩٨٧

٢٣ ـ مصطفى أمين يتذكر

مكتبة مدبولى ـ القاهرة ١٩٨٠

٢٤ ـ ملامح القاهرة فى ألف عام

القاهرة ـ كتاب الهلال ١٩٨٣

٢٥ ـ أسبلة القاهرة

القاهرة ـ مكتبة مدبولى ١٩٨٤

● تقديم وتحقيق تراث :

٢٦ ـ مقامات بديع الزمان الهمذانى تحقيق الإمام الشيخ محمد عبده دراسة ومراجعة جمال الغيطانى صدر عن مؤسسة أخبار اليوم ١٩٨٨

● أعمال ترجمت إلى لغات أجنبية :

الزينى بركات ترجمت وصدرت عن :

الطبعة الفرنسية	دار	EDITION DU SEUIL
الطبعة السويدية	دار	NORESTAD & SON
الطبعة الانجليزية	دار	PENGIN
الطبعة الهولندية	دار	UNIEBOEK
الطبعة النرويجية	دار	ASCHEOUG
الترجمة الألمانية	دار	LENOS ـ سويسرا
الترجمة الروسية	دار	رادوجا
الترجمة البولندية	دار	الدولة

● وقائع حارة الزعفرانى

ـ صدرت ترحمتها إلى اللغة الانجليزية ، فى سلسلة الأدب المعاصر .

عن الهيئة العامة للكتاب فى القاهرة . صدرت باللغة الألمانية عن دار فولك اندفلت

ـ قصص قصيرة ترجمت متفرقة إلى اللغات ، الفرنسية ، الإنجليزية ، الإيطالية، الأسبانية ، العبرية ، الألمانية .

● جـــوائز :

● جائزة الدولة التشجيعية للرواية عام ١٩٨٠

وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى .

● وسام الاستحقاق الفرنسى من طبقة فارس ١٩٨٧

ـ اعدت دراسات عن أعماله ، فى جامعات ،

القاهرة ، السوربون (باريس) ـ بيركلى (أمريكا)، محمد الخامس (الرباط) ـ جامعة لندن ـ جامعة مارثن لوثر (هالة بألمانيا الديموقراطية) . ـ جامعة ليبزج. ـ جامعة ارلبنخن بألمانيا الغربية .

■ دار سعاد الصباح

للنشر والتوزيع

هي مؤسسة ثقافية عربية مسجلة بدولة الكويت وجمهورية مصر العربية وتهدف إلى نشر ما هو جدير بالنشر من روائع التراث العربي والثقافة العربية المعاصرة والتجارب الابداعية للشباب العربي من المحيط إلى الخليج وكذا ترجمة ونشر روائع الثقافات الأخرى حتى تكون في متناول أبناء الأمة فهذه الدار هي حلقة وصل بين التراث والمعاصرة وبين كبار المبدعين وشبابهم وهى نافذة للعرب على العالم ونافذة للعالم على الأمة العربية وتلتزم الدار فيما تنشره بمعايير تضعها هيئة مستقلة من كبار المفكرين العرب في مجالات الابداع المختلفة.

دار سعاد الصباح

ص.ب: ٢٧٢٨٠

الصفاة ١٣١٣٣ ـ الكويت

ص. ب: ١٣ المقطم ـ القاهرة

